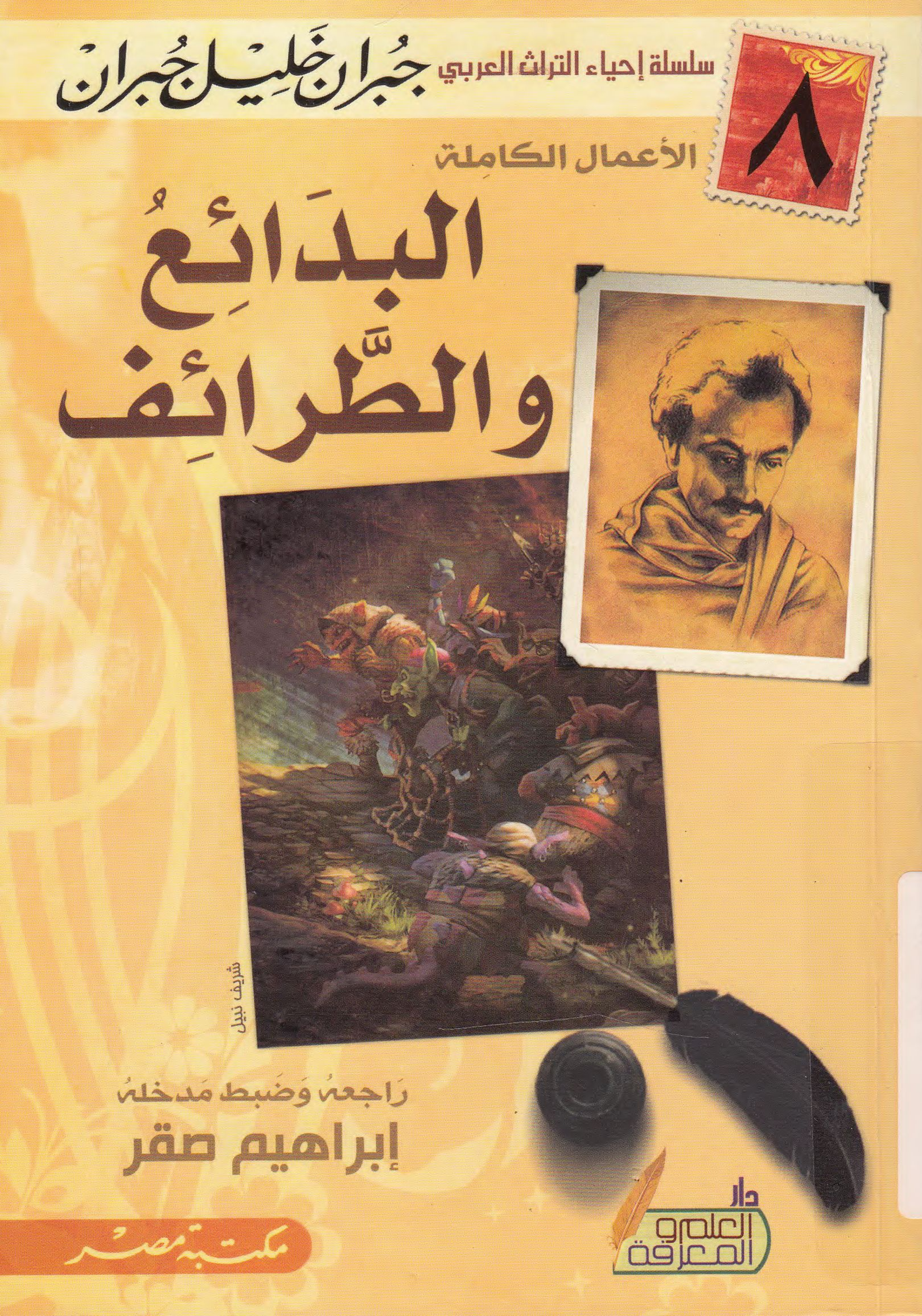


٨
سلسلة إحياء التراث العربي
جُبران خَليل جُبران
الأعمال الكامِلة
البدَائِعُ والطّرائِف
شريف نبيل
رَاجعهُ وَضَبط مَدخلهُ
إبراهيم صقر
مكتبة مصر
دار العلم والمعرفة

البـــدائع
والطرائف

سلسلة إحياء التراث العربي

جبران خليل جبران

البدائع والطرائف

تقديم

كرم الدكروري

راجعه وضبط مدخله

أ/ إبراهيم محمد صقر

الناشر

دار العلم والمعرفة

جميع الحقوق محفوظة

اسم الكتاب :	البدائع والطرائف
تأليف :	جبران خليل جبران
القطع :	١٤ × ٢٠
عدد الصفحات :	٢٤٠ صفحة
سنة الطبع :	١٤٣٢هـ / ٢٠١١م (طبعة جديدة منقحة)
الناشر :	دار العلم والمعرفة
طباعة :	دار مصر للطباعة - القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية - مصر
٢٠١٠/٢٢١٥٦
الترقيم الدولي: 977-11-1623-9

٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسنى مبارك
زهراء مدينة نصر -القاهرة
ت: ٠١٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١١٣٣٣١٢٣٨
E-mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال : ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)



تقـــديم

رفَض المطارنْة الاشتراكَ في مراسِمِ استقبَالِ جُثمان جُبران خليل جبران، في عام ١٩٣١م لُيدفنَ -بِنَاء علَى وَصيّته- في بلدة بشرّي شَمال لُبنان. بَعد نَقل جُثمانه عَبْر البحرِ، مِن أمريكَا، لأنّه «كَافرٌ وُمهرْطِق»، بِزَعم هُجُومه علَى الكهنة.

وقبلَها رَفضَ كاهنُ الكنيسةِ المارُونيّةِ في نيويورك أنْ يُعطيَ تصريحًا لِكَاهِن الكَنيسةِ المارُونيّة في بوسطن بالصَّلاة على جُثمانِ جُبران لأنَّه -أي الكاهنُ- زَار جُبران في المُستشفى، «وعرفَ مِن الراهبةِ أنه رفضَ الاعترافَ بأنّه كَاثوليكيّ».

خشِيت فَرنسا التي كَانت تُسيطرُ عَلى مقَاليدِ لُبنَان أنْ يَضعَها رِجالُ الدينِ المَسيحيّ في حَرَج بَالغ أَمَامَ العَالم بعَدَم الصّلاة عَلى جُثمان الفَيلسوفِ والأَديبِ، والرسَّام الذي بَهَرَتْ كِتَاباتُه الغَربَ، واعتبرتْه جَريدةُ «النيُويورك هيرالد»:

«نَابِغة الملاَيينِ الذينَ يتكلَّمون العَربيَّة في الشَرق».

تدخّلَ سِكرتيرُ المطبُوعاتِ التَابعُ للمندوبِ الفَرنسيّ، بِمُساعدةِ

آخرينَ وشكّلوا وفْدًا وذَهبوا إلى مقرّ البَطريركِ المَارونيّ، إلياس الحُويك، لإقناعِه بالعُدولِ عَن مُوقفِه، واستَعانَ أَحدُ المطَارنةِ بِكلماتِ لجُبرانَ ليثبتَ بها صِحّة مَوقفِهم الرَّافِض له تقول:

«في لُبنان، ذلك الجبل الغنيّ بِنور الشمسِ، الفَقيرُ إلى نُور المعْرفَة، قد اتّحدَ الشَريفُ -يَقصِدُ الإقطاعيّ- والكَاهنُ على إِبَادةِ الفَلّاح المسكين، الذي يَأكلُ خبزَه بِعرق جَبينِهِ، كيما يَحمِي جَسدَه مِن سَيفِ الأَولِ، ويَحمِي روحَه مِن لعْنَة الثّانِي».

وتَابعَ المطَارنةُ: هَل يُعقلُ أنْ نُكرمَ ونستقبلَ مَن له هذا الرّأي في الكَهنة؟

فأجَابَ أحدُ أعْضَاءِ الوفد المُدافع عن جُبران:

«إنّ كُتبه تُقرأ في كَنائسِ أمرِيكا، فَهل يُعقل أن يكونَ كَافِرًا مَن يَقولُ مُخَاطبًا السيدَ المسِيحَ في كِتَابه «يسوع ابن الإنسان»:

«وأنتَ أيها الجبّارُ المصلوبُ، النَاظرُ مِن أَعَالي الجلْجَلة إلى مُواكبِ الأَجيالِ، السَامعُ ضَجيجَ الأُمم الفَاهمُ أَحلامَ الأَبديّةِ... أنتَ عَلى خَشَبة الصّليب المضرّجَة بِالدّمَاء، أَكثرُ جَلالاً ومهابةً مِن أَلْفِ ملِك علىَ ألفِ عَرْش، في أَلْفِ مملكة... بلْ أنتَ بَين النزعِ

والموتِ، أشدُ هَؤلاءِ قوّةً وبَطشًا مِن أَلفِ قَائِدٍ وأَلـفِ جَـيش، وألـف معرَكة... أنـتَ بِكآبتِـك أَجمـلُ مِـن الرّبيـع بِأزهَـاره، بَـلْ أنـتَ بـينَ الجَلّادِين أكثرُ حُريةً مِن نُورِ الشَمسِ.. إنّ إكليلَ الشّوكِ عَلى رأسِـكَ، هوَ أجلّ وأجملُ مِن تَاج بهرام، والمسمارُ في كفّك أثمَـنُ مِـن صَـولجان المـشترَى، وقطـراتُ الـدّماءِ عـلى قَـدَميك أسْـنى لمعانًـا مِـن قَلائِـدِ عشتروت».

تَأثّر البَطريركُ وبَكى. وقَـالَ آمـرًا الكَهنـة: «انْزلـوا إلى بَـيروت، واستقبلوا جُثمان جُبران، فهو أكثرُ تَدّينًا مِنّا».

استَقبَلَ جُثمان جُـبران نحـو ١٦٠ كَاهِنًـا في مَـأتمٍ جَلَـلٍ شَـهدتْه كَاتِدرائيةِ القدّيس جِرجِس في بيروت.

فَشَلَ الثّرى في أنْ يقبُرَ «عواصفَ» جُبران، وعاشتْ فَلسفتُه لتَثِيرَ غَـضبَ مُعظـم رِجَـالِ الـدّين -مَـسيحيين ومُـسلمين- وخَنـاجرَ المُتَشدّدين وسخَطَ المقلّدِين ممّنْ صَدَأتْ أَروَاحُهم وأُغلقتْ عُقـولُهم. وسَيظلُّ جُبران نَاقوسًا مُزْعِجًا مَـا بقـىَ الـشَرقُ جَـسدًا تَنهـشُه عِلَـلُ البَلاَدة، وأهلُه يتلذّذُون ركوعهم مِن المهْد إلىَ اللّحدِ أمَـامَ طَـواغِيتِهم ومَا أَلفَوْا عَليه آباءَهم، دُونَ أنْ يَتَأملُوا الحَياةَ ويُعِيدوا مَعرفةَ أَنْفسِهم بِوعْيٍ وَفكْر طَلِيق.

جُبران خليل جبران

١٨٨٣م-١٩٣١م

حياتُـــه وآثــــاره

مولده.. نشأته.. سفره

وُلد جُبران في بَلدة بشرّي المتّكئةِ عَلى كَتِف وَادي قاديشا، في ظِلالِ الأَرْز حَيثُ تَتَفجرُ الأَرضُ مَاءً وخُضرةً وزهرًا، والثُلوجُ تعمّم الجِبالَ مُعظمَ فُصولِ السنة، وكَانت وِلادتُه صَباحَ السَادسِ مِن كَانُون الثاني (يناير) سنة ١٨٨٣م، في كَنَفِ عائلةٍ قليلةِ الموارِدِ مؤلّفة مِن الأب خليل، والأم كامِلة رحمة التي كَان لهَا مِن زَواج سَابق ولدٌ اسمُه بُطرس، ورُزقت مِن زَواجها مِن خليل جُبران ثلاثةَ أَولاَد: جُبران أكبرهُم، وأُختَاه مَرْيانَا وسُلطَانة.

في الخَامسةِ مِن عُمره تَلقّى مَبادئَ العَربيّةِ والفَرنسيّة والسِّريانيّة في مَدرسةِ أليشاع «تحت السّنديانَة» وتعرّفَ عَلى النَهضةِ الإيطاليةِ مِن جَرّاء تردّده علَى مَركزٍ للرُّهبَان الإيطَاليين.

أُصيبَ والده بِنكسة ورَاحَ ضَحية تُهمة أودَت بِه إلىَ السّجن، فَلملَمت كَامِلة رحمة نفسَها وسَافَرت مَع أولادها الأربعة: بُطرس، وجُبران، ومريانا وسلطانة إلى أمريكا، سنة ١٨٩٤م.

في بوسطن:

استقرتِ العَائلةُ في الحيّ الصينيّ مِن مَدينةِ بُوسطُن، حَيثَ دَخلَ جُبران مَدرسةً شَعبيةً تَعلّم فِيها أصولَ اللغةِ الإنجليزيّة، وكَانَ له، بِفضلِ مُعلّمته الأمريكية، لِقاء مَع «فريد هولاند» الذي ساعدَه عَلَى دِراسةِ تِقنيةِ الرسْمِ ومكّنه مِنْ مُواصَلة تَعلّم الإنجليزية.

وبَعد ثَلاث سَنوات مِن العَملِ والكَدّ، استَطاع أَفرادُ أسرتِه أن يَجمعُوا مِقدارًا مِنَ المَال مَكّنهم مِن إرسَال جُبران إلى بَيروتَ ليدرُسَ اللغَةَ العَربيةَ والفَرنسيّة، لأَنهم تَوسّموا فِيهِ الرجلَ النَابغةَ الذي سَيكون له مُستقبلٌ بَاهر، ومكانةٌ سامِقة، في عَالمِ الفِكر.

بيروت: مدرسة الحكمة:

في بَيروتَ التحَقَ بِمدرسة «الحِكمة» وطُوال ثَلاثة أعَوام اسْتَطاعَ أن يُوسّعَ مَعرفتَه باللّغة العَربيّة، وتتفتّحَ له، بفضلِها، آفاقٌ جَديدة، وكانَ له رُفقاءُ وطّد معرفتَه بهم، ومِنهم النحّات يوسُف الحويك الذي سيكونُ لَهُ شَأنٌ كَبير في حيَاة جُبران. وكَان مُعلّمه في اللُغَة العَربيّة الخوري يوسُف الحدّاد الذي استَقَى جُبران مِنهُ اللُغَةَ مِن مُورِدهَا العَذْب، فَأجادَهَا وأَبْدعَ فِيهَا.

العودة إلى بوسطن: تجربة الموت:

وفي عام ١٨٩٩م، عامَ عَودته إلى بُوسطن بَدأَ في مُزاوَلـةِ الرّسْـم والكتَابةِ، لَكنّ الفَواجِعَ العَائِلية تَوّالت عَليهِ فَأوقَفتهُ مُرغَمًا أمَام تَجرُبة الموتِ، وذَلك عِندَما مَاتت أُختُه الصُغْرَى سُلطَانة بِمرض السّل عَـام ١٩٠٢م، ولحِقَ بها أخوه بُطرس، ثُمَّ أمّه، في السنةِ التَاليـة، وبِـالمَرض عينهِ، فَاستوْلى الحُزنُ واليَأسُ عَليه، وَعبّر عَن ضَراوة ألمـه بِقولـه بَعـد مَوتِ أمّه: «فَقدتُ يَنبوعَ الحُنوّ والرَأفَةِ والغُفْرَانِ والصّدرَ الذي أسـندُ إليه رَأسي، واليَد التي تُبَارِكني وتَحرُسني».

إلاَّ أنّ هَذهِ الفَواجِعَ لم تهدّ عَزيمَةَ جُبران، بـلْ وجـدَ فِيهَـا حَـافزًا للانطِلاقِ مِن جَديدٍ في عَـالمِ الفَـنّ، واسـتطَاع سَـنة ١٩٠٤م أنْ يُقيمَ مَعرِضًا لرسُومه الرّمزيّة، تَعرّفَ خِلاله إلىَ سَيدةٍ أمريكية تُدعىَ «ماري هاسكل»، وعَلَى جَانب مِنَ الثّـراء، فَقـد أُعجِبـتْ بِرسـومِه وأَظهـرتْ إعجابهَا بها، ودَعتْه إلى عرْضِها في المدرسةِ التِي كَانت تديرُها.

وقدْ كَان لماري هَاسكل هَـذهِ دَورُهَـا الحَاسـمُ في تَوجِيهـه الأَدبيّ والفَنيّ. فَقدْ مَنحت الفَنانَ النَاشئ رِعَايتَها ومُسَاعدتَها فأكـبّ يَرسُـم ويكتُب، وَينطلِق، وبِالتَـالي، في عَـالم الـشُهرة، وشِـعارهُ: «لا أريـدُ أن أكتُبَ اسمي بِماء عَلَى سِفْر الوجود، بَل بِأحرفٍ مِن نَار».

وفي العَام نفسه، ١٩٠٤م التَقَى جُبران أمين الغريب صَاحبَ جَريدة «المُهاجَر» فأُعجِبَ هَذا الأَخيرُ إعجَابًا شَديدًا بِخَواطرِ جُبران ورُسُومِه. وعَرضَ أن يَنشرهَا في جَريدَته، وفي آذار (مارس) مِنَ السّنَةِ نَفسِها ظَهرَ أولُ مَقَال لجُبران عِنوانُه: «رُؤيا» وكَان لَهُ صَدَاهُ الواسِعُ والعَمِيقُ والبَليغُ لَدَى القُراءِ مِنْ حَيثُ طَرَافَةِ النّهج والإبدَاعِ في الخَيَالِ.

هَذهِ الانطلاَقةُ شَجَعتْه عَلَى أنْ يَجمعَ مَا كَانَ ينشُره في الصّحف مِن مقَالاتٍ وأقَاصِيصَ في ثَلاثةِ كُتُبٍ نَشرَها عَلَى التوَالي خِلالَ أَربَع سَنوات وَهيَ: المُوسيقى (١٩٠٥م)، وعَرائِس المُرُوج (١٩٠٦م)، والأَروَاح المُتمَردَة (١٩٠٨م).

باريس: تجربة فنية لامعة:

وكانَ جُبرانُ أبدَى لماري هاسكل رَغبتَه في تَعلُّم أصولِ الرّسم في بَاريسَ، فَلم تَقفْ ماري حَائِلاً دُونَ تحقيقِ رَغبتهِ، إذْ لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بالمُسَاعَدة الماديّة. كَما لم تكُن تَضِنّ عَليهِ بِحنَانِها، فلّبت رغبته وأرسَلتهُ إلى باريس عام ١٩٠٨م.

وفي باريسَ أقَامَ سَنتين يختلفُ إلى مَدرسَة «الفنُون الجَميلة» ويَتلقَى دُروسَ «أكَادِيمية جُوليَان» التي لم يَطُلْ بِه الوَقتُ حَتى تَركَها

لُيمَارِسَ الرسّمَ الحُرَّ في مُحترف اسْتَأجَره هُو وصَدِيقُه النّحَات يُوسف الحويك. وكَانت هَذهِ المَرحَلةُ مِنْ حَيَاتِه محطّةً بَارِزة فَتحت لَهُ آفَاقًا جَديدة. ولم يَنسَ «لُبنانه» فظلَّ يحِنّ إليهِ ويَتَذكّره شَمسًا طَالِعةً مِن وَرَاءِ صَنين، أو جَانِحةً إلى الغُروب. وطلولاً وأودية يَنسَاب مِنها السّحْر انسِيابَ العِطر مِن الزهْر الفوّاح. أمَا الكسْبُ الرَفيعُ الذي نَالهُ في بَاريس والذي ملأهُ عزّة وفَخرًا. وهُوَ أنَّ الجَمعية الوطنية للفِنون الجَميلة، في بَاريس، اختَارت إحدَى لَوْحَاته مِنْ بَين تِلكَ التي عَرَضَها في المَعرِض الذي أقَامته. فَلا تَسلْ، إذ ذَاك، عَن نَشوة الفَنانِ التي تَفُوق كُلّ وَصْف.

إلى بوسطن فنيويورك:

عَام ١٩١٠م عَادَ إلىَ بُوسطن، وانتقلَ عَام ١٩١١م إلى نيويورك بِإلحَاح مِن أَمِين الريحانيّ الذي التقَاهُ في بَاريس، فَاستَأجرَ غُرفةً في غرينتش، حَيّ الفَنَانِين في تِلكَ المَدينَة، ونشر في السنة ١٩١٢م «الأجنحة المتكسرة» وهِيَ قصّة جَمع جُبران بَينَ دِفتَيها أصْدَاءَ خَفقَاتِ قَلبِه حَتى تعرّف، أثنَاء إقَامَته بَينَ بيرون وبشرّي إلى حلا الضاهر، وأَهْدَى هَذَا الكِتابَ عَربونَ وَفاءٍ إلى ماري هاسكل «التي تحدّق بِالشمسِ بِأجفَانٍ جَامدة، وتَقبضُ عَلَى النَّار بِأصابعَ غَيرِ مُرتَعشة،

وتَسمعُ نَغمةَ الرُوح الكلّي مِن وراء ضَجيج العُميان وصُرَاخِهم».

في سَنة ١٩١٤م جَمعَ في كِتَاب أسمَاه «دمعة وابتسامة» مَقَالاتٍ كَانَ قَد نَشرَها في بَعض المجلّات والصّحُف. وفي الآنَ نَفْسه، كَانت ماري هاسكل تُشّجِعُه وتَدْفَعُه عَلَى الكِتَابةِ بِاللغَة الإنجليزية؛ فَأصدَر «المَجْنُون» سنة ١٩١٨م، و«السَابِق» سنة ١٩٢٠م.

وفي اللُّغَة العَربيّة صَدَرَ لَهُ «الموكب» سنة ١٩١٩م، و«العَوَاصِف» سنة ١٩٢٠م، و«البَدَائِع والطَرَائِف» عام ١٩٢٣م.

إبّانَ الحَرب العَالميةِ الأَولَى، حَلّت الكَارِثة بِلُبنَان فَجوّعت أبنَاءَه وشرّدَتهم وقَضْت عَلَى الآلافِ منهم، فَتنغّص عَيشُ جُبران، وعبّر في سِلسِلةٍ مِنَ المَقَالاتِ التي نَشرَهَا، عَن هَوْل الفَاجعةِ وأثرِهَا في نَفسِهِ، ولم يَكتفِ بالكتابةِ بَلْ سَاهَم مَعَ بَعض إِخْوَانِه الأُدبَاءِ في إِنْشَاء لجنَة إغَاثةِ المَنْكُوبينَ التي استطَاعت أنْ تُخفّف -بَعضِ الشَيءِ- مِن وَطأة المأسَاةِ عَلَى اللُبنَانِيين.

تأسيس الرابطة القلمية:

في هَـذِهِ المرحَلة توَطّدت عِلاقَاتُ جُبران بِكَثيرٍ مِنَ الأُدبَاءِ اللُبنَانِيين والسُورِيين فِي المهاجَر، فعَقَدُوا الاجتمَاعَاتِ الكَثِيرةَ وقَرّروا

إِنشَاءِ جَمعيةٍ تَنهضُ بِالأدب العَربِيّ الرَاكدِ إلىَ المُستَوى العَالميّ. وبَعدَ أَنْ وَضعت الحَربُ أَوْزَارَهَا، استَمرت الاتصالاتُ بَينَ هؤلاءِ الأُدبَاء، التي انْتَهت بِتَأسِيس «الرَابِطَة القَلَميّة» التي كَانَ شِعَارُهَا انتِشَال الأَدَب العَربيّ «مِنْ وَهدَة الخُمُول والتَقلِيدَ إلىَ حَيثُ يُصبِحُ قُوةً فَعَّالة فِي حَياةِ الأمّة».

تَأسَسَت الرَابِطَةُ سنة ١٩٢٠م بِرئَاسَةِ جُبران، وكَانَ سَائرُ أَعضَائها المؤَسّسِين: ميخائيل نعيمه، نسيب عريضة، رشيد أيوب، ندرة حداد، وليم كستفليس، إيليّا أبو ماضي، ورشيد الباحوط.

غَيرَ أنّ اهتمامَهُ بِأمُور «الرابطةِ القَلميّة» لم يَصْرفْه عَن الاهتِمَامِ بِنتَاجِهِ الشَخصيّ فَأصدَر سنة ١٩٢٣م رَائِعته «النَبيّ» بِاللغَة الإنجلِيزية. قَالَ عَنهُ: «إنّه دِيَانتِي وأقدسُ قُدسيّاتِ حَيَاتي». وقال عنه لماري هاسكل في إِحدَى رَسَائِله: «أُريدُ أنْ أَحيَا الحَقِيقَةَ. بَدَلاً عَن الكِتَابةِ عَن النَّار. أفضّلُ أنْ أكُونَ جَمْرةً تَتَأجّج، أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مُعَلماً. وبِمَا أنيّ مُستَوحَد أُرِيدُ التَحَدُّث إلىَ جَميع المستوحدين».

مرضه وموته:

ومَعَ أنّ المرضَ لازَمَهُ كَطِيفٍ فَقَضّ عَليهِ مَضجَعَه، إلاّ أنّه مَا

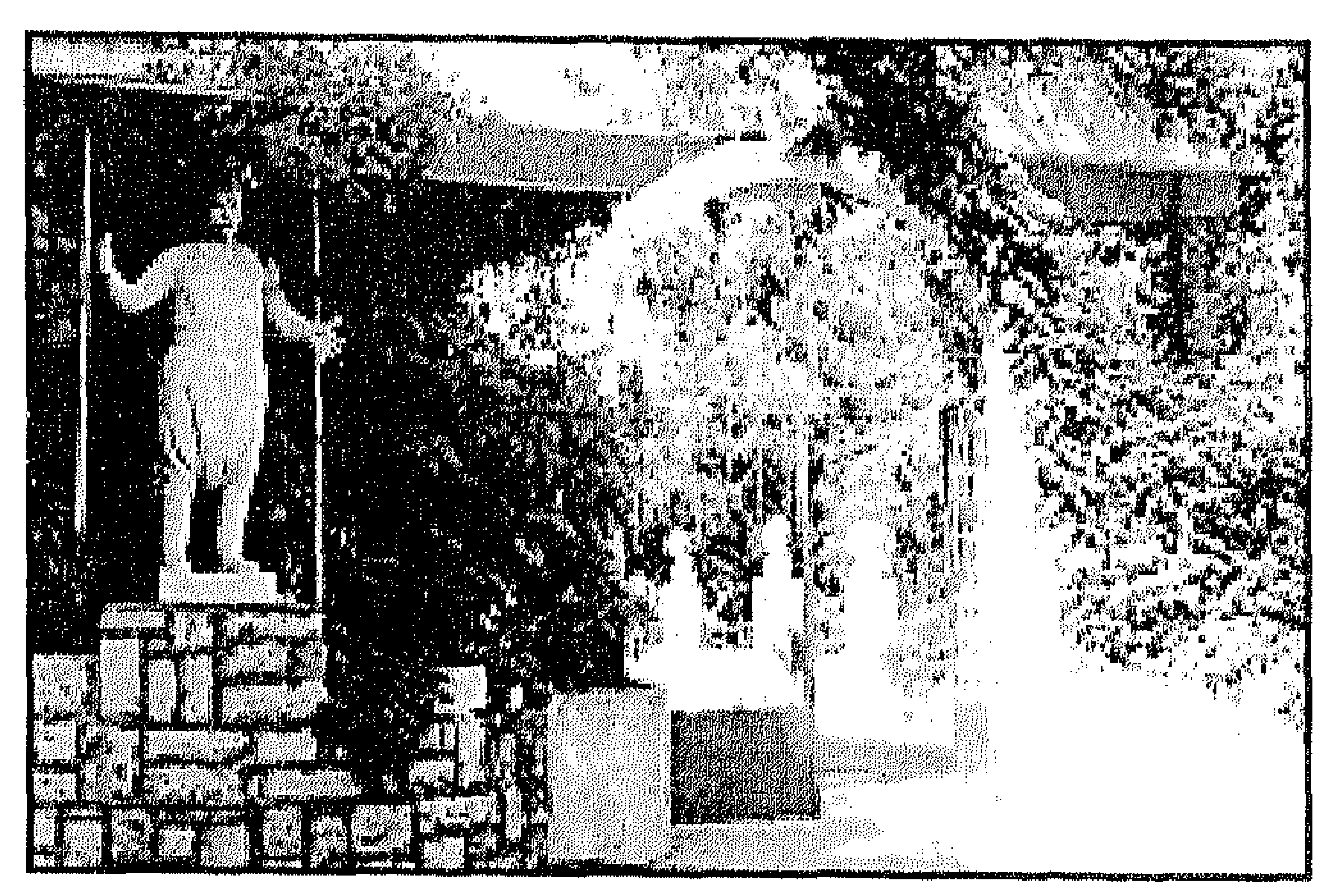
استَسلمَ لمشِيئةِ القَدَر، فَلم يَنْقَطِعْ يومًا عَن الرّسْم والكِتابةِ، واستَطَاعَ أنْ يُصدِر عَلَى التَوَالي في اللُّغَة الإنجليزية: رَمل وزَبَد (١٩٢٦م)، يسوع ابن الإنسان (١٩٢٨م)، آلهة الأرض (١٩٣١م سنة وَفَاته) وصَدَر «التَائِه» سنة ١٩٣٢م، أي بَعدَ وَفَاتِه بِسَنةٍ وَاحِدة. و«حَدِيقَة النَبيّ» سنة ١٩٣٣م.

لكنّ طَاقةَ جِسْمَه اسْتَنفَذَهَا جُبران في عَمَلِه المُرهَق، فَلفَظَ أَنْفَاسَه الأَخِيرة في ١٠ من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١م، ونُقل جُثمانُه صَيفَ ذَلِكَ العَام إلىَ مَسقَط رَأسَه بشرّي، بِنَاءً عَلَى وَصيّته. وكَانت رَقدَتُه الأَخِيرةُ في صَوّمَعةِ دِير مَار سَركِيس المُطّلةِ عَلَى الوادي المُقدّس.

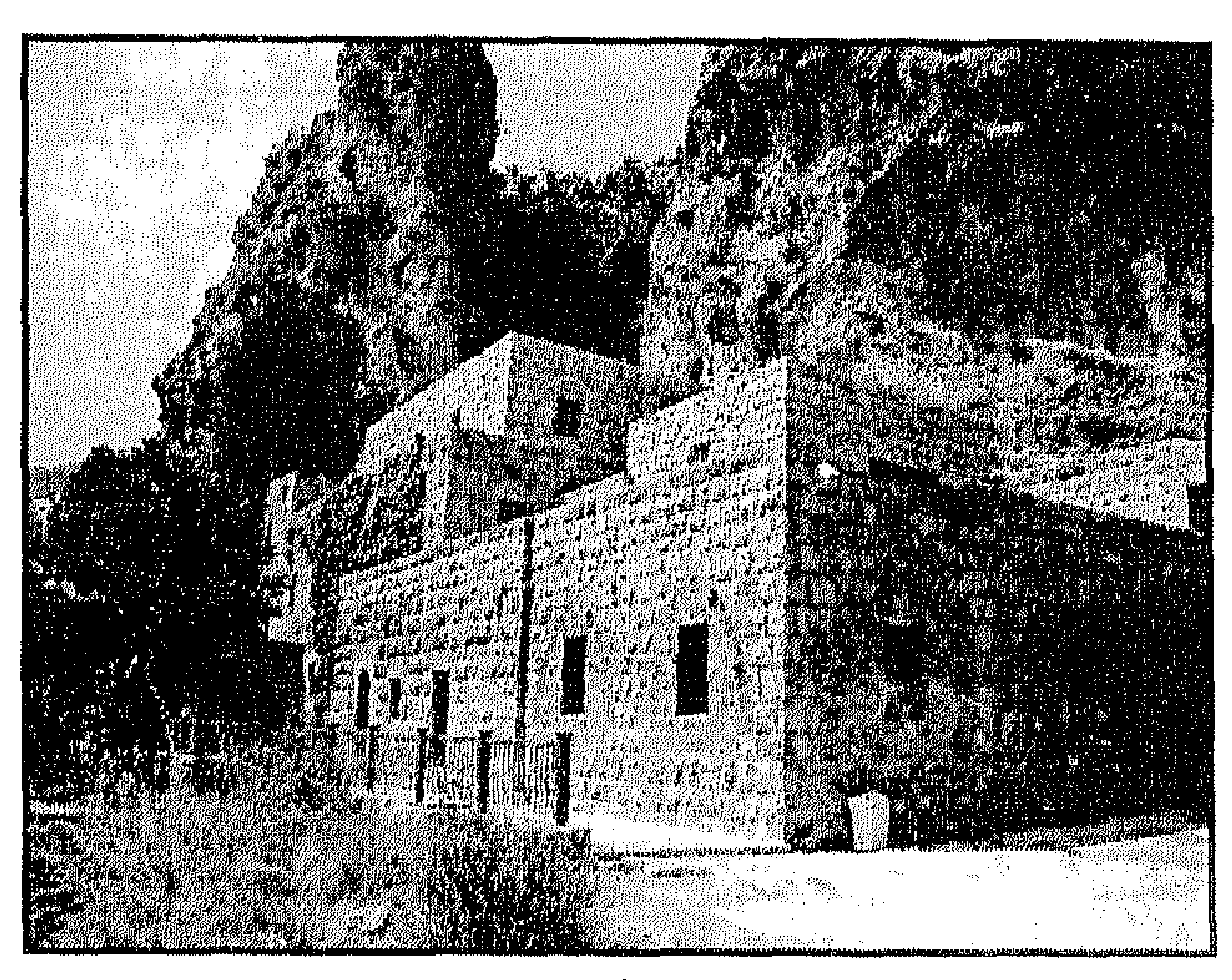
□□□



جبران في مدرسة الحكمة – بيروت



منزل جبران في بشري



قبر جبران ومتحفه في غابة مارسركيس

البدائع والطرائف

تعريف:

ظهر هذا الكتاب في مصر سنة ١٩٢٣م، وهو آخرُ ما أصدره جبران في العَربيّة. نشرته «مكتبة العرب» التي اختارت هي مَادّته مِمَّا نشره جبران في الصُحُف في مختلف عُهوده، منذ أيام دراسَتِه في «الحكمة»، ما عدا بضع حواريّات. ولم يكن لجبران رأي في انتقائها ولا في تسميتها.

ضمّ الكتاب مجموعةً من المقالات والحِكَم والقصص والأحاديث تفاوتت قيمتُها بين الغَثِّ والسمين. كما ضَمَّ مجموعةَ رسومٍ لأعلام الفكر العربيّ.

المضمون:

في هذه المجموعة تعليقات صحفيّة في صيغة متقلقلة وآراء سطحيّة كما في «ابن سينا»، أو «الاستقلال والطرابيش». وفيها مقارنات بسيطة كالمُقارنة بينَ رائعة ابن سينا في النفس وروائع شكسبير وشلي وغوته وبراوننغ.

أمَّا القِطَعُ من خواطر وأقاصيص وحواريات التي تتميّز بمعناها ومبناها فأهمّها:

القشور واللباب:

عرض جبران في هذا المقال الطويل انطباعاته الوجدانية، ونظراته الفلسفية في التناقض الظاهر في حالاته النفسية فيما الجوهر واحد. يشرب كأسًا مريرة فيجد في الثمالة حلاوة، ويخلع رداءه الذي ستر ألمه فيرى الألم قد تحوّل بهجة. ويصحُو من سكرته فلا يرى بين الناس حُملانًا وذئابًا، بل أشباهه من البشر.

إنه يدعو إلى تمزيق ما تحوكه الحَواسّ لبلوغِ التَسامي، فلا يعودُ يميّز بين راهبةٍ تنشده بصلاتها، وبين مومس ترجوه بالألم، لأن في روح كلٍّ منهما مظلّةً لروحه.

ويفسِّر نظرته إلى الفن فلا يرى الأصيل منه في نبرات الأغنية وخفقاتها، ولا في رنّات أجراس الكلام في القصيدة، ولا في الخطوط والألوان والظِلال في التَصوير، بل في المَسافَاتِ الصَامِتَةِ المُرتَعِشَةِ في الموسيقى، وفي ما ينبثق عن روح الشاعر وما توحي به الصورة مما هو أبعدُ منها وأجمل.

نفسي مُثْقَلَة بأثمارها:

في هذه الخواطر المثالية دعوةٌ إلى التعاطف مع الغير ولكن من عَلُ. فنفسه التي أثقلتها أثمارها تفتِّش عن جَائع لتُشبِعَه، وعن صائم يريحُها من عبءِ نتاجها. إنها من رواسب تأثُّر جبران بنيتشه فيلسوف «الإنسان المتفوِّق».

ويبدو أن المؤلِّف لم يَجِدْ جائِعًا يَجني ويَشبع، فآثر أن يكون شجرة لا تُزهر ولا تُثمر، وبئرًا جافة بدل أن يكون يَنبوع ماءٍ حيّ.

حفنة من رمال الشاطئ:

مجموعة أمثال وحكم تمهّد لمجموعة «رمل وزَبد» (بالإنكليزية)، فيها دعوةٌ إلى نزع القناع الظاهر لاكتشاف الباطن، وإلى التحرر «إذا رأيت عبدًا نائمًا نبهته وحدثته عن الحرية»، وإلى قول الحقيقة التي تفرض نفسها، لأنها إن احتاجت إلى برهان كانت «نصف حقيقة».

سفينة في ضباب:

هي حكاية رجل آمن بالقرينة، أي بالمرأة الوهميَّة، التي يعتقد البعض أنها ترافق المرء حيثما حلّ، ولا تبخل عليه بنصيحة ولا بمعونة.

ويروي هذا الرجل أحداثًا غريبة عجيبة في أسفاره عن هذه الرفيقة الخيالية، التي كلَّما استيقظ من نومه رآها مُتَّكئة على مساند سريره، تنظر إليه بعطف الأمومة وكلما حاول عملاً ساعدَتْه على تحقيقه.

ويبدو أن جبران كان يؤمن إلى حدّ ما بهذه الخرافة. ففي رسالة وجَّهها إلى ميخائيل نعيمة في شباط (فبراير) سنة ١٩٢٣م، (سنة صدور البدائع والطرائف)، شكا إليه سوءَ حاله بقوله: «سألت نفسي مرّات ما إذا كانت جنيتي أو قرينتي قد تحوّلت إلى عفريت يناديني ويقاومني ويوصِدُ الأبواب أمامي».

وعظتني نفسي:

في هذه الخواطر فعلُ توبةٍ عما جاء في كتابه «العواصف»، من نَقمه على البشر، وَكَرْهٍ لهم. فإذا هو في حوار ذاتي، يصغي إلى عِظَةِ نفسه، فيدرَك أنه ليس بأرفع من الصعاليك، ولا أدنى من الجبابرة، وقد كان من قبلُ يحسَبُ الناس رجلين: رجلاً ضعيفًا يزدريه، ورجلاً قويًّا يتبعه أو يتمرّد عليه. أدرك أنه من طينة الآخرين وشريكهم، إن أذنبوا فهو المذنب، وإن أحسنوا عملاً فاخر بعملهم، وهو إن سار بالنور فليس هو النور.

لكم لُبنانكم ولي لُبناني:

إنه فعلُ إيمان بلُبنانَ جديدٍ، ينفُضُ عنه غبارَ الحاضر، بل رماده، ليُبعَثَ كطائر الفينيق بوجه رائع جدير بالمدينة الفاضلة، التي تحدث عنها الفارابي بعدَ أفلاطون. أي الوطن الأمثل.

ندَّد جبران بالمخادعة المحجَّبة بنقاب من ذكاء مستعار يَتَّجِرُ بها السياسيُّون المحترفون، وثار على الرياء المختبئ في رداء التقليد، الذي يتفتَّش عليه أعداءُ التطور، واحتقر العبيدَ القانِعين بقيودهم.

مقابلَ هذه الصورة القائمة التي رسمها في لبنان اليوم طلع بصورة لُبنانه، اللبنان المرتجى، وأعلن أن مواطنيه الذين يفخر بهم هم الفلاَّحون، والرعاة، والكرَّامون، والحصَّادون، والبناؤون، والفخّارون، والحائكون، الذين يستنبتون الطبيعة خيراتها، ويبنون، وينسجون، ويتجرَّدون في خدمة بلدهم. وهم أيضًا الشعراء الذين يسكبون أرواحهم في كؤوس جديدة. وهُمُ السائرون بأقدام ثابتة نحو الحقيقة والجمال والكمال، وهم العصاميون الذين يولدون في الأكواخ ويموتون في قصور العلم.

أيتُها الأرض:

قصيدةُ نَثْرٍ فيها غَزَلٌ بالأرض المُتَّشِحَةِ بالظِلِّ، العَذْبَةِ الأغاني فيها تمجيدٌ للطبيعة في مختلف مظاهرها في السهل والجبل، في البحر والوادي والغابة، في جميع الفصول.

الأرض سخيّة بالعطاء، تحنو على أبنائها المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم. نحن نُذنِب وهي تُكَفِّر، نحن نُنَجِّسُ وهي تُقَدِّس. إنها مثالُ الطهر والنبل والجلال. إنها الأمُّ الرؤوم التي لولا البشرُ لما كانت، لأن الإنسان يقدِّر جمالَها بعينيه، ويشوق إليها في قلبه، ويرنو إلى خلودها بروحه.

البحر الأعظم:

للبحر في نظر جبران مفهوم خاصّ عبّر عنه في الكثير من كتاباته.

البحر هو اللانهاية، الأم الكونية، والذات الكبرى، والبحر الأعظم يحتضن كلَّ الجداول. هو يصعِّد الضباب الذي ينعقد قطرات مطر، ثم يسير جدولاً، فتتكرر هكذا العودة الأبدية. عودة القطرة المحدودة إلى المحيط اللامحدود. إنه طريق الحقيقة الأزلية، تنطلق فيه السفينة بالأطهار نحو آفاق تتجاوز الأرض.

هذا هو البحر الأعظم الذي نشده جبران بعد أن غادر البحر العظيم.

في سنة لم تكن قطّ في التاريخ:

يعود إلى نظرته في الحبّ التي عبّر عنها في «دمعة وابتسامة» وهي التوق إلى الاتحاد بعد الموت.

مستقبل اللغة العربيّة:

رأى جبران أن اللغة كائن حيّ لابد أن تتطور لكي تواكب العصر وإلاَّ اعتراها الجمود وفقدت حيويتها الخلاَّقة وطاقتها على الابتكار. والمعين الأفضل لإغناء اللغة هو الحوار اليومي. الكلام المتداوَل أو ما يُعرف باللهجات العامية، ولا سيما الأغاني العاميَّة المعبّرة عن نفسية شعب من الشعوب وتطلّعاته بعفوية وصدق. ورأى أن في الزجل من الكنايات والاستعارات والتعابير الرشيقة ما لو وُضع بجانب الكثير من القصائد المنظومة بالفُصحى لبان كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب.

رأى أن إحياء اللغة رهن نتاج الشاعر لأنه أبو اللغة وأمها،

يطوّرها بإبداعه، لأنه السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عـالم البحث. اللغة تتبع سُنّة بقاء الأنسب وفي اللهجات العامية الكثير من الأنسب، الذي سيبقى.

العهد الجديد:

يتطرق المؤلف إلى واقع الشرق ويميِّز بين رجـل الأمـس ورجـل الغد، أي بين الغارق في غياهب التقليـد، النـائم عـلى أمجـاد المـاضي، وبين الناظر إلى النور. ويسأل هل أنـت تنـصر الرجـل الأوّل؟ فـإذن أنت مجرم سكنت القصور أم السجون؛ وهل أنت تؤيد الثاني؟ فـإذن أنت محسن تستحق الشكر.

ويقارن بين تاجر يستغلُّ حاجة الناس ليجنـيَ الـربحَ مـن أهـون سبيل، وبين رجل جد واجتهاد. كما يقارن بين رئيس دين يعيش عـلى حساب الغير مستغلاً سذاجة الشعب، وبين تقيٍّ وَرِع يرى في فـضيلة الفرد أساسًا لرقي الأمة. وهذه المقارنة تؤيد وجهة نظره.

ويشنّ حملـة عـلى الـشاعر الـذي يـضرب الطنبـور أمـام أبـواب الأمراء، وينثر الأزهـار في الأعـراس ويـسير وراء الجثـث الهامـدة،

ويثني على الموهوب الذي يستولد القيثارة أنغامًا علوية.

أبناء العهد الجديد هم الذين نادتهم الحياة فلبّوا نداءها.

الوحدة والانفراد:

الوحدة جزء من طبيعة الإنسان، لأن حياته جزيرة منفردة بآلامها وأفراحها، وهذا ما يميّزه، ولولا هذه الوحدة والانفراد لكنتُ إن سمعتُ صوتك ظننتني متكلمًا. وإن رأيتُ وجهك توهمتُ نفسي ناظرًا في المرآة.

وهكذا يستمرُّ الإنسان مُستَوْحدًا، غريبًا عن نفسه إلى أن يصبح هو والآخرون في انصهار موحّد، يقضي على الغربة والوحدة، في وحدة وجود.

إرم ذات العماد:

هذه الحوارية هي أهم ما جاء في هذا الكتاب. أرادها المؤلف مسرحيّة تجري أحداثها في لُبنان وأشخاصها: درويش عجميّ، وأديب لُبناني، وآمنة العلوية المعروفة بجنيّة الوادي، وهي الشخص الأساس لأنها تمثل نظرة جبران الصوفية أفضل تمثيل.

وَفقَ هذه النظرية الحُلُوليَّة المُتَصَوِّفيَّة إلى الإنسان والكون والحياة، كلُّ مكان وزمان حالةٌ روحيّة، فإن أغمض المرء عينيه ونظر في أعماق أعماقه، رأى العالم بكليَّاته وجزئياته، بل رأي جوهرَ الحياة المجرّد، لأن كلَّ ما في الوجود كائن في باطن الإنسان وكل ما في باطن الإنسان، موجود في الوجود، وليس ثمة حدّ فاصل بين أقرب الأشياء وأقصاها، أو بين أعلاها وأخفضِها، أو بين أصغرها وأكبرها. ولكنْ، لا يتسنى للإنسان أن يرى ذاته، وبالتالي دور الحياة المجرّد إلا عن طريق التشوّق إليها. إن بوسع كل إنسان أن يتشوَّق ثم يتشوَّق حتى ينزع الشوق نقاب الظواهر عن بصره فيشاهد إذ ذاك ذاته.

القصائد:

إن القصائد التي وردت في الفصل الأخير من الكتاب لا تزيد شيئًا في مضمونها عمّا جاء في النصوص النثرية.

في «سكوتي إنشاد» يتناول الشاعر التناقض في حالته النفسيّة بين الجوع والتخمة، والصحوة والسكر. لكن هذا التناقض ليس في الحقيقة إلا من الظواهر لأن الباطن، أي الجوهر، هو واحد...

وفي «من يعادينا» تأكيد على أنَّ هذا التناقضَ وَهْمٌ من الأوهام.

وفي «يا نفس» طموح إلى تجاوز الفناء لبلوغ الخلود. الزهرة تذبل لكنَّ بذورها تبقى. واتَّخذ جبران مَثَلَ الزهرة دليلاً على الخلود.

«حرقة الشيوخ» نداء إلى التنعُّم بالحياة لأن الشباب لا يدوم.

«أغنية الليل» غَزَلٌ بروائع الطبيعة حيث يحلو الحب ويطيب السمر.

«البحر» هو الجامع الأكبر. رمز الوجود الكلّي.

في «الشحرور» توق بشريٌّ إلى محاكاة الطائر في تحرره من القيود، وانصرافه إلى التغريد.

في «الجبّار الرئبال» فعل إيمان بالبعث والتقمّص، إذ الموتُ صُبحٌ يوقظ النائم من غفلته.

في «يا بَني أمّي» لوعةُ حنينٍ إلى الصِبا ونشوة الحب.

تتميّز هذه القصائد بطلاوة الإيقاع والسلاسة، لكأنها وُضعت مُلَحَّنة في أصلها فلا تحتاج إلى ملحّن. إنها لا تختلف في صيغتها عن «المواكب».

نظرة عامة:

إن العناوينَ الرئيسيّة التي برزت في كتابات جبران تتكرَّر في هذه المجموعة، ومنها بنوع خاص الثورة على التقاليد والتحجّر، وعلى البهرج الفارغ، والأنانية الهدّامة، والمتاجرة بالقِيَم الخُلُقية والوطنية والدينية، وعلى الظلم الاجتماعي. ومنها الكَرْزُ بالعودة إلى الطبيعة، إلى ما توحي به من طهر وعفوية وانفتاح.

لقد تخطّى جبران ما في لُبنان من معضلات، وعِقَد سياسية، وأغراض وتفرقة، وطوائف وأحزاب وشرائع، إلى ما يُلهم من جمال ويثير من أحلام، رآه تلالاً تتعالى بهيبة وجلال نحو ازرقاق السماء، وأودية هادئة سحريّة تتموَّج في جنباتها رنّات الأجراس وأغاني السواقي. رآه صلاة مجنَّحةً ترفرف صباحًا عندما يقود الرعاة قطعانهم إلى المروج، وتذكارات تعيد أهازيج الفتيات في الليالي المقمرة، وأغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر.

هذه النزعة الرومانسية الصوفيّة تتجلّى في الكثير من مادّة هذا الكتاب.

***

البَدائعُ والطَّرائِف

جبران خليل جبران

القشور واللباب

ما شربتُ كأسًا عَلقَمِيَّةً إلاَّ كانت ثُمالَتُها[1] عَسَلاً.

وما صَعِدتُ عقَبَةً حَرِجَةً إلاَّ بَلَغْتُ سَهلاً أخضَرَ.

وما أَضَعْتُ صَدِيقًا في ضَبابِ السَمَاءِ إلاَّ وَجَدْتُهُ في جَلاءِ الفَجرِ.

وكَم مَرّةٍ سَتَرْتُ أَلَمي وحَرقَتي بردَاءِ التَجلُّدِ[2] مُتَوَهِّمًا أن في ذلكَ الأجرَ والصَلاحَ! ولكنّني لما خَلَعتُ الرِداءَ رأيتُ الأمَلَ قد تحَوَّلَ إلى بَهجَةٍ، والحَرقةَ قدِ انقلبَتْ بَرْدًا وسَلامًا.

وكم سِرتُ ورفيقي في عالَمِ الظُهُور! فقُلت في نَفسِي: ما أحمَقَهُ! وما أبْلَدَهُ! غيرَ أنّني لم أبلُغْ عالَمَ السِرِّ حتّى وجَدْتُني الجائِرَ الظالِمَ، وألفيتُه الحَكِيمَ الظريفَ.

وكم سَكرتُ بخَمرةِ الذَاتِ فَحَسِبْتُني وجَليسي حَمَلاً وَذِئبًا، حتّى إذا ما صَحَوْتُ مِن نَشوَتي رَأيتُني بَشَرًا ورأيتُهُ بَشَرًا.

---

(١) الثمالة: بقيَّة الشيء في أسفل الإناء.

(٢) التجلُّد: الصبر، القدرة على احتمال المكاره.

أنا وأنتُم أيّها الناسُ مأخُوذُونَ بمَا بَانَ مـن حَالِنـا، مُتَعَـامُونَ عـمّا خَفِيَ من حَقيقَتِنا. فإن عَثَرَ أحدُنا قُلنا هو السَاقِطُ، وإن تمَاهَلَ قُلنا هو الخائرُ التَلِفُ، وإن تَلَعْثَمَ قُلنـا هُـو الأخـرسُ، وإن تـأوّهَ قُلنـا تلـك حَشرجَةُ النَزعِ فهو مَائِتٌ[1].

أنا وأنتم مَشغُوفُونَ بقُشُورِ «أنـا» وسَـطحِيَّاتِ «أنـتُم»؛ لـذلك لا نُبصرُ ما أَسَرَّهُ الروحُ إلى «أنا» وما أخفَاهُ الروح في «أنتم».

وماذا عَسَى نفعَلُ ونَحنُ بما يُساوِرُنا مِنَ الغُرورِ غافِلُون عمّا فينـا مِنَ الحَقِّ؟

أقولُ لكُم، وربَّما كان قولي قِناعًا يُغشِي وَجهَ حَقيقَتي، أقولُ لكُـم ولنَفسِي: إنّ ما نراهُ بأعيُنِنا ليسَ بأكثرَ مِن غَمامةٍ تَحجُبُ عنّا ما يَجِبُ أن نُشَاهِدَهُ ببَصائِرِنا. وما نَسمَعُه بآذانِنا ليسَ إلاَّ طنطَنَةً تُشَوِّشُ مـا يَجِـبُ أن نَستَوْعِبَهُ بقُلُوبِنا. فإن رَأينا شُرطِيًّا يَقُودُ رَجُلاً إلى السِجنِ عَلينـا ألاَّ نَجزِمَ في أيُّهما المُجرِمُ. وإنْ رَأينا رَجُلاً مُضَرَّجًا[2] بدَمِه وآخَرَ مَخضُوبَ

(١) بانَ يَبِينُ: ظهر؛ عثر: سقط؛ الخائر: الضعيف القوي؛ التَلِفُ: الهالك؛ حشرجة: بقيَّة الروح في المحتَضَر، غرغرة الميِّت، النَزْع: الاحتضار، حلول ساعة الموت.

(٢) مضرَّجًا: مغطى، ملوَّثا.

اليَدَيْنَ فمِنَ الحَصَافة[1] ألاَّ نُحتِّمَ[2] في أيُّهما القاتِـلُ وأيُّهـما القَتيـلُ. وإن سَمِعنا رَجُلاً يُنشِدُ وآخرَ يَندُبُ فَلْنَصبرْ رَيثَما نَتثَبَّتُ أيُّهما الطَرُوبُ.

لا، يا أخي، لا تَستَدِلَّ على حَقيقةِ امرِئٍ بِـمَا بَـانَ مِنـه، ولا تَتَّخِـذْ قَوْلَ امرِئٍ أو عَمَلاً من أعمَالِهِ عُنوانًا لِطويَّتِـهِ[3]. فـرُبَّ مَـنْ تـستَجْهِلُهُ لِثِقَلٍ في لِسَانِهِ ورَكاكَةٍ في لَهجَتِهِ، وكان وجدَانُهُ مَنهَجًـا للفِطَـنِ وقلبُـه مَهبِطًا للـوَحي. ورُبَّ مَـنْ تَحتَقِـرُهُ لدَمامَـةٍ في وَجهِـهِ وخَـسَاسَةٍ[4] في عَيشِهِ، كانَ في الأرضِ هِبَةً مِن هِبَـاتِ الـسَماءِ وفي النَـاسِ نفَحـةً مِـن نَفَحَاتِ الله.

قد تزورُ قَصرًا وكُوخًا في يَومٍ وَاحِـدٍ، فتخـرجُ مِـنَ الأوَّلِ مُتَهَيِّبًـا ومِنَ الثاني مُشفِقًا؛ ولكنْ، لو استَطَعْتَ تَمزِيقَ ما تَحُوكُه حَواسُّكَ مِـنَ الظَوَاهِرِ لَتَقَلَّصَ تَهيُّبُكَ وهَبَطَ إلى مُستوى الأسَفِ، وانبَدَلَتْ شفقَتك وتصاعَدَتْ إلى مَرتَبَةِ الإجلالِ.

---

(١) الحصافة: جودة الرأي ورجحان العقل.

(٢) نحتِّم: نجزم.

(٣) طويته: نيَّته، ما ينطوي عليه كيانه.

(٤) الخساسة: اللؤم؛ الدمامة: البشاعة.

وقد تَلتَقِي بين صَبَاحِكَ ومَسَائِكَ رجُلَيْنِ فيُخَاطِبُكَ الأوّلُ وفي صَوتِه أهازيجُ[1] العَاصِفَةِ وفي حَرَكاتِهِ هَولُ الجَيشِ؛ أمّا الثاني فيُحدِّثُكَ مُتَخَوِّفًا وَجِلاً بصَوتٍ مُرتَعِشٍ وكلماتٍ مُتَقَطِّعَةٍ، فتَعزُو العَزمَ والشَجَاعَةَ إلى الأول، والوَهَنَ[2] والجُبنَ إلى الثاني. غيرَ أنّك لَو رأيتَهُما وقد دَعَتْهُما الأيّامُ إلى لقاءِ المَصَاعِبِ، أو إلى الاستِشهادِ في سَبيل مبدأ، لعَلِمتَ أن الوَقَاحَةَ المُبَهرَجَةَ[3] ليسَت ببَسَالَةٍ[4] والخَجَلَ الصامِتَ ليسَ بِجَبَانَةٍ.

وقد تَنظُرُ من نَافِذَةِ مَنزِلِكَ فتَرَى بينَ عَابِرِي الطريقِ راهِبَةً تسيرُ يَمينًا ومُومِسًا[5] تسيرُ شَمالاً؛ فتقولُ على الفَور: ما أنبلَ هذهِ وما أقبَحَ تلكَ! ولكنَّكَ لو أغمَضتَ عَينَيكَ وأصغَيْتَ هُنيهةً لسَمِعتَ صَوتًا هامِسًا في الأثير قائِلاً: هذهِ تَنشُدُني[6] بالصَلاةِ وتِلكَ تَرجُوني بالألم، وفي رُوح كُلٍّ مِنهُما مَظَلَّةٌ لروحي.

---

(١) أهازيج: جمع هزج وهو صوت الرعد.
(٢) الوَهَن: الضُعف في المبدأ والجسم والعمل.
(٣) المبهرجة: مشتقة من البهرجة أي الأبهة الباطلة.
(٤) بسالة: شجاعة.
(٥) المومس: المرأة البغيُّ الفاجِرة.
(٦) تَنشُدُني: تطلبني.

وقد تَطوفُ في الأرضِ باحِثًا عَمّا تدعُوه حَضارةً وارتِقاءً، فتَدخُلُ مَدينةً شاهِقَةَ القُصُورِ فَخمَةَ المَعَاهِدِ رَحْبَةَ الشَوارعِ، والقومُ فيها يَتَسارَعُون إلى هُنا وهُناكَ؛ فَذَا يَخترِقُ الأرضَ، وذاكَ يُحَلِّقُ في الفَضاءِ، وذلك يَمتَشِقُ[1] البَرقَ، وغيرُه يَستَجوِبُ الهَوَاءَ، وكُلُّهم بملابِسَ حَسَنَةِ الهِندَامَ، بَدِيعَةِ الطِرازِ، كأنّهم في عِيدٍ أو مَهرَجانٍ.

وبعدَ أيّام يبلُغُ بكَ المَسيرُ إلى مَدينةٍ أُخرى حَقيرةِ المَنازِلِ ضَيِّقَةِ الأزِقّةِ إذا أَمطرَتْها السماءُ تحوَّلَتْ إلى جُزُرٍ مِنَ المَدَرِ[2] في بَحرٍ مِنَ الأوحَال. وإن شخَصَتْ بها الشمسُ انقلبَتْ غيمَةً مِنَ الغُبارِ. أمّا سُكانُها فما بَرِحُوا بينَ الفِطرَةِ[3] والبَساطَةِ كوَتَرٍ مُسترْخٍ بينَ طَرَفي القَوْسِ. يَسيرُونَ مُتَباطِئِينَ ويعمَلُون متَماهِلِينَ ويَنظُرونَ إليكَ كأنَّ وراءَ عُيونِهم عُيونًا تُحَدِّقُ إلى شَيءٍ بَعيدٍ عنكَ، فتَرحَلُ عن بَلَدِهم ماقِتًا[4] مُشمَئِزًّا قائِلاً في سِرِّكَ: إنّما الفرقُ بينَ ما شَهدتُه في تلكَ المَدينةِ وما رأيتُه في هذه لَهُوَ كالفَرقِ بين الحَياةِ والاحتِضار. فهناكَ

---

(١) يمتشق: يستلّ. وهذه اللفظة للسيف جعل منها المؤلف صورة رمزية.
(٢) المَدَر: الطين العَلِك الذي لا يخالطه رمل.
(٣) الفِطرة: صفة الإنسان الطبيعية.
(٤) ماقتًا: نافرًا، باغِضًا.

القوّةُ بمَدِّها وهُنا الضُعفُ بجَزرِه[١]. هُناك الجِدُّ ربيعٌ وصَيفٌ وهنا الخُمولُ[٢] خَريفٌ وشِتاء. هناك اللَجاجَةُ شبابٌ يرقُصُ في بُستانٍ وهُنا الوَهَنُ[٣] شيَخوخةٌ مُستَلْقِيَةٌ على الرَمَادِ.

ولكنْ، لو استَعطتَ النظرَ بنُورِ[٤] الله إلى المَدينَتَيْنِ لرَأيتَهُما شَجَرَتَيْنِ مُتَجَانِسَتَيْنِ في حَديقةٍ وَاحِدة. وقد يَمتَدُّ بكَ التَبَصُّرُ[٥] في حَقيقتِهما فتَرى أنَّ ما توهَّمْتَه رُقِيًّا في إحدَاهُما لم يَكُن سِوى فَقَاقيعَ لَمَّاعَةٍ زائِلَةٍ، وما حَسِبتَهُ خُمولاً في الأخرى كان جَوهَرًا خَفِيًّا ثَابِتًا.

لا ليستِ الحياةُ بسُطُوحِها[٦] بل بخَفَاياها، ولا المَرئِيَّاتُ بقُشُورِها بل بِلُبَابِها[٧]، ولا الناسُ بوُجُوهِهم بل بقُلوبِهم.

لا، ولا الدينُ بما تُظهِرُه المَعابدُ وتبينُه الطُقُوسُ والتَقالِيدُ، بل بما

---

(١) المدّ والجزر: حركتان للبحر في ارتفاع مياهه (المد) وهبوطها (الجزر).
(٢) الخمول: الكسل؛ الجِدّ: الاجتهاد.
(٣) الوَهَن: الضعف؛ اللَّجاجة: التمادي في الأمر وملازمته وعدم الانصراف عنه قبل الانتهاء منه.
(٤) نُور الله: حكمةُ الأجيال.
(٥) التبصُّر: التفكُّر: التدبُّر، النظر بعين العقل.
(٦) سطوحها: ظواهرها.
(٧) اللُّباب: الخالص من كل شيء. الجوهر.

يَختَبِئُ في النُفُوسِ ويَتَجَوْهَرُ بالنّـيَّاتِ.

لا، ولا الفنُّ بما تسمَعُه بأُذُنَيْـكَ مـن نَـبَراتِ وخَفَـضَاتِ أُغنِيَـةٍ، أومِن رنّاتِ أَجراسِ الكَـلامِ في قَـصيدةٍ، أو بـمَا تُبـصِرُه بعَيْنَيـكَ مِن خُطُوطِ وأَلوَانِ صُورَةٍ؛ بَلِ الفنُّ بتلـكَ المَسافاتِ الـصَامِتَةِ المُرتَعِـشَةِ التي تَجِيءُ بين النَبَراتِ والخَفَـضَاتِ في الأُغنيـةِ، وبـمَا يَتَـسَرَّبُ إليـكَ بواسطَةِالقَصيدةِ مِمَّا بقيَ سَاكتًا هَادِئًا مُستَوحِشًا في رُوح الشاعر، وبـمَا تُوحِيه إليكَ الصُورةُ فتَرى وأنتَ مُحَدِّقٌ إليها ما هُو أبعدُ وأجمَلُ منها.

لا، يا أخي، ليستِ الأيّامُ والَليالي بظَوَاهِرِها. وأنا، أنـا الـسائرُ في مَوكبِ الأيّـامِ واللَيالي، لستُ بهذا الكـلامِ الـذي أطرَحُـهُ عليـكَ إلاَّ بقَدرِ مَا يَحمِلُهُ إليكَ الكلامُ مِن طَوِيَّتي السَاكِنة.إذن لا تَحسَبْني جاهِلاً قبل أَن تَفحَصَ ذاتي الخَفِيّةَ، ولا تَتَوَهَّمْني[1] عَبقريًّا قبل أن تُجرِّدَني مـن ذاتي المُقتبَسَة. لا تَقُلْ هو بَخيلٌ قابضُ الكَفِّ[2] قبل أن تَـرَى قلبـي، أو هُو الكريمُ الجَـوادُ قبـل أن تَعـرِفَ الـواعِز[3] إلى كَرَمـي وجُـودي. لا

(١) لا تتوهَّمْني: لا تظنَّنِّي، لا تتخيَّلْني.
(٢) قابض الكف: تعبير مجازي يُراد به عدم العطاء وحَبْسُه.
(٣) الواعز: الداعي أو الحافز.

تَدْعُني مُحِبًّا حتى يَتَجَلّى لك حُبِّي بكلّ ما فِيه مِنَ النُورِ والنَار، ولا تَعُدَّني خَلِيًّا[1] حتى تَلمُسَ جِراحِي الدَامِيَةَ.

***

(١) خَليًّا: خاليًا من الهمّ، مطمئنًا.

نفسي مُثْقَلَةً بأثمارها

نَفسِي مُثقَلَةٌ بأثمارِها؛ فهَل مِن جَائعٍ يجني ويَأكُل ويَشبعُ؟

أليسَ بينَ الناسِ مِن صَائِمٍ رؤوفٍ يُفطِرُ على نِتاجي ويُريحُني من أعباءِ[1] خِصْبِي وغَزارتي؟

نَفسِي رازِحَةٌ تحتَ عِبءٍ مِنَ التِبْر واللُجَيْن[2] فهَل بينَ الناسِ مَنْ يَملأُ جَيُوبَهُ ويُخَفِّفُ عَنِّي حِمْلي؟

نَفسِي طافِحَةٌ من خَمرةِ الدُهور؛ فهَل مِن ظَامِئٍ يَسكُبُ ويَشرَبُ ويَرتَوي؟

هُوَذا رجُلٌ واقِفٌ على قارِعَةِ الطريقِ يَبسُطُ نحو العَابرينَ يَدًا مُفعَمَةً[3] بالجَواهِرِ ويُنادِيهم قائِلاً: ألا فارحَمُوني وخُذُوا مني. أَشفِقُوا عَلَيَّ وخُذُوا ما مَعي. أمّا الناسُ فيسَيرونَ ولا يلتَفِتُونَ.

ألا ليتَه كانَ شَحَّاذًا مُتَسَوِّلاً يَمُدُّ يَدًا مُرتعِشَةً نحوَ العَابرينَ

(١) أعباء: أثقال.

(٢) التبر واللُجين: الذهب والفضة.

(٣) مفعمة: مليئة.

ويُرجِعُها فارغةً مُرتعشةً. ليتَه كانَ مُقعَدًا أعمَى يَمُرُّ به الناسُ ولا يَحفِلُونَ[1].

هُوَذَا[2] مُثرٍ جَوَادٌ نَصبَ خِيامَهُ بينَ مَجَاهِلِ البَيدَاءِ وَلِحْفِ الجَبَلِ، يُوقِدُ نار القِرى كلَّ ليلةٍ ويَبعَثُ عبيدَه ليرصُدُوا السُبُلَ لَعلَّهُم يقودُون إليه ضَيفًا يُقرِيهِ ويُكرِمُه، ولكنَّ السُبُلَ بخيلةٌ لا تجُودُ على هِبَاتِهِ بمُرتَزِقٍ، ولا تَبعَثُ إلى هِبَاتِهِ بطالِبٍ[3].

إلا ليتَه كانَ صُعلُوكًا مَنبُوذًا[4]!

ليته كان عَيّارًا[5] مُتَشَرِّدًا يطُوفُ البِلادَ وفي يَدِهِ عَكّازٌ وفي كُوعِهِ دَلْوٌ، فإذا ما جَاءَ المَساءُ جمَعَتْهُ مُلتَوِيَاتُ الأزِقَّة بزُمَلائِهِ العَيّارِينَ المُتَشَرِّدِينَ فيَجلِسُ بقُربهم ويقاسِمُهم خُبزَ الصَدَقة!

هي ذي ابنةُ المَلِكِ الأكبرِ قد استيقظَتْ من رُقادِها وهَبَّتْ من

(١) يحفلون: يهتمون.

(٢) هُوَذَا: كلمة مركَّبة من هو (مبتدأ) وذا (اسم إشارة خبره).

(٣) مثرٍ: غنيّ؛ البيداء: الصحراء؛ لِحف الجبل: أصله؛ القِرى: الضيافة والإطعام؛ ليرصُدُوا السُبُل: ليراقبوها؛ هباته: عطاياه.

(٤) صعلوكًا منبوذًا: فقيرًا متشرِّدًا مُهمَلاً مَنسيًّا.

(٥) عيّارًا: كثير الطوافِ بدون عمل.

مَضجَعِهَا، وقامَتْ فتَرَدَّتْ بأُرجُوَانِها وبرفيرِهـا[١]، وتَزَينَّـتْ بلُؤلُوهـا ويَاقُوتِها، ونَثَـرَتِ المِسْكَ عـلى شَـعرِها، وغَمَـسَتْ بـذَوْبِ العَنـبَرِ[٢] أصابِعَها، ثُمَّ خَرجَـتْ إلى حَـديقَتِها ومـشَتْ وقَطَـرَاتُ النَـدَى تُبَلِّـلُ أطرافَ ثَوبِها.

في سُكونِ اللَيلِ سارَتِ ابنَةُ المَلِكِ الأكـبرِ في جَنَّتِهـا تَبحَـثُ عـن حَبيبِها. ولكنْ، لم يَكُنْ في مَملَكَةِ أبيها مَنْ يُحِبُّها.

ألا ليتَها كانَتِ ابنَـةَ زَرّاعٍ تَرعَـى أغنـامَ أبيهـا في الأوديـةِ وتَعُـودُ مَساءً إلى كُوخِ أبيها وعلى قَدَمَيْها غُبارُ المُنعَكَفات[٣] وبينَ طَيّاتِ ثوبِهـا رائِحةُ الكُرُوم. حتى إذا ما جَنَّ اللَيلُ[٤] ونَام سُكَّانُ الحَـيِّ اختلَـسَتْ خُطُوَاتها إلى حيثُ يَتَرَقَّبُها حَبيبُهَا.

ليتَها كانَت راهبةً في الدَير تَحرقُ قلبَها بَخُورًا فيَنـشُرُ الهـواءُ عِطـرَ قَلبِها. وتُوقِدُ روحَها شَمعًا فيحمِلُ الأثيرُ نُورَ رُوحِها. وتركَعُ مُصَلِّيَةً فتحمِلُ أشباحُ الخَفَاءِ صَلَوَاتِها إلى خَزَائِنِ الزمَنِ حيثُ تُصَانُ صَلَوَاتُ

---

(١) الأرجوان والبرفير: مرادفان. ويعنيان اللون الأحمر يصبغ به الثياب. ويطلق أيضًا على الملابس.

(٢) العنبر: طِيبٌ، وهو الزعفران.

(٣) المنعكفات: يقصد المنعطفات.

(٤) جَنَّ الليل: أظلمَ، أو اختلطت ظلمته.

المُتَعَبِّدِينَ بجَانِبِ حَرقَةِ المُحِبِّينَ وهَوَاجِسِ المُستَوْحِدِينَ!

ليتَها كانَت عَجُوزًا مُسِنَّةً تَجلِسُ مُستَدفِئَةً في أَشِعَّةِ الشَمس بِمَن تقاسَمُوا صِبَاها، فذاكَ خَيرٌ مِن أن تكونَ ابنةَ المَلِكِ الأكبرِ وليسَ في مَملَكَةِ أبيها مَنْ يَأكُلُ قَلبَها خُبزًا ويَشرَبُ دَمَها خَمرًا!

***

نَفسِي مُثقَلَةٌ بأثمارِها فهَل في الأرضِ جَائعٌ يَجني ويأكُلُ ويَشبَعُ؟

نفسِي طافِحَةٌ بخَمرِها؛ فهَل مِن ظَامِئٍ يَسكُبُ ويَشرَبُ ويَرتوي؟

ألا ليتني كنتُ شجرةً لا تُزهِرُ، ولا تُثمِرُ، فَأَلَمُ الخِصبِ أمرُّ مِن أَلَم العُقمِ[1]، وأوجاعُ مَيسُورٍ لا يُؤخَذُ مِنه أشَدُّ هَولاً مِن قُنُوطِ[2] فقيرٍ لا يُرزَقُ.

ليتَني كنتُ بِئرًا جَافَّةً والناسُ ترمي بِيَ الحِجَارَةَ، فذلكَ أهوَنُ من أن أكُونَ يَنبُوعَ مَاءٍ حَيٍّ والظامِئُونَ يَجتَازُونَني ولا يَستَقُونَ[3].

---

(١) الخِصب: بمعنى القدرة على الإنجاب، وضدُّها العُقم. وامرأة عقيم: التي لا تقبل الولد ولا تلد.

(٢) القنوط: اليأس.

(٣) يستقون: يتناولون ماء للشرب.

لَيتَني كنتُ قَصَبَةً مرضُوضَةً تدوسُها الأقدامُ، فذاكَ خيرٌ من أن أكونَ قِيثارةً فِضِّيَّةَ الأوتارِ في مَنزلٍ رَبُّهُ مَبتُورُ الأصابعِ(1) وأهلُه طُرشَان!

***

(1) ربُّ المنزل: صاحبُه؛ مبتور الأصابع: مقطوعها.

حفنة من رمال الشاطئ

* كآبةُ الحُبِّ تترنَّمُ. وكآبةُ المَعرفةِ تتكَلَّمُ. وكآبةُ الرغَائِبِ تَهمِسُ. وكآبَةُ الفَقرِ تَندُبُ. ولكنْ، هناك كآبةٌ أعمَقُ مِنَ الحُبِّ، وأنبَلُ مِن المَعرِفَةِ، وَأقوَى مِنَ الرَغائِبِ، وأَمَرُّ مِنَ الفَقر. غير أنّها خرساءُ لا صَوتَ لها، أمّا عَيناها فمُشَعْشِعَتَانِ كالنُجُومِ.

* عندما تَشكُو مُصابًا لجارِكَ تَهَبُهُ جُزءًا من قلبِكَ، فإن كانَ كبيرَ النفسِ شَكَرَكَ. وإن كانَ صَغيرَهَا احتَقَرَكَ.

* ليسَ التَقَدُّمُ بتَحسينِ ما كان، بَل بالسَيرِ نَحوَ ما سَيكُونُ.

* المَسكَنَةُ نِقابٌ يُخفي مَلامِحَ الكِبريَاءِ. والدَعوى قِناعٌ يُغشِي وَجْهَ البَلاءِ[1].

* عندَما يَجُوعُ المُتَوَحِّشُ يَقطُفُ ثَمَرَةً من شَجَرَةٍ ويَأكُلُها، وعندَما يَجُوعُ المُتَمَدِّنُ يَشتري ثَمَرَةً مِمّنِ اشتَراها مِمَّنِ اشتَراها، مِمّنِ اشتَراها، مِمّن قَطَفَهَا مِنَ الشَجَرةِ.

(١) البلاء: البؤس.

* الفنُّ خُطوةٌ مِنَ المَعروفِ الظاهرِ نَحوَ المَجهولِ الخَفِيِّ.

* بعضُ الناسِ يَستَحِثُّونَني على الأمانةِ إليهِم ليتَمتّعوا بلَذّةِ السَماحِ عَنّي.

* مَا أدرَكتُ طَوِيَّةَ امرِئ إلاَّ حَسِبَني مَدينًا لَهُ.

* تَتَنَفَّسُ الأرضُ فَنُولَدُ، ثُمَّ تَستَرِيحُ أنفَاسُها فنَمُوتُ.

* عينُ الإنسانِ مجْهرٌ[1] تُبَيِّنُ له الدُنيا أكبرَ مِمَّا هيَ حقيقةً.

* أنا بَريءٌ من قَومٍ يَحسَبونَ القِحَةَ[2] شَجاعَةً، واللِينَ جَبَانَةً؛ وأنا بَريءٌ مِمَّن يَتَوَهَّمُ الثرثرةَ مَعرِفَةً، والصمتَ جَهَالَةً، والتَصَنُّعَ فنًّا.

* قد يكونُ في استِصعابنا الأمرَ أسهَلُ السُبُلِ إليه.

* يقُولُون لي: إذا رأيتُ عَبدًا نائِمًا فلا تُنَبِّهْهُ لَعَلَّهُ يَحلُم بحُرِيَّتِهِ. وأقولُ لهُم: إذا رأيتَ عَبدًا نائِمًا نَبِّهْتُهُ وحَدَّثْتُهُ عَن الحُرِيّة.

---

(١) مجهر: المِجْهرَ أو المِجْهار: آلة بصرية تُرى فيها الدقائق لكريات الدم والمكروبات مكبرةً جدًّا. ويبلغ التكبير في المجاهر القوية ألف مرّة إلى ألفين. والمجهر الكهربائي: هو حديث الصنع، تُرى فيه صور الدقائق لا بواسطة النور بل بتيّار كهيربات. وهو يمكّن من رؤية نقطتين تفصل بينهما ستة أجزاء من عشرة ملايين من ملّمتر. أي أنه يكبّر مئة ألف مرّة إلى مئتي ألف.

(٢) القِحَة: لغة من الوقاحة: وهي قلة الحياء والاجتراء على القبائح.

* المُعاكَسَةُ(1) أدنَى مَراتِبِ الذَكاءِ.

* الجَميلُ يأسُرُنا، أمّا الأجمَلُ فيُعتِقُنا(2) حتى ومِن ذاتِهِ.

* الحَماسَةُ بُركَانٌ لا تَنبُتُ على قِمَّتِهِ أعشابُ التَرَدُّدِ.

* يَظَلُّ النهرُ جادًّا(3) نحوَ البَحرِ، انكسَرَ دُولابُ المِطحَنَةِ أم لم يَنكَسِرْ.

* صُنِعَ الأديبُ من الفِكرِ والعَاطِفَةِ ثُمّ وُهِبَ الكَلامَ. أمّا الباحِثُ فَقَد صُنِعَ مِنَ الكلامِ ثُمّ أُعطِيَ قليلاً مِنَ الفِكرِ والعَاطِفَةِ.

* تَأكُلُ مُسرعًا وتَمشي مُتَباطِئًا، فهلاَّ أَكَلْتَ بِرِجلِكَ ومَشيتَ عَلى كَفَّيْكَ!

* ما تعاظَمَ فَرَحُك أو حُزْنُكَ إلاَّ صَغُرَتِ الدُنيا في عَينَيكَ.

* العِلمُ يَستَنبِتُ بُذُورَكَ ولا يُلقِي بكَ بَذرًا.

* ما أبغَضْتُ إلاَّ كانَ البُغضُ سِلاحًا أُدافِعُ به عن نَفسي، ولكِنْ،

---

(1) المعاكَسَة: المخالفة بالرأي والمجاهرة بعكسه.

(2) يُعتِقنا: يحرِّرنا.

(3) جادًّا: مُسرِعًا.

لو لم أكُنْ ضَعِيفًا لَمَا اتَّخَذْتُ هذا النوعَ مِنَ السِلاحِ.

* لو عَلِمَ جَدٌّ جَدٍّ يسوعَ ما كانَ مُختَبِئًا في شَخصِهِ لوَقَفَ خَاشِعًا مُتَهَيِّبًا أمامَ نَفِسه.

* الحُبُّ سَعادةٌ ترتَعِشُ.

* يَحسَبُونَني حَادَّ النَظَرِ ثَاقِبَهُ، لأنّني أرَاهُم مِن خِلالِ شَبَكةِ الغِربَالِ.

* لَمَ أشعُرْ بأَلَمِ الوَحشَةِ حتَّى مَدَحَ الناسُ عُيُوبي الثَرثارَةَ وطَعَنُوا في حَسَناتي الخَرسَاءِ.

بينَ الناسِ قَتَلَةٌ لم يَسفِكُوا دَمًا قَطُّ، ولُصُوصٌ لم يَسرِقُوا شَيئًا البَتَّةَ، وكَذَبَةٌ لم يَقُولُوا إلاَّ الصَحيحَ.

* الحَقِيقَةُ التي تَحتَاجُ إلى بُرهَانٍ هي نِصفُ حَقيقَةٍ.

* ألا فَأَبعِدُوني عن الحِكمَةِ التي لا تَبكي، وعَنِ الفَلسَفَةِ التي لا تَضحَكُ، وعن العَظَمَةِ التي لا تَحنِي رأسهَا أمامَ الأطفَالِ.

* أيّها الكونُ العَاقِلُ، المَحجُوبُ بظَوَاهِرِ الكَائِنَاتِ، المَوجُودُ بالكَائِنَاتِ وفي الكَائِنَاتِ وللكَائِنَاتِ، أنتَ تَسمَعُني لأنّكَ حَاضِرٌ في

ذاتي، وإنّكَ تَراني لأنّك بَصِيرَةُ كُلِّ شَيءٍ حَيّ. أَلقِ في رُوحي بَذرَةَ من بُذُورِ حِكمَتِكَ لتنبُتَ نَصبةً في غابَتِكَ وتُعطي ثَمَرًا من أثمارِكَ.

آمين.

***

سفينة في ضباب

هذا حَديثُ رَجُلٍ جَمَعَنا في مَنزِلِهِ المُنفَرِدِ القَائِمِ عَلَى كَتِفِ وَادِي قَادِيشا(١) في لَيلَةٍ مَغمُورَةٍ بالثُّلُوجِ مُرتعِشَةٍ بالأَهوِيَةِ.

قال مُحَدِّثُنا وهو يَنبُشُ رَمادَ المَوقِدِ بطَرَفِ قَضِيبٍ كانَ بيَدِه:

تُريدُون، يا رفاقي، أن أُعلِنَ لكُم سِرَّ كآبتي.

تُريدُون أن أُحَدِّثَكُم عَنِ المَأسَاةِ التي تُعِيدُ الذِكرى تَمثيلَها في صَدري كلَّ يَومٍ وكُلَّ ليلةٍ.

لقد مَلَلْتُم سُكُوتي وتَكَتُّمي. وضَجَرتُم من تَنَهُّدي وتَمَلمُلي. وقال بَعضُكُم لبَعضٍ: إذا كانَ لا يُدخِلُنا هذا الرجُلُ إلى هَيكَلِ أوجَاعِهِ فكَيفَ نَستطيعُ الدُخُولَ إلى بَيتِ مَوَدَّتِهِ؟

أنتُم مُصِيبُون يا رِفاقي. فمَنْ لا يُسَاهِمُنا(٢) الأَلَمَ لَن يُشرِكَنا في شَيءٍ آخَرَ.

---

(١) وادي قاديشا: وادٍ في شمال لبنان. معناه الوادي المقدّس. دُعي كذلك لكثرة النسَّاك والرهبان الذين أقاموا فيه. كان ملجأ للموارنة أيام الاضطهاد.

(٢) يُساهمنا: يشاطرنا، يقاسمنا.

فاسمَعُوا إذن حِكايَتي: اسمَعُوا ولا تكُونوا مُشفِقين؛ فالشَفَقةُ تَجُوزُ على الضُعفَاءِ وأنا لم أزَلْ قوِيًّا بكآبَتي:

منذُ فَجرِ شَبابي وأنا أرَى في أحلامِ يَقظَتي وَأَحلامِ نَومي طيفَ امرأةٍ غَريبَةِ الشَكلِ والمَزَايا. كنتُ أراهَا في ليالي الوَحدَةِ واقِفَةً قُربَ مَضجَعِي. وكنتُ أسمَعُ صَوتَها في السَكِينَة. وكنتُ في بَعضِ الأحيانِ أُغمِضُ عَينَيَّ وأشعُرُ بمَلامِسِ أصَابِعِها على جَبهَتي فأفتَحُ عَينَيَّ وَأَهُبُّ مَذعُورًا مُصغِيًا بكُلّ ما بي مِنَ المَسَامِعِ إلى هَمْسِ اللاشَيء.

وكُنتُ أقولُ لِذَاتي: هَل تَطَوَّح[1] بي خَيالي حتَّى ضِعتُ في الضَبابِ؟ هل صَنَعْتُ من أبخِرَةِ أحلامِي امرَأَةً جَميلَةَ الوَجهِ، عَذْبَةَ الصَوتِ، لَيِّنَةَ المَلامِس لتأخُذَ مَكانَ امرَأَةٍ مِنَ الهَيُولى؟[2] هل خُولِطْتُ بعَقْلِي[3] فاتَّخَذْتُ من ظِلالِ عَقلي رَفيقةً أُحِبُّها، وأَستَأنِسُ بها وأركُنُ إليها[4]، وأبتَعِدُ عَنِ الناسِ لأَقتَرِبَ منها، وأُغلِقَ عَينَيَّ ومَسَامِعِي عَن كُلِّ ما في الحَيَاةِ مِنَ الصُوَرِ والأصواتِ لأَرَى صُورَتَها وأَسْمَعَ

(١) تطوَّحَ: تَوَّهَ، ضَيَّعَ. واستعمال «طوَّح» أصحّ من «تطوّح» هنا.
(٢) الهيولى: المادة الأولى من كل شيء. تعبير فلسفي.
(٣) خولطتُ بعقلي: اختلطت الأمور عليَّ فلم أعُد أُميِّزُ فيما بينها.
(٤) أركُنُ إليها: أرتاح إليها.

صَوتَها؟ أَمَجنُونٌ أنا يا تُرى؟ أمجنُونٌ لم يَكتفِ بالانـصِرَافِ إلى العُزلَـةِ، بل ابتَدَعَ له مِن أشبَاحِ العُزلَةِ رَفيقةً وقَرينَةً؟

قلتُ: «قَرينَة»[1] وأنـتُم تَـستَغرِبُونَ هـذه اللَفظَـةَ. ولكـنْ، هُنـاكَ بعضُ الاختِباراتِ التي نَستَغرِبُها بل ونُنكِرُهَا، لأنّها تَظهَرُ لنَا بمَظَاهِرِ المُستَحِيلِ. ولكنَّ استِغرابَنا ونُكرانَنَا لا يَمحُوَانِ حَقيقَتَها في نُفُوسِنا.

لقد كانَت تلكَ المَرأةُ الخَياليَّةُ قَرينَةً لي، تُساهِمُني وتُبَادِلُني كُـلَّ مـا في الحَياةِ مِنَ المُيُولِ والمَنَازِعِ والأفراحِ والرَغَائِبِ، فَلَمْ أَستَيقِظْ صَبَاحًا إلاَّ رأيتُها مُتَّكِئَةً على مَسَانِدِ سَريـري وهـي تنظُـرُ إليَّ بعينَـينِ يَملأُهُمـا طُهرُ الطُفُولَةِ وعَطفُ الأُمُومَةِ. ولم أُحاوِلْ عَمَـلاً إلاَّ سـاعَدَتْني عـلى تَحقِيقِهِ. ولم أجلِـسْ إلى مَائِـدَةٍ إلاَّ جلـسَتْ قُبَـالَتِي تُحَـدِّثُني وتُبَـادِلُني الآراءَ والأفكارَ. وما جاءَ مَسَاءٌ إلاَّ اقتربَتْ مِنِّي قائِلَةً: قُمْ بنا نَسِرْ بـينَ التُلُولِ والمُنحَدَرَاتِ، كَفَانا الإقامةُ في هذا المَنزِل. فَأَتركُ إذ ذاكَ عَمَـلي وأسيرُ قَابِضًا على أصَابِعِها، حتَّى إذا ما بَلَغْنَـا البَرِّيَـةَ المُتَّـشِحَةَ بنِقَـابِ

(١) القرينة: هي في الأصل مؤنث القرين أي المُصاحِب. وتـأتي بمعنـى الزوجـة. ولكنهـا في هـذه القصة تحمل معنى ما يتصوَّره بعض النساء من أن القرينة هي جنّية يتوهَّمن أنهـا تظهـر أحيانًـا. ويزعمن أن لكلِّ امرأة قرينة، أي تابعة، وهُنَّ يـردُدْنَ شَرَّهـا عـن الأولاد بـأن يُلبِسْنَهم عُـوذَةً يُسمِّينها ثوب القرينة.

المَساءِ المَغمُورَةِ بِسِحرِ السُكُونِ نَجلِسُ جَنبًا إلى جَنبٍ عَلى صَخرَةٍ عَاليةٍ مُحَدِّقِينَ إلى الشَفق البَعِيد، فكَانت تَارةً تُومئ إلى الغُيوم المُذَهَّبَةِ بأشعَّةِ الغُروبِ، وطَورًا تَستَرعِي[1] سَمْعي إلى تَغريدِ الطَائِرِ يَبعَثُ صوتُه تَسبيحةَ شُكرٍ وطُمَأنينةٍ قُبيلَ أن يَلتَجِئَ إلى الأغصَانِ للمَبيتِ.

وكم مَرَّةٍ دَخلَتْ عَليَّ وأنا أشتَغِلُ في غُرفتي قَلِقًا مُضطَرِبًا فلا تَلمَحُها عَيني حتى يَتَحَوَّلَ قَلَقي إلى الهُدُوءِ وَاضطِرابي إلى الائتلافِ[2] والاستِئناسِ.

وكم لقيتُ الناسَ وفي رُوحي جَيشٌ يَزحَفُ مُتَمَرِّدًا عَلى ما أكرَهُهُ في نُفُوسِهِم، ولكنَّني ما تبيَّنتُ وَجهَهَا بينَ وُجُوهِهِم إلاَّ انقلبَتِ الزَوبعةُ في بَاطِني إلى أنغَامٍ عُلْوِيّة.

وكم جلستُ مُنفَرِدًا وفي قَلبي سَيفٌ مِن أَلَمِ الحَياةِ ومَتَاعِبِهَا وحَولَ عُنُقِي سَلاسِلُ مِن مَشَاكِلِ الوُجُودِ ومُعضِلاتِهِ[3]، ثمّ ألتَفِتُ فأرَاها وَاقِفَةً أمَامِي مُحَدِّقَةً إليّ بعَينَينِ تَفيضَانِ نُورًا وبَهاءً فتنقَشِعُ غُيُومي ويتَهَلَّلُ قَلبي وتَبدُو الحياةُ لبَصِيرَتي جَنّةَ أفراحٍ وَمسَرَّاتٍ.

---

(١) تسترعي: تُلفت.

(٢) الائتلاف: التحالف والاتحاد. ومقصود الكاتب وفقًا لسياق المعنى: الاطمئنان.

(٣) المُعضِلات: مفردها المُعضِلة: المسألة المستغلقة، المستعصية على الحلّ.

وأنتُم تَسألونَ، يا رِفاقي: ما إذا كنتُ مُقتَنِعًا بهذهِ الحَالةِ الشَاذَّةِ الغَريبَةِ؟ تَسألونَ ما إذا كانَ المَرءُ وهو في عُنفُوانِ شَبَابِهِ، يستَطيعُ الاكتِفاءَ بِمَا تَدعُونَه وَهمًا وخَيالاً وحُلمًا بَل وَعِلّةً نفسيّةً؟

أَقولُ لكُم: إنَّ الأعوامَ التي صَرَفْتُها في تلك الحَالَةِ لهِيَ زُبدَةُ[1] ما عَرَفتُه في الحَياةِ مِنَ الجَمالِ والسَعادَةِ واللَذّةِ والطُمَأنينَةِ.

أقولُ لكُم: إنّني كنتُ ورَفيقَتي الأثيريّةَ فِكرةً مُطلَقَةً مُجَرَّدَةً تَطُوفُ في نُورِ الشَمس، وتَطفُو على وَجِه البِحارِ، وتَسعَى في اللَيالي المُقمِرَةِ، وتَتَهَلّلُ بأغانٍ ما سَمِعَتْها أُذُنٌ، وتَقِفُ أمامَ مَشاهِدَ ما رَأَتْها عَينٌ. إنَّ الحياةَ، كل الحياة، هي فِيما نختبره بأرواحنا، والوجود كُلَّ الوُجودِ، هُو في ما نَعرِفُهُ ونَتَحَقَّقُهُ فَنَبتَهِجُ به أو نَتَوَجَّعُ لأجلِهِ. وأنا قد اختبرتُ أمرًا برُوحي، اختبرتُه كُلَّ يَومٍ وكُلَّ ليلةٍ حتى بلَغْتُ الثلاثِينَ من عُمري.

ليتَني لم أبلُغِ الثَلاثِينَ. ليتَني مُتُّ ألفَ مرّةٍ ومَرّةً قبل أن أبلُغَ تلكَ السَنَةَ التي سَلَبَتْني لُبابَ حَياتي واستَنزَفَتْ دِماءَ قَلبي وأوقفَتْني أمامَ الأيّامِ واللَيالي شجرةً يابِسَةً عَارِيَةً مُستَوحِدَةً، فلا ترقُصُ أغصَانُها

(١) زُبدةُ ما عرفتُه: أفضلُ ما عرفتُه.

لأغاني الهَواءِ ولا تَحُوكُ الأطيارُ أعشَاشَها بين أورَاقِها وأزهارِها.

وسكَتَ مُحَدِّثُنا دَقيقةً وقَد ألوَى رأسَه[1] وَأغمَضَ عَينَيهِ وأرخَى زَنْدَيْهِ إلى جَنبِ مقعَدِهِ فبَانَ كأنّه اليَأسُ مُجَسَّمًا. أمّا نحنُ فبَقِينا صَامِتِينَ مُتَرَقِّبينَ استِماعَ تَتِمَّةِ حَدِيثِهِ. ثمَّ فَتَحَ أجفانَهُ وبصَوتٍ مُتَقَطِّعٍ خارجٍ من أعماقِ كِيانٍ مَكلُومٍ[2] قال:

تذكُرونَ، يا رفاقي، أنّه منذُ عِشرينَ سَنَةً بَعَثَني حَاكِمُ هذا الجَبَلِ بِمُهِمَّةٍ عِلمِيّةٍ إلى مَدِينَةِ البُندقيّة[3]، وأصحَبَني برسالةٍ إلى مُحافِظِ تلكَ المَدينةِ الذي كانَ قد عَرَفَهُ في القِسطنطينيّة[4].

تركتُ لُبنانَ وأَبحرتُ على سَفينةٍ إيطاليّةٍ وقَد كانَ ذلكَ في شَهرِ نَيسانَ (أبريل) ورُوحُ الرَبيعِ تَرتَعِشُ بينَ ثَنايا الهَواءِ، وتَنْثَني مَعَ أمواجِ البَحرِ، وتَتَمَثّلُ بصُوَرٍ جَميلةٍ مُتَقَلِّبَةٍ في الغُيُومِ البَيضَاءِ المُتَلبِّدَةِ

---

(١) ألوى رأسه: الصواب: ألوى برأسه، أى أماله.

(٢) مكلوم: مجروح.

(٣) البندقيَّة: مدينة إيطالية. كان لها فيما مضى العلاقات التجارية الوثيقة مع الشرق الأدنى. شهيرة بجمالها وبناياتها الفخمة وقصورها.

(٤) القسطنطينية: هي استنبول أو بيزنطية القديمة. أسسها قسطنطين وسمّاها باسمه سنة ٣٣٠م. فتحها العثمانيون سنة ١٤٥٣م، وفيها استقر سلاطين بني عثمان حتى سنة ١٩٢٣م حين نقل الأتراك العاصمة إلى أنقره.

فوقَ الآفاقِ. كيفَ أَصِفُ لكُم تلكَ الأيّامَ وتلكَ اللّيالِيَ التي صَرَفْتُها على ظَهر السَفينةِ؟ إن قوّةَ الكَلامِ المُتعَارَفِ بَينَ البَشرِ لا تَتَجاوَزُ ما تَحوِيهِ مَدَارِكُ البَشَرِ، وما يَشعُرونَ بهِ. وفي الرُوح ما هو أبعدُ مِنَ الإدراكِ وَأدَقُّ من الشُعُور فكَيفَ أرسُمُها لكُم بالكَلامِ؟

لقد كانَتْ تلكَ السنُونَ التي صرفتُها مَعَ رَفيقَتي الأَثيرِيَّةِ مُمْنَطَقَةً[1] بالأُنسِ والأُلفَةِ، مَغمُورَةً بالسَكينةِ والرِضا، فلم يَدُرْ في خَلَدِي[2] أنَّ الألمَ رابضٌ لي وَرَاءَ حُجُبِ سَعَادَتي، وأنَّ المَرارَة ثُمَالَةٌ رَاكِدَةٌ في أعماقِ كَأسِي. لا، لَم أخشَ قَطُّ ذُبُولَ زَهرةٍ نَبَتَتْ فوقَ الغُيومِ، وَاضمِحلالَ أنشُودةٍ ترنَّمَتْ بها عَرائِسُ الفَجر.

ولَمَّا تركتُ هذه التُلُولَ والأودِيَةَ كانت رَفيقَتي جَالِسَةً بقُربي في المَركَبَةِ التي حَمَلَتْني إلى السَاحل. وفي ثَلاثَةِ الأيّام[3] التي قضَيْتُها في بَيروتَ قُبيلَ سَفَرِي، كانت قَرينَتي تذهبُ حَيثُما أذهبُ وتَقِفُ عندَما أَقِفُ، فلَم أَجتَمِعْ بصَدِيقٍ إلاّ رأيتُها تَبتَسِمُ له، ولَم أَجلِسْ مسَاءً في شُرفَةِ النُزُلِ[4] مُصغِيًا إلى أَصوَاتِ المَدينَةِ إلاّ شَارَكَتْني التَأَمُّلَ

---

(١) ممنطقة: مفعمَة، ممتلئة.

(٢) خَلَدِي: بالي.

(٣) من الأصواب القول: الأيام الثلاثة.

(٤) النُزُل: الفندق حيث ينزل المسافرون.

وسَاهَمَتْني الفِكْرَ.

ولكِنْ، لَمَّا فَصَلَني الزَورقُ عن مِيناءِ بيَروتَ، في الدقيقةِ التي وَطِئْتُ فيها ظَهرَ السفينةِ، شعرتُ بتَغيُّرٍ في فَضَاءِ رُوحي، شعرتُ بيدٍ خَفيّةٍ قَويّةٍ تتمَسَّكُ بسَاعِدِي وسَمِعتُ صَوتًا عَمِيقًا يَهمِسُ في أُذُني قائِلاً: ارجِعْ، ارجِعْ مِن حيثُ أتيتَ. انزِلْ إلى الزورقِ وعُدْ إلى شَوَاطِئِ بلادِكَ قبلَ أن تُبحِرَ السفينةُ.

وأَبحرَتِ السفينةُ وأنا على ظَهرِها أشبَهَ شَيءٍ بعُصفورٍ بينَ مَخالِبِ بَاشِقٍ يَسبَحُ مُحَلِّقًا في الخَلاءِ(١). ولما جَاءَ المَساءُ وقدِ انحَجَبَتْ قِمَمُ لبنانَ وراءَ ضَبابِ البَحرِ، رَأيتُني وَاقِفًا وَحدِي على مُقدِّمَةِ السَفينةِ وفتاةُ أَحلامِي -المرأةُ التي أحبَّها قَلبي، المَرأةُ التي رافقَتْ شَبابي- لم تَكُن مَعي. الصَبيَّةُ العَذْبَةُ التي كنتُ أرى وَجهَها كُلَّما حَدَّقْتُ إلى الفَضَاءِ، وأَسمَعُ صوتَها كُلّما أَصغَيْتُ إلى السَكينةِ، وأَلمُسُ يدَها كُلّما مَدَدْتُ يَدي إلى الأمَامِ، لم تَكُن عَلى ظَهرِ تلكَ السَفينةِ. لأوَّلِ مَرّةٍ، وَجَدْتُني وَاقِفًا وَحدي أمامَ الليلِ والبَحرِ والفَضاءِ.

وبقيتُ على هذه الحَالِة أنتَقِلُ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ مُنادِيًا رفيقَتي في

---

(١) الخلاء: الفضاء.

قَلبي، نَاظِرًا إلى الأموَاج المُتَقَلِّبَةِ لَعلِّي أرَى وَجهَها في بَياضِ الزَبَدِ[1].

وعندَما انتصفَ الليلُ وقدِ التَجأَ رُكّابُ السَفينةِ إلى مَراقِدِهم وبقيتُ أنا وَحدي هَائِمًا ضَائِعًا مُضْطَرِبًا، التفتُّ بَغتَةً فرأيتُها وَاقِفَةً في الضَبابِ على بُعدِ بِضعِ خُطُوَاتٍ فَانتَفَضْتُ مُرتَعِشًا ومَدَدْتُ يَدي إليها هَاتِفًا: لِمَ تَركتِني؟ لِمَ تَركتِني في وَحدَتي؟ إلى أينَ ذهبتِ؟ أينَ كنتِ يا رَفيقَتي؟ اقتَرِبي مِنِّي ولا تَترُكيني بعدَ الآن.

فلم تَدنُ مِني، بَل ظَلَّتْ جَامِدَةً في مَكانِها ثُمّ بَدَتْ عَلى وَجهِها سِيمَاءُ[2] تَوَجُّعٍ وَلَهفَةٍ ما رأيتُ أهولَ منهُما في حَياتي، وبصَوتٍ خَافِتٍ ضَئيلٍ قالت: جئتُ من أعماقِ اللُجَّةِ لأراكَ لمحَةً واحِدةً. وها أنا رَاجِعَةٌ إلى أعماقِ اللُجَّةِ. ادخُل مخدَعَكَ وَارقُدْ وَاحلُمْ.

قالت هذه الكَلماتِ وامتزَجَتْ بالضَبَابِ واضمَحَلَّت. فَطَفِقْتُ أُنادِيهَا بلَجَاجَةِ الطِفلِ الجَائعِ وأبسُطُ ذِراعَيَّ إلى كُلّ ناحيةٍ فلا أَقبِضُ إلاَّ على الهَواءِ المُثقَلِ بنَدَى اللَيلِ.

دخلتُ مَخدَعِي وَفي رُوحي عَناصِرُ تَتَقَلَّبُ وتَتَصَارعُ وتَهبِطُ

---

(١) بياض الزبد: الرغوة التي تعلو سطح البحر بفعل تلاطُم الموج.

(٢) سيماء: علامة، مظهر.

وتتصاعَدُ، فكُنتُ في جَوفِ تلكَ السَفينةِ سَفينةً أُخرى في بَحرٍ من اليَأسِ والالتِباس. وللغرابةِ أنّني لَم أُلقِ رَأسي على وَسائِدِ مَضجَعي حتى أحسَسْتُ بثِقَلٍ في أجفَاني وبتَخَدُّرٍ في جَسَدِي فنمتُ نَومًا عَميقًا حتى الصَباحِ. ولقد رأيتُ في نَومي حُلمًا: رأيتُ رَفيقَتي مَصلُوبَةً على شَجَرَةِ تُفّاحٍ مُزهِرَةٍ وقَطَرَاتُ الدِمَاءِ تَسِيلُ مِن كَفَّيْها وقَدَمَيْها على غُصنَي الشجرة وعُمُدِها ثمّ تنسَكِبُ على الأعشابِ وتَمتَزِجُ بأَزهارِ الشَجرةِ المَنثُورَةِ.

وظلَّتِ السفينةُ تَسعَى الأيّامَ واللَيالِيَ بينَ اللُجَّتَيْنِ وأنا على ظَهرِها لا أَدري ما إذا كنتُ بَشَرًا مُسافِرًا إلى بَلَدٍ بَعيدٍ بمُهِمَّةٍ بشَريّةٍ أم شَبَحًا تائِهًا في فَضاءٍ خَالٍ إلاَّ مِنَ الضَبابِ، فلَم أشعُرْ بقُربِ رَفيقَتي ولم أَلمَحْ وَجهَها في اليَقظةِ أو في المَنامِ، وبَاطِلاً كنتُ أنادي مُصَلّيًا مُبتَهِلاً للقُوى الخَفيّةِ لتُسمِعَني من مَقَاطِعِ صَوتِها أو لِتُرِيَني ظِلاًّ من ظِلالِها أو تجعَلَني أشعُرُ بمَلامِسِ أصَابِعِها على جَبهتي.

ومَرَّ أربعةَ عَشَرَ يَومًا وأنا في هذهِ الحَالةِ. وعندَ ظَهيرةِ اليومِ الخَامِسَ عَشَرَ ظهَرتْ عَن بُعدٍ شوَاطئُ إيطاليا، وفي مساءِ ذلكَ النَهارِ دخلتِ السَفينةُ ميناءَ البندقيّةِ وجاءَ قومٌ بزَوارِقَ مَطلِيّةٍ بألوانٍ ورُسُومٍ

بَهجَةٍ لينقُلُوا الرُكّابَ وأمتِعَتَهُم إلى المَدينَةِ.

أنتم تَعلَمُون، يا رفاقي، أنَّ البُندقيةَ قائِمةٌ على عَشَراتٍ من الجُزُرِ الصَغيرَةِ المُتقَارِبَةِ، فشَوارِعُها تُرَعٌ[1] ومَنازلُها وقُصُورُها مَبنِيَّـةٌ في المَـاءِ، والزوارقُ هُناكَ تَقُومُ مَقامَ المَركَباتِ.

فلمّا نزلتُ من السَفينةِ إلى الزَورَقِ سَألَني النُوتيُّ[2] قائِلاً:

- إلى أين يريدُ سَيّدي أن يذهبَ؟

فلمَّا ذكرتُ اسمَ مُحافِظِ المَدينـةِ نظـرَ إليّ بـاهتِمامٍ واحـترامٍ وأخَـذَ يَضرِبُ المَاءَ بِمقذَافِهِ[3].

سارَ بي الزورقُ وكانَ قد جَـاءَ اللَيـلُ وألقَـى رداءَه عَـلى المَدينَـةِ، فظَهـرَتِ الأنـوارُ في نَوافِـذِ القُـصُورِ والمَعابِـدِ والمَعَاهِـدِ فانعَكَـسَتْ أشعَّتُها في المَاءِ مُتلألِئَةً مُرتَعِشَةً، فبانَـتِ البُندقيَّـةُ كحُلـمِ شَـاعرٍ يَفتِنُـهُ الغَريبُ مِنَ المَشَاهِدِ والوَهمِيُّ مـن الأمَـاكِنِ. ولم يَبلُـغْ بي الـزورقُ إلى

(١) تُرَع: مفردها تُرعَة وهي مَضيق يحفره الإنسان بين بحرين أو نهرين.

(٢) النوتيّ: الملاّح، البحّار.

(٣) المِقذاف والمِجذاف: لفظتان للدلالة نفسها: ما يُدفع به الماءُ لمساعدة المركبِ على السير والتقدُّم في الماء. ويقال أيضًا: المجذاف.

مُنعَطَفِ أوّلِ تُرعَةٍ حتى سَمِعتُ رنينَ أجراسٍ لا عِدادَ لها تملأُ الفَضاءَ بأَنّاتٍ مُحزنةٍ مُتقطّعةٍ مُخيفَةٍ. ومَع أنَّني كنتُ في غَيبُوبَةٍ نَفسِيّةٍ تَفصِلُني عنَ كُلِّ المَظاهِرِ الخَارِجيَّةِ، فَقَد كانَت تلكَ الطَنّاتُ النُحاسِيَّةُ تَخترِقُ لَوحَ صَدري كالمَسامِيرِ.

ووَقَفَ الزورقُ بجَانِبِ سُلَّمٍ حَجَرِيٍّ تَتَصاعَدُ دَرَجاتُهُ من المَاءِ إلى الرَصِيفِ، فالتفَتَ البَحريُّ إليَّ وأشارَ بيدِه نحوَ قَصرٍ قائِمٍ في وَسَطِ حَديقَةٍ وقال: هذا هُو المَكانُ. فصَعَدتُ مِن الزَورقِ وسِرتُ مُبطِئًا نحوَ المَنزل والبَحريُّ يتبَعُني حَامِلاً حَقيبَتي على كَتِفِه، حتى إذا ما بَلغتُ بابَ المَنزِلِ ناوَلتُه أُجرَتَهُ وصَرَفْتُه، ثمّ طرقتُ البَابَ ففُتِحَ لي، وإذا أنا أمامَ رَهْطٍ[1] من الخَدَم مُطأطِئي الرُؤوسِ وهُم يَبكُونَ وينُوحُونَ ويَتأوّهُون بأصواتٍ مُنخَفِضَةٍ، فاستَغْربتُ هذا المَشهدَ واحتَرتُ بأمري.

وبعدَ هَنيهةٍ تَقدَّمَ مِني خادمٌ كهلٌ ونَظَرَ إليَّ من وَراءِ أجفَانٍ مَقرُوحَةٍ[2] وسَألَني مُتَنَهِّدًا: ماذا يريدُ سَيّدي؟ فقلتُ: أليسَ هذا منزلَ

---

(١) رَهْط: جَمْع.

(٢) مقروحة: مجروحة.

مُحافِظِ المَدينَةِ؟ فحنَى رأسَه إيجابًا.

فأخرجتُ، إذ ذاك، الرسالةَ التي أَصحَبَني بها حاكِمُ لبنانَ وناوَلْتُه إيّاها، فنَظَر في عُنوانِها صَامِتًا ثمّ راحَ مُتَمَاهِلاً نحوَ بابٍ في مُؤَخَّرِ ذلك الدَهلِيز.

جَرَى كُلُّ ذلك وأنا بدُونِ فِكرٍ ولا إرادةٍ. ثمّ دنَوْتُ من خَادِمةٍ صَبِيَّةٍ وسألتُها عن سَبَبِ حُزنِهم ونُواحِهم فأجابَت مُتَوَجِّعَةً: عَجَبًا، ألم تسمَعْ أن ابنةَ المُحافِظ قد ماتَتِ اليومَ؟

ولم تَزِدْ على هذهِ الكلماتِ، بل غَمَرَتْ وَجهَها بِكفِّها واستَسلمَتْ إلى البُكاءِ.

تأمَّلُوا، يا رفاقي، حالةَ رَجُلٍ قَطَعَ البِحَارَ وهو كفِكرَةٍ سَدِيمِيَّةٍ[1] مُلتَبِسَةٍ أضَاعَها جبّارٌ من جَبَابِرَةِ الفَضَاءِ بينَ الأمواجِ المُزبِدَةِ والضَبَابِ الرَمَادِيِّ. صَوِّروا لنُفُوسِكم حالةَ فَتًى سارَ أسبُوعَيْن بين عوَيلِ اليأسِ وصُراخِ اللُجَّة، ولمّا بَلَغ نِهايةَ الطَريقِ وَجَدَ نفسَه واقِفًا في بابِ مَنزِلٍ تَتَمَشَّى في جَنبَاتِهِ أشباحُ التَفَجُّعِ وتَملأُ قرانيه[2] أنّاتُ

(١) فكرة سديمية: فكرة ضبابيّة.

(٢) قرانيه: جمع قرنة وهي لفظة عامية فصيحها زاوية.

اللّوعَةِ. صَوِّروا لنُفُوسِكم، يا رفاقي، رَجُلاً غَريبًا يطلبُ الضِيافَةَ في قَصرٍ تُخَيِّمُ عليه أجنِحَةُ المَوتِ.

وعادَ الخَادم الذي حَمَلَ الرِسَالَةَ إلى سَيِّدِه وانحنَى قائلاً: تفضَّلْ يا سيِّدي فالمُحافِظُ يَنتظِرُكَ.

قالَ هذا ومشَى أمَامي فاتَّبَعْتُه حتَّى إذا ما بَلَغْنا بابًا في نِهايَةِ المَمْشَى أومَأَ إليَّ أنِ أدخُلْ، فدخلتُ قاعَةً واسِعَةً عَالِيَةَ السَقفِ مُنارَةً بالشُموعِ وقَد جَلَسَ فيها بعضُ الوُجَهاءِ والكُهَّانِ وكُلُّهم في سُكوتٍ عَميق. فلم أكَدْ أخطُو بضعَ خُطُوَاتٍ حتَّى قامَ مِن صَدرِ القَاعَةِ شَيخٌ ذو لِحيةٍ بيضَاءَ وقد حَنَتْ ظَهْرَهُ الأشجانُ وثَلَّمَتْ(١) وَجهَهُ الأوجاعُ وتَقَدَّمَ نَحوي وأخَذَ بيَدِي قائِلاً: يَعزُّ عَليّ أن تَأتِيَ من بلادٍ بَعيدةٍ وتَجِدَنا مُصَابِينَ بأَحَبِّ مَنْ لدَيْنا. ولكنِّي أرجُو أن لا يكونَ مُصابُنا حَائِلاً(٢) دونَ إتمامِ الغَرَضِ الذي جِئتَنا مِن أجلِهِ، فكُن مُطمَئِنَّ البالِ يا وَلدي.

فشكرتُ له عَطفَه مُظهِرًا أسَفي لمُصابِهِ ببَعضِ الألفاظِ المُشَوَّشَةِ.

---

(١) ثلَّمَتْ: جَعّدَتْ، جعلتِ الأوجاع في وجهه أخاديد...؛ الأشجان: الأحزان.
(٢) حائلاً: مانِعًا.

وقادَني الشيخُ إلى كُرسيٍّ بِجَانِبِ مَقعَدِهِ فجلستُ صَامِتًا مع الجُلاَّس الصَامِتِينَ أنظُرُ خِلسَةً إلى وُجوهِهِم الكَئيبَةِ، وأَسمَعُ تأَوَّهَهُم فتَتَوَلَّدُ في صَدري كُتلاتٌ من الضَيمِ واللَهفَةِ. وبعدَ سَاعةٍ انصرَفَ القَومُ الواحِدُ تِلْوَ الآخَرِ ولم يَبقَ سِواي مَع الوَالِدِ الحَزِينِ في تلكَ القَاعَةِ الخَرساءِ، فوقفتُ إذ ذاكَ وتَقدّمتُ إليه قائلاً: اسمَحْ بي يا سَيّدي بالانصِرَافِ. فقال مُمَانِعًا: لا، يا صديقي، لا تذهَبْ. كُن ضَيفَنا إن كان بإمكَانِكَ احتمالُ النَظرِ إلى كَآبَتِنا واستِماعِ أَنّةِ لَوْعَتِنا. فأَخجَلَني كلامُه وحَنيتُ رأسِي امتِثالاً[1]. ثُمّ عَادَ وقال: أنتُم – اللبنانيّين– أَبرُّ النّاسِ بالضَيفِ؛ فَهَلاَّ بقيتَ عِندَنا لنُرِيَكَ ولو قليلاً ممّا يلقَاهُ الغَريبُ في بلادِكُم؟

وبعدَ هُنيهةٍ قَرَعَ الشيخُ المنكُوبُ جَرَسًا فِضِّيًا فدَخَلَ علينا حاجِبٌ بمَلابِسَ مُزركَشَةٍ مُقَصَّبَةٍ، فقال له الشيخُ مُشيرًا إليّ: سِر بضَيفِنا إلى الغُرفَةِ الشَرقيّةِ، وانظُرْ بشأنِ مَأكَلِهِ ومَشرَبِهِ، وتَوَلَّ بنَفسِكَ شُؤونَهُ، وكُن سَاهِرًا على رَاحَتِهِ.

فقادَني الحاجِبُ إلى غُرفةٍ رَحْبَةٍ[2] بَديعَةِ الهَندَسَةِ فَخمَةِ

---

(١) امتثالاً: خُضوعًا وقبولاً.

(٢) رَحبة: واسعة.

الرِياشِ[1] تُغشي جُدرانَها الرُسُومُ والمنسُوجَاتُ الحَريريّـةُ، في وَسَـطِها سَريرٌ نَفيسٌ مُغَطَّى باللُحُفِ والمَسَانِدِ المُطَرَّزَةِ.

تَرَكَني الحاجِبُ فارتمَيْتُ على مَقعَدٍ أُفكِّرُ بنَفسي ومُحيطي وبغُربَتي ووَحدَتي ومَآتي أوّلِ سَاعةِ صرَفْتُها في بِلادٍ قَصِيَّةٍ[2] عَن بلادي.

وعادَ الحَاجِبُ يَحمِلُ طَبقًا عَليه الطَعَامُ والشَرابُ ووَضَعَهُ أمـامِي فأكلتُ قَليلاً، ولكِنْ بدُونِ رَغبةٍ ثمّ صَرَفْتُ الحَاجِبَ.

ومرَّتْ سَاعتانِ وأنا أتمَشَّى تارةً في تلكَ الغُرفَـةِ وطَـورًا أقِـفُ في جَوانِبِ إحدَى نَوَافِذِها مُحَدِّقًا إلى الفَضاءِ مُصغيًا إلى أَصواتِ البَحَّـارةِ وخَفْقِ مقَاذِيفِهم[3] في الماءِ حتى إذا ما نَهَكَنِـي[4] الـسَهَرُ وتضَعـضَعَتْ فِكرتي بينَ مظاهِرِ الحَياةِ وخَفَاياها، ارتمَيْتُ عـلى الـسَريرِ مُستَـسلِمًا إلى غَيبُوبَةٍ تَتَآلفُ فيها سَكرةُ الهُجُـوعِ[5] وصَـحْوُ اليَقْظَـةِ، ويتقلّـبُ فيهـا التذكارُ والنِسيانُ مثلَما يَتَنَاوَبُ الشواطئَ مَدُّ البَحـرِ وجَـزْرُه، فكنـتُ

(١) الرياش: الأثاث.

(٢) قصيَّة: بعيدة.

(٣) مقاذيفهم: مفردها مقذاف. والمقذاف والمجداف والمجذاف بمعنى واحد (راجع ص ٥٩).

(٤) نهكني: أتعبني، أضناني.

(٥) المجوع: النوم.

كَسَاحةِ حَربٍ صَامِتَةٍ تَتَنَاضَلُ فيها فيـالقُ[1] صـامتةٌ ويُجَنـدِلُ[2] المَـوتُ فرسانَهَا فيقضُون صَامِتينَ.

لا، لا أَدري، يا رِفَاقي، كَم سَاعةً صَرَفْتُ أنا في هـذهِ الحَالـةِ؟ إنَّ في الحَياةِ فُسحَاتٍ تَجتَازُهـا أرواحُنـا، ولكنّنـا لا نَـستَطيعُ أن نَقيـسَها بالمَقاييسِ الزَمنيّةِ التي ابتَدَعَتْها فِكرةُ الإنسَانِ.

لا، لا أَعرِفُ كَم ساعةً بَقيتُ في هذه الحَالةِ؟ كُلُّ ما عَرَفتُـه إذ ذاكَ - وكُلُّ ما أَعرِفُه الآنَ- هو أنّني بينَما كنتُ في تلكَ الحَالَـةِ المُلتَبِسَةِ شَـعَرتُ بكِيانٍ حَيٍّ وَاقِفٍ بقُربِ سَريري، شَعرتُ بقُوَّةٍ تَرتَعِشُ في فَضَاءِ الغُرفَـةِ، شعرتُ بذاتٍ أثيريَّةٍ تُنَـاديني ولكِـنْ بـدُونِ صَـوتٍ، وتَـستَفِزُّني ولكـنْ بدونِ إشارَة، فنهضتُ عـلى قَـدَمَيَّ وخَرجـتُ مِـنَ الغُرفـةِ إلى الـدَهليزِ مَدفُوعًا مَأمُورًا مَجذُوبًا بعَامِلٍ قَاهِرٍ ضَابِطٍ كُلِّي. سِرتُ في عَـالَمٍ مُجَـرَّدٍ عَـمّا نَحسَبُه زَمَنًا ومَسَافَةً، حتى إذا ما بلغتُ نِهايةَ الدَهليزِ دخلتُ قاعةً كُـبرى في وَسَطِها نَعشٌ تُنيرُه كَوكَبَتَـانِ[3] مـن الـشُمُوعِ وتُحيطُ بـهِ الأزهـارُ. فتقدَّمتُ ورَكَعتُ بجَانِبِهِ ونَظَرتُ، نَظرتُ فَرأيتُ وَجـهَ رَفيقَتـي، رأيـتُ

(١) فيالق: مفردها فيلق: فرقة عسكرية.

(٢) يجندل: يصرع، جندله: أوقعه أرضًا وصَرَعَه.

(٣) كوكبتان: جماعتان.

وَجهَ رَفيقَةِ أحلامي وَراءَ نِقَابِ المَوتِ. رأيتُ المَرأةَ التي أحبَبْتُها حُبًّا فَوقَ الحُبِّ. رأيتُها جُثّةً هَامِدَةً بَيضاءَ بأثوابٍ بَيضاءَ بين أزهارٍ بَيضاءَ تُخَيِّمُ عَليها سَكينَةُ الدُهُور ورَهبَةُ الأزل.

يا إلهي! يا إلهَ الحُبِّ والحَياةِ والمَوتِ، أنتَ الذي كوّنتَ أرواحَنا ثمّ سَيرتَها في هذه الأنوارِ وهذهِ الظُلُماتِ. أنتَ الذي فَطَرْتَ قُلوبَنا ثمّ جَعَلْتَها تَنبِضُ بالأمَلِ والألَمِ. أنتَ، أنتَ الذي أريتَني رَفيقَتي جَسَدًا بَارِدًا. أنتَ الذي قُدتَني مِن أرضٍ إلى أرضٍ لتُظهِرَ ليَ مُرَادَ المَوتِ بالحَياةِ، ومَشئَيةَ الوَجَعِ بِالفَرَحِ. أنتَ الذي أنبَتَّ في صَحراءِ وَحدَتي وَانفِرادي زَنبقةً بَيضاءَ ثمّ سَيَّرتَني إلى وَادٍ بَعيدٍ لتُبينَها لي زَنبقةً ذابِلَةً ذَاوِيةً فَانِيَةً!

نَعَمْ، يا رِفاقي، يا رفاقَ وَحشتيّ واغتِرابي، إن الله قد شَاءَ فسَقَاني الكأسَ العَلقَمِيَةَ[1]. لتكن مَشِيئةُ الله. نحنُ البشَرَ، نحنُ الذرَّاتِ المُرتَعِشةَ في خَلاءٍ لا حَدَّ له ولا مَدًى، نحنُ لا نَستطيعُ سِوى الخُضُوعِ والامتِثال. فإن أحبَبْنا فحُبُّنا ليسَ مِنّا وليسَ لنا. وإن سُرِرْنا فسُرورُنا ليسَ فِينا بَل في الحَياةِ نفسِها. وإن تألَّمنا فالألمُ ليسَ

(١) العلقميَّة: من العلقم: الحنظل وكل شيء شديد المرارة.

بكُلُومِنا[1] بل بأحشاءِ الطَبيعةِ بأسرِها.

لم أَقُصَّ عليكُم حِكَايَتي شَاكِيًا. إنَّ من يَشكُو يَشُكُّ في الحَياةِ. وأنا مِن المُؤمنين؛ أُؤمِنُ بصَلاحِيَّةِ هذهِ المَرارةِ التي تُمازِجُ كُلَّ رَشفَةٍ أرتَشِفُها مِن كُؤوسِ الليَالي، أُؤمِنُ بجَمَالِ هذهِ المَسامِيرِ التي تَختَرِقُ صَدري، أُؤمِنُ بِرأفَةِ هذه الأصابعِ الحَديديّةِ التي تُمَزِّقُ غِشاءَ قَلبي.

هذه حِكايتي؛ فكَيفَ أَصِلُ إلى نِهايَتِها وهي بدُونِ نِهايةٍ؟ لقد بقيتُ رَاكِعًا أمامَ نعشِ الصَبيَّةِ التي أحبَبْتُها في أحلامِي مُحدِّقًا إلى وَجْهِها حتَّى وَضَعَ الفجرُ يَدَه على بَلّورِ النوَافِذِ، فقُمتُ إذ ذاكَ وعُدتُ إلى غُرفتي مُتوَكِّئًا على أوجاعِ الإنسانيّةِ مُنحَنِيًا تحتَ أعباءِ الأبديّة.

وبعدَ ثلاثةِ أسَابيعَ تركتُ البُندقيّةَ ورجَعتُ إلى لبنانَ رُجُوعَ مَنْ صَرَفَ ألفَ جيلٍ في أعمَاقِ الدَهرِ. رجعتُ رُجوعَ كلّ لبنانيٍّ مِن غُربةٍ إلى غُربةٍ.

سَامِحُوني، يا رِفاقي، فقد أطَلْتُ حَديثي. سامِحُوني!

***

(١) كلومنا: جروحنا.

المراحل السبع

شَجيتْ[1] نَفسِي سَبعَ مرّاتٍ: المرّةَ الأُولى لَمّا حاوَلَتِ الحُصُولَ على الرِفعَةِ عَن طَريقِ الضَعَةِ[2].

والمرّةَ الثانيةَ لما عَرَجَتْ أمامَ المُقعَدِينَ. والمرّةَ الثالثةَ لما خُيِّرَتْ بينَ الصَعبِ والهَيِّنِ فاختارَتِ الهَيِّنَ.

والمرّةَ الرابعةَ لَمّا أخطأَتْ فتَعزَّتْ بخَطإِ غيرِها.

والمرّةَ الخامسةَ لَمّا تَجلّدَتْ عن ضُعفٍ وَعَزَتْ جَلَدَهَا إلى القُوّةِ.

والمرّةَ السادسةَ لَمّا لَمّتْ أذيالَها عن أوحَالِ الحَياةِ.

والمرةَ السابعةَ لما وقَفَتْ مُرَتِّلَةً أمامَ الله وحَسِبَتِ الترتيلَ فَضِيلةً فيها.

***

(١) شجيت: من شجا. والمراد هو حزنت.
(٢) الضَعة: الدناءة واللُّؤم.



«أبو الطيب المتنبي»

بريشة جبران خليل جبران

وعظتني نفسي:

وعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني حُبَّ ما يَمقُتُه الناسُ ومَصَافَاةَ مَنْ يُضَاغِنُونَهُ[1] وأبانَتْ لي أنَّ الحُبَّ ليسَ بِميزَةٍ في المُحِبِّ بل في المَحبُوب. وقَبل أن تَعِظَني نفسِي كانَ الحُبُّ بي خَيطًا دَقيقًا مَشدُودًا بَين وَتَدَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، أمّا الآنَ فقد تحَوَّلَ إلى هَالَةٍ[2] أوَّلُها آخِرُها وآخرُها أوّلُها، تُحيطُ بكُلِّ كائِنٍ وتتوسَّعُ ببُطءٍ لتَضُمَّ كُلَّ ما سَيكُون.

***

وَعَظَتْني نَفسِي فعَلَّمَتْني أَن أَرَى الجَمالَ المَحجُوبَ بالشَكلِ واللَّونِ والبَشَرَةِ، وأَن أُحَدِّقَ مُتَبَصِّرًا بما يَعُدُّهُ الناسُ شَناعَةً حتى يَبدُوَ لي حَسَنًا.

وقَبل أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ أرى الجَمالَ شُعلاتٍ مُرتَعِشَةً بين أعمِدَةٍ مِنَ الدُخَانِ وَاضمَحَلَّ فلم أَعُدْ أرَى سِوى ما يَشتَعِلُ.

***

(١) يمقُتُه الناس: يبغضه؛ يضاغنونه: يكنُّون له الضغينة، أي الحقد.

(٢) هالة: دائرة من نور.

وعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني الإصغَاءَ إلى الأصوَاتِ التـي لا تُوَلِّـدُهَا الأَلسِنَةُ ولا تَضجُّ بها الحَناجِرُ. وقبلَ أن تَعِظَنِي نَفسِي كنتُ كَلِيلَ المَسامِعِ مَرِيضَهَا، لا أدعي سِوى الجَلَبَةِ وَالصِيَاحِ، أمّا الآنَ فقد صِرتُ أَتَوَجَّسُ[1] بالسَكينَةِ فأسمَعُ أَجواقَها[2] مُنشِدَةً أغانِيَ الدُهُور، مُرَتِّلَةً تسَابيحَ الفَضاءِ، مُعلِنَةً أسرارَ الغَيبِ.

***

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني أَن أشرَبَ مِمّا لا يُعصَرُ ولا يُسكَبُ بكُؤوس لا تُرفَعُ بالأيدي ولا تُلمَسُ بالشِفَاهِ. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كانَ عَطَشي شرارةً ضئيلةً في رَابيَةٍ مِن رَمَادٍ أُخمِدُهَا بِعَبَّةٍ مِنَ الغَديرِ أو بَرشفَةٍ من جُرنِ المَعْصَرَةِ[3]. أمّا الآنَ فقد صَار شَوقي كأسي، وغُلَّتي[4] شَرابي، ووَحدتي نَشوتي. وأنا لا ولن أرتَوِيَ. ولكِنْ، في هذهِ الحرقَةِ التي لا تَنطَفِئ، مَسَرَّةٌ لا تَزُولُ.

***

(١) أتوجَّس: اسمع خائفًا.
(٢) أجواقها: مفردها جَوْق: جماعة المنشدين.
(٣) المعصرة: مكان يُعصر فيه العنب ويحوَّل إلى دِبسٍ أو خمر...
(٤) غُلَّتي: عطشي الشديد.

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني لَمْسَ ما لم يَتَجَسَّدْ ولم يَتبَلْوَرْ، وأفهَمَتْني أنَّ المَحسُوسَ نِصفُ المَعقُولِ. وأنَّ ما نَقبِضُ عَليه بَعضُ ما نَرغَبُ فيه. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ أكتَفي بالحَارِّ إن كنتُ بارِدًا، والبارِدِ إن كنتُ حارًّا، وبأحَدِهِما إن كنتُ فَاتِرًا. أمّا الآنَ فقد انتَثَرَتْ مَلامِسِي المُنكَمِشَةُ وانقلبَتْ ضَبابًا دَقيقًا يَختَرِقُ كَلَّ ما ظَهَرَ مِنَ الوُجُودِ ليمتزِجَ بِما خَفِيَ مِنه.

***

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني استِنشَاقَ ما لا تَبُثُّهُ الرَياحِينُ ولا تَنشُرُهُ المَجَامِرُ. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ إنِ اشتَهَيْتُ عِطرًا طلبتُه مِنَ البَساتِين أو مِنَ القَوارِيرِ أو المَباخِرِ. أمّا الآنَ فقَد صِرتُ أشُمُّ ما لا يَحتَرِقُ ولا يُهرَقُ وأملأُ صَدري مِن أنفاسٍ زَكيَّةٍ لم تَمُرَّ بجَنّةٍ من جَنّاتِ هذا العَالَمِ ولم تَحمِلْهَا نَسمةٌ من نَسَماتِ هذا الفَضاءِ[1].

***

---

[1] المجامر: حيث يحترق البخور؛ القوارير: جمع قارورة: وعاء الشراب أو الطيب؛ المباخر: حيث يوضع البخور؛ أنفاسٍ زكيَّة: طيِّبة الرائحة.

وَعَظَتني نَفسِي فَعَلَّمَتْني أن أقولَ «لبّيكَ»[1] عندَما يُنادِيني المَجهُولُ والخَطرُ. وقَبلَ أن تَعِظَني نفسِي كنتُ لا أَنهَضُ إلاَّ لِصَوتِ مُنَادٍ عَرَفتُه. ولا أسيرُ إلاَّ على سُبُلٍ خَبَرتُها فاستَهْوَنْتُها. أمّا الآنَ فقد أصبحَ المَعلُومُ مَطِيَّةً[2] أَركَبُها نحوَ المَجهُولِ، والسَهلُ سُلَّمًا أَتَسَلَّقُ دَرَجَاتِهِ لأبلُغَ الخَطَرَ.

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني ألاَّ أقيسَ الزمنَ بقَولي: كانَ بالأمسِ وسَيكُونُ غَدًا. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ أَتَوَهَّمُ المَاضي عَهدًا لا يُرَدُّ والآتي عَصرًا لن أَصِلَ إليهِ. أمّا الآنَ فقَد عرفتُ أنَّ في الهُنَيْهَةِ الحَاضِرَةِ كُلَّ الزمنِ بكُلِّ ما في الزمنِ مِمّا يُرجَى ويُنجَزُ ويَتَحَقَّقُ.

***

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني ألاَّ أَحُدَّ[3] المَكانَ بقَولي: هُنا وهُناكَ وهُنالكَ. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ إذا ما صِرتُ في مَوضِعٍ في الأرضِ ظَنَنْتُني بَعيدًا عَن كُلِّ مَوضِعٍ آخَرَ. أمّا الآنَ فقد عَلِمتُ أنَّ

(١) لبَّيْك: أُقبِلُ على أمرك. أُلَبِّي ما تطلبه مني.

(٢) مطيَّة: ج مطايا ومطيّ: الدابَّة التي تُركب. ويستوي فيها المذكر والمؤنث، فالبعير مطيَّة. والناقة مطيَّة. وهنا وَرَدَ التعبير رمزيًا بمعنى الوسيلة.

(٣) أَحُدُّ المكانَ: أضعُ له حدودًا لأُميِّزَهُ.

مَكانًا أَحُلُّ فيه هُو كُلُّ مكانٍ، وأنَّ فسحةً أُشغِلُها هِي كِلُّ المَسافاتِ.

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني أَن أَسهَرَ وسُكّانُ الحَيِّ راقِدُونَ؛ وأن أنامَ وهُم مُنتَبِهُون. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ لا أرى أحلامَهم في هَجعَتِي ولا يَرصُدُونَ أحلامي في غَفلَتِهم. أمّا الآنَ فلا أسبَحُ مُرفرِفًا في مَنامي إلاَّ وهُم يَرقُبُونَني ولا يَطِيرونَ في أحلامِهم إلاَّ وفَرِحتُ بانعِتاقِهِم(١).

***

وَعَظَتْني نَفسِي فَعَلَّمَتْني أن لا أَطرَبَ لِمَديح، ولا أجزَعَ لِمَذَمَّةٍ. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ أظَلُّ مُرتابًا في قِيمَةِ أعمالي وقَدرِها حتَّى تبعَثَ إليها الأيّامُ بمَنْ يُقَرِّظُها أو يَهجُوها. أما الآنَ فقد عَرفتُ أنَّ الأشجارَ تُزهِرُ في الرَبيعِ، وتُثمِرُ في الصَيفِ، ولا مَطمَعَ لها بالثَناءِ. وتنثُر أوراقَها في الخَريفِ وتَتَعَرَّى في الشِتاءِ ولا تَخشَى المَلامَةَ(٢).

***

(١) هجعتي: نومي؛ يرصدون: يرقبون؛ بانعتاقهم: بتحرّرهم.

(٢) أجزع: أخاف؛ مذمّة: هجاء؛ مرتابًا: شاكًا؛ يقرِّظها: يمدحها؛ الثناء: المدح؛ الملامة: لغة من اللوم.

وَعَظَتْني نَفسِي فعلّمتني وأثبتَتْ لي أنَّني لستُ بأرفَعَ مِن الصَعالِيكِ، ولا أدنَى من الجَبابِرَةِ. وقبلَ أن تَعِظَني نَفسِي كنتُ أحسَبُ الناسَ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ضَعيفًا أَرِقُّ له أو أَزدَري به، ورجُلاً قَوِيًّا أتبعُه أو أَتمَرَّدُ عَليه. أمّا الآنَ فقد عَلِمْتُ أنّني كَوَّنتُ فَردًا مِمّا كَوَّنَ البشرُ مِنه جَماعةً. فعَناصِري عَناصِرُهم. وطَوِيَّتي طَوِيَّتُهم. ومَنازِعي مَنازِعُهُم. ومَحَجَّتي مَحَجَّتُهم. فإن أذنَبُوا فأنا المُذنِبُ. وإن أَحسَنُوا عَمَلاً فَاخَرْتُ بعَمَلِهِم. وإن نَهَضُوا نَهَضتُ وإيَّاهم. وإن تَقَاعَدُوا تقاعَدْتُ مَعَهم(١).

***

وعظَتْني نفسِي فَعَلَّمَتْني أن السِراجَ الذي أَحمِلُهُ ليسَ لي، والأغنيةُ التي أُنشِدُها لم تَتكَوَّنْ في أحشَائي. فأنا وإن سِرتُ بالنُورِ لستُ بالنُورِ، وأنا وإن كنتُ عُودًا مَشدُودَ الأوتارِ فلستُ بالعَوّاد.

***

وَعَظَتْني نَفسِي يا أَخِي وعَلَّمَتْني. ولقد وَعَظَتْكَ نفسُك

---

(١) الصعاليك: مفردها صعلوك: الفقير المنبوذ؛ أزدري به: أحتقره؛ طَوِيَّتي: نِيَّتي؛ منازعي: اتجاهاتي؛ محجَّتي: غايتي.

وعَلَّمَتْكَ. فأنتَ وأنا مُتشابهان مُتَضَارِعَانِ[1]. وما الفرقُ بيننَا سِوى أنّني أتكَلَّمُ عَمَّا بي وفي كَلامي شَيءٌ من اللُجَاجَةِ، وأنتَ تكتُم ما بكَ وفي تَكَتُّمِكَ شكلٌ مِنَ الفَضيلةِ.

***

(١) متضارعان: متماثلان، متساويان، متشابهان.

لكم لُبنانكم ولي لُبناني

لكُم لُبنانُكم ولي لبنَاني.

لكُم لُبنَانُكم ومُعضِلاتُه[1]، ولي لبناني وجَمالُه.

لكُم لُبنَانُكُم بكُلِّ ما فِيه مِنَ الأغراضِ والمَنَازِعِ[2]، ولي لُبناني بما فيه مِنَ الأحلامِ والأمَانِي.

لكُم لُبنانُكُم فاقنَعُوا به، ولي لُبناني وأنا لا أقنَعُ بغَيرِ المُجَرَّدِ المُطلَقِ.

لُبنانُكُم عُقدَةٌ سِياسيّةٌ تُحاوِلُ حلَّهَا الأيّامُ؛ أمّا لُبناني فتُلُولٌ تتعَالَى بهَيبةٍ وجَلالٍ نحوَ ازرِقَاقِ السّمَاءِ.

لُبنانُكُم مُشكِلَةٌ دوليّةٌ تتقاذَفُها اللّيالي؛ أمّا لُبناني فأودِيَةٌ هادِئَةٌ سِحريّةٌ تَتموَّجُ في جَنبَاتِها رَنّاتُ الأجرَاسِ وَأغانِي السَوَاقي.

لُبنانُكُم صِرَاعٌ بينَ رَجُل جَاءَ من المَغرِبِ ورَجُلٍ جاءَ من

(١) مُعضِلاته: مشكلاته.

(٢) المنازع: الغايات والاتجاهات.

الجَنُوبِ؛ أمّا لُبناني فصَلاةٌ مُجَنَّحَةٌ تُرفرِفُ صَباحًا عندَما يقُودُ الرُعاة قُطعَانَهم إلى المُروجِ وتَتَصاعَدُ مَساءً عندَما يعُودُ الفَلاَّحُونَ من الحُقُولِ والكُرُومِ.

لُبنانُكُم حُكُومَةٌ ذاتُ رؤوسٍ لا عِدادَ لَها؛ أمّا لُبناني فجَبَلٌ رَهيبٌ وَديعٌ جَالِسٌ بينَ البَحرِ والسُهُولِ جلوسَ شَاعرٍ بينَ الأبديّةِ والأبديّةِ.

لُبنانُكُم حِيلَةٌ يستَخدِمُها الثَعلبُ عندَما يَلتَقي الضَبُعَ، والضبُع حينَما يَجتَمِعُ بالذِئبِ؛ أمّا لُبناني فتَذكارَاتٌ تُعِيدُ على مَسمَعي أهازيجَ[1] الفَتيَاتِ في اللَيالي المُقمِرَةِ وأغاني الصَبَايا بينَ البَيادِرِ والمَعاصِرِ[2].

لُبنانُكُم مُرَبّعَاتُ شَطرنجٍ بينَ رئيسِ دِينٍ وقَائِدِ جَيش؛ أمّا لُبناني فمَعبَدٌ أدخُلُهُ بالرُوحِ عندَما أمَلُّ النظَرَ إلى وَجهِ هذه المَدَنِيَّةِ السَائِرَةِ على الدَوَاليبِ.

لُبنانُكُم رَجُلان: رَجُلٌ يُؤدّي المُكُوسَ[3] ورجُلٌ يَقبِضُها؛ أمّا

---

(١) أهازيج: جمع أهزوجة، وهي أغنية فرح.

(٢) المعاصر: مفردها معصرة: حيث يُعصر العنب ويحوَّل إلى دبس أو خمر؛ البيادر: مفردها بيدر: الموضع الذي يُدرَسُ (يفصل حَبُّه عن قَشّه) القمح ونحوه فيه، ويُداس بالنَوْرج. والنَوْرج هو ما تُداس به أكداس القمح وغيره، من خشب كان أو حديد.

(٣) المكوس: جمع مكس، وهي ضريبة على تجارة السلع.

لُبناني فرجُلٌ فَردٌ مُتَّكِئٌ عَلى سَاعِدِه في ظِلالِ الأَرْزِ وَهو مُنصَرِفٌ عَن كُلِّ شَيءٍ سِوى الله ونُورِ الشَمس.

لُبنانُكم مَرافِئٌ وبريدٌ وتِجارَةٌ؛ أمّا لُبناني ففِكرَةٌ بَعيدةٌ وعاطفةٌ مُشتعِلَةٌ وكَلمَةٌ عُلْويّةٌ تَهمِسُها الأرضُ في أُذُنِ الفَضاءِ.

لُبنانُكم مُوَظَّفُونَ وعُمّالٌ ومُديرونَ؛ أمّا لُبناني فتَأَهُّبُ الشبابِ وعَزْمُ الكُهُولَةِ وحِكمَةُ الشَيخُوخَةِ.

لُبنانُكم وَفودٌ ولِجانٌ؛ أمّا لُبناني فمَجالسُ حَولَ المَواقِدِ في ليالٍ تَغمُرُها هَيْبَةُ العَواصِفِ ويُجلِّلُها طُهْرُ الثُلُوجِ.

لُبنانُكم طَوائِفُ وأحزابٌ؛ أمّا لُبناني فَصِبْيَةٌ يَتَسَلَّقُونَ الصُخُورَ ويَركُضُونَ مع الجَداوِلِ ويَقذِفُونَ الأُكَرَ(١) في السَاحَاتِ.

لبنانُكم خُطَبٌ ومُحَاضَراتٌ ومُنَاقَشَاتٌ؛ أمّا لبناني فتَغريدُ الشَحارِيرِ، وحَفيفُ أغصَانِ الحَوْرِ والسِندِيَانِ، ورَجْعُ صَدَى النَاياتِ(٢) في المَغَاوِرِ والكُهُوفِ.

---

(١) الأُكر: جمع كرة (طابة).

(٢) النايات: جمع ناي: آلة موسيقية من القصب المجوَّف يُنفَخُ فيها فيُصدِرُ النفخُ نغمًا موسيقيًا شجيًا.

لُبنانُكُم كَذِبٌ يَحتَجِبُ وراءَ نِقَابٍ مِنَ الذَكاءِ المُستَعَار، وَرِياءٌ يَختَبِئُ في رِدَاءٍ من التَقليدِ والتَصَنُّعِ؛ أمّا لبناني فحَقيقةٌ بسيطةٌ عارِيَةٌ إذا نظرَتْ في حَوضِ مَاءٍ ما رَأَتْ غيرَ وَجهِها الهَادِئ ومَلامِحِها المُنبَسِطَةِ.

لُبنانُكُم شَرائِعُ وبُنُودٌ على أَوراقٍ، وعُقُودٌ وعُهُودٌ في دَفَاتِرَ؛ أمّا لبناني ففِطرَةٌ في أسرارِ الحَياةِ وهي لا تَعلَمُ أنّها تَعلَمُ، وشَوقٌ يُلامِسُ في اليَقظَةِ أذيالَ الغَيبِ ويَظُنُّ نفسَه في مَنامٍ.

لُبنانُكُم شَيخٌ قَابِضٌ عَلى لِحيَتِهِ، قاطِبٌ ما بين عَينَيهِ ولا يُفكِّرُ إلاَّ بِذَاتِهِ؛ أمّا لُبناني ففَتًى يَنتَصِبُ كالبُرجِ، وَيَبتَسِمُ كالصَباحِ، ويَشعُرُ بِسِوَاهُ شُعُورَهُ بنفسِه.

لُبنانُكُم يَنفَصِلُ آنًا عن سُوريا وَيتَّصِلُ بها آونةً، ثمّ يَحتالُ على طَرَفَيْهِ ليكونَ بين مَعقُودٍ ومَحلُول؛ أمّا لبناني فلا يَتَّصِلُ ولا يَنفَصِلُ ولا يَتَفَوَّقُ ولا يَتَصَاغَرُ.

لكُم لُبنانكم ولي لُبناني.

لكم لُبنانُكُم وَأَبناؤهُ ولي لُبناني وَأبناؤُهُ.

ومَنْ هُم يا تُرى أبناءُ لُبنانِكُم؟

ألا فانظُرُوا هُنيهةً لأُرِيَكُم حَقيقَتَهُم:

هُمُ الذين وُلِدَتْ أرواحُهم في مُستَشفَيَاتِ الغَربيّينَ.

هُمُ الذينَ استيقظَتْ عُقُولُهم في حِضنِ طَامعٍ يُمَثِّلُ دَورَ أَرْيَحِيٍّ[1].

هُم تلكَ القُضبانُ اللَيّنةُ التي تَميلُ إلى اليَمينِ وإلى اليَسَارِ، ولكِنْ بدونِ إرادةٍ، وتَرتَعِشُ في الصَباحِ وفي المَساءِ ولكنَّها لا تَدري أنّها تَرتَعِشُ.

هُم تلكَ السَفينةُ التي تُصارعُ الأمواجَ وهي بدونِ دَفَّةٍ[2] ولا شِراعٍ، أمّا رُبَّانُها فالتَردُّدُ وأمّا مِيناؤها فكَهفٌ تسكُنُهُ الغِيلانُ. أوَليسَتْ كُلُّ عاصِمَةٍ في أوروبا كَهفًا للغيلان[3]؟

هُمُ الأشدَّاءُ الفُصَحاءُ البُلَغَاءُ، ولكِنْ بعضُهم لدى بَعضٍ، والضُعَفَاءُ الخُرسَانُ أمامَ الإفرنج.

هُمُ الأحرارُ المُصلِحُون المُتَحَمِّسُونَ، ولكِنْ في صَحُفِهِم وفوقَ مَنابِرِهِم، والمُنقَادُونَ الرَجعِيُّون أمامَ الغربيّين.

---

(١) أَرْيَحي: النشيط إلى المعروف.
(٢) دَفَّة: خشبة عريضة تُجعل في مؤخَّر السفينة لإمالتها من جهة إلى أخرى.
(٣) الغيلان: جمع غول، وهو حيوان أسطوري كالجن يغتال مَنْ يمرّ به.

هُمُ الذينَ يَضُجُّونَ كالضَفادع قَـائِلين: لقـد تَمَلَّـصْنَا مـن عَـدُوِّنا الطاغيـةِ[1] القَـديمِ، وعَـدُوُّهُمُ القَـديمُ الطاغيـةُ مـا بَـرِحَ يَختَبِـئُ في أجسَادِهِم.

. .

هُمُ الذينَ يَسِيرونَ أمامَ الجِنَـازةِ مُزَمِّـرينَ رَاقِـصِينَ، حتـى إذا مـا التَقَوْا مَوكِبَ العُـرسِ تَحَـوَّلَ تـزميرُهم إلى نُـواحٍ ورَقـصُهم إلى قَـرعِ الصُدُورِ وشَقِّ الأثوابِ.

هُمُ الذينَ لا يَعرِفُونَ المَجَاعَةَ إلاَّ إذا كانَـت في جُيُـوبِهِم، فـإذا مـا التَقَوْا مَنْ كانَتْ مَجَاعتُه في رُوحِهِ ضَحِكُوا منه وتَحَوَّلُوا عنهُ قائِلينَ: مـا هذا سِوى خيالٍ يسيرُ في عَالَمِ الأخيِلَةِ.

هُم أولئِكَ العَبِيدُ الذينَ تُبَـدِّلُ الأيّـامُ قُيُـودَهُمُ المُـصَدَّأَةَ[2] بقُيُـودٍ لامِعَةٍ فيَظُنُّونَ أنّهُم أصبَحُوا أحرارًا مُطلَقِينَ.

هؤلاءِ هُم أبناءُ لُبنانِكُم، فهل بينَهـم مَنْ يُمَثِّـلُ العـزمَ في صُـخُور لبنانَ أم النُبلَ في ارتِفاعِهِ أم العُذُوبَةَ في مائِهِ أم العِطرَ في هَوائِهِ؟

هل بينَهـم مَنْ يَتَجَرَّأُ أن يقولَ: إذا ما مُـتُّ تركـتُ وَطنـي أفـضَلَ

(١) تملَّصنا من الطاغية: تخلَّصنا من الظالم الباغي.
(٢) المصدَّأة: التي علاها الصدأ.

قَليلاً مِمّا وَجدتُه عندَما وُلِدتُ؟ هل بينَهم مَنْ يَتَجَرَّأ أن يقولَ: لقد كانَت حَياتِي قَطرةً مِنَ الدَمِ في عُروقِ لبنانَ أو دَمعةً بينَ أجفانِهِ أو ابتسامةً على ثَغرِهِ؟

هؤلاءِ هُم أبناءُ لُبنانِكُم، فما أكبرَهُم في عُيونِكُم وما أصغرَهُم في عَيني!

ولكِنْ قِفُوا قَليلاً وانظُرُوا لأُرِيَكُم أبناءَ لبناني:

هُمُ الفلاَّحون الذينَ يُحَوِّلُونَ الوَعْرَ[1] إلى حَدائِقَ وبَساتِينَ.

هُمُ الرُعاةُ الذين يَقُودُونَ قُطعَانَهم مِن وَادٍ إلى وَادٍ فتَنمُو وتَتكاثَرُ وتُعطِيكُم لحُومُها غِذاءً وصُوفُها رِداء.

هُمُ الكَرّامُونَ الذينَ يَعصُرُونَ العِنَبَ خَمرًا ويَعقُدُونَ الخَمر دِبسًا.

هُمُ الآباءُ الذين يُرَبُّونَ أنصابَ التُوتِ، والأمّهاتُ اللّواتي يَغزِلْنَ الحَرِيرَ[2].

هُمُ الرِجالُ الذين يَحصُدُونَ الزَرْعَ، والزَوجَاتُ اللّواتي يَجمَعْنَ الأغمارَ[3].

(١) الوَعْر: الأرض القفر، الجدباء، لا نبتَ فيها، وصعبة المسالك.

(٢) ورق التوت (شجر) هو غِذاءُ دودة القزِّ التي تعطي الحرير.

(٣) الأغمار جمع الغُمر: الحزمة من القش ونحوه بقدر ما يُحمل تحت الإبط.

هُـمُ البَنّـاؤونَ والفَخّـارونَ والحَـائِكُونَ وصَـانِعُو الأجـراسِ والنَواقيسِ.

هُمُ الشُعراءُ الذين يَسكبُون أرواحَهم في كُـؤوسٍ جَديـدةٍ، وهُـم شُعراءُ الفِطرةِ الذين يُنشِدُون العتابا والمُعنّى والزَجَل[1].

هُمُ الذينَ يُغَادِرون لبنـانَ ولـيسَ لهُـم سِـوى حَماسَـةٍ في قُلُـوبِهم وعَـزْم في سَـوَاعِدِهم ويعُـودُونَ إليـه وخَـيراتُ الأرضِ في أكُفِّهِـم، وأكاليلُ الغارِ على رُؤوسِهم.

هُمُ الذين يَتَغَلَّبُونَ على مُحيطِهم أينَما حَلُّوا ويَجتَذِبُونَ القُلُـوبَ إليهم أينَما وُجِدُوا.

وهُمُ الذينَ يُولَدُونَ في الأكواخِ ويمُوتُونَ في قُصُورِ العِلم.

هؤلاءِ هُم أبناءُ لبنانَ. هؤلاءِ هُمُ السُّرُجُ[2] التي لا تُطفِئُها الرياحُ، والمِلحُ الذي لا تُفسِدُهُ الدُهُور[3].

---

(١) العتابا والمعنّى والزَجَل: أنواع من الشعر العامي عُرِف به اللبنانيون يُنشِدونه في مناسباتهم وسهراتهم.

(٢) السُرُج: جمع سراج، مصباح.

(٣) إشارة إلى قول للمسيح (متى ٥: ١٣-١٥).

هؤلاءِ هُمُ السَائِرُونَ بأقدامٍ ثَابِتَةٍ نحوَ الحَقيقةِ والجَمالِ والكَمالِ.

وماذا عَسَى أن يَبقَي من لُبنانِكُم وأبناءِ لُبنانِكُم بعدَ مِئَةِ سَنَةٍ؟ أخبِرُوني، ماذا تتركُونَ للغَدِ سِوى الدَعوى والتَلفِيقِ والبَلادَةِ[1]؟

هل تَحسَبونَ أن الزمنَ يَحفَظُ في ذاكِرَتِهِ مظَاهِرَ الخِدَاعِ والمُدَاهَنَةِ والتَدلِيسِ[2]؟

أَتَظُنُّونَ أن الأثيرَ يَخزُنُ في جُيُوبِهِ أشباحَ المَوتِ وأنفاسَ القُبورِ؟ أَتتوهَّمُونَ أنَّ الحَياةَ تَستُرُ جَسَدَها العَاري بالخِرَقِ البَالِيَةِ؟

أقولُ لكُم والحَقُّ شِاهدٌ عَلَيَّ: إن نَصبَةَ الزَيتونِ التي يَغرِسُها القَرويُّ في سَفحِ لبنانَ لأبقَى مِن جَميعِ أعمالِكُم ومَآتِيكُم، والمِحراثَ الخَشبِيَّ الذي تَجُرُّهُ العُجُولُ في مُنعَطَفَاتِ لبنانَ لأشرفُ وأنبلُ مِن كلِّ أمانِيِّكُم ومَطامِحِكُم.

أقولُ لكُم وضميرُ الوُجودِ صَاغٍ إليّ: إنَّ أُغنيةَ جَامِعَةِ البُقولِ بينَ هَضَبَاتِ لبنانَ لأطولُ عُمرًا مِن كُلِّ ما يقُولُه أوجَهُ وأضخَمُ ثَرثارٍ بينكُم.

---

(١) البلادة: فتور الهمَّة والقعود عن العمل؛ التلفيق: اختلاق الأكاذيب للتمويه.

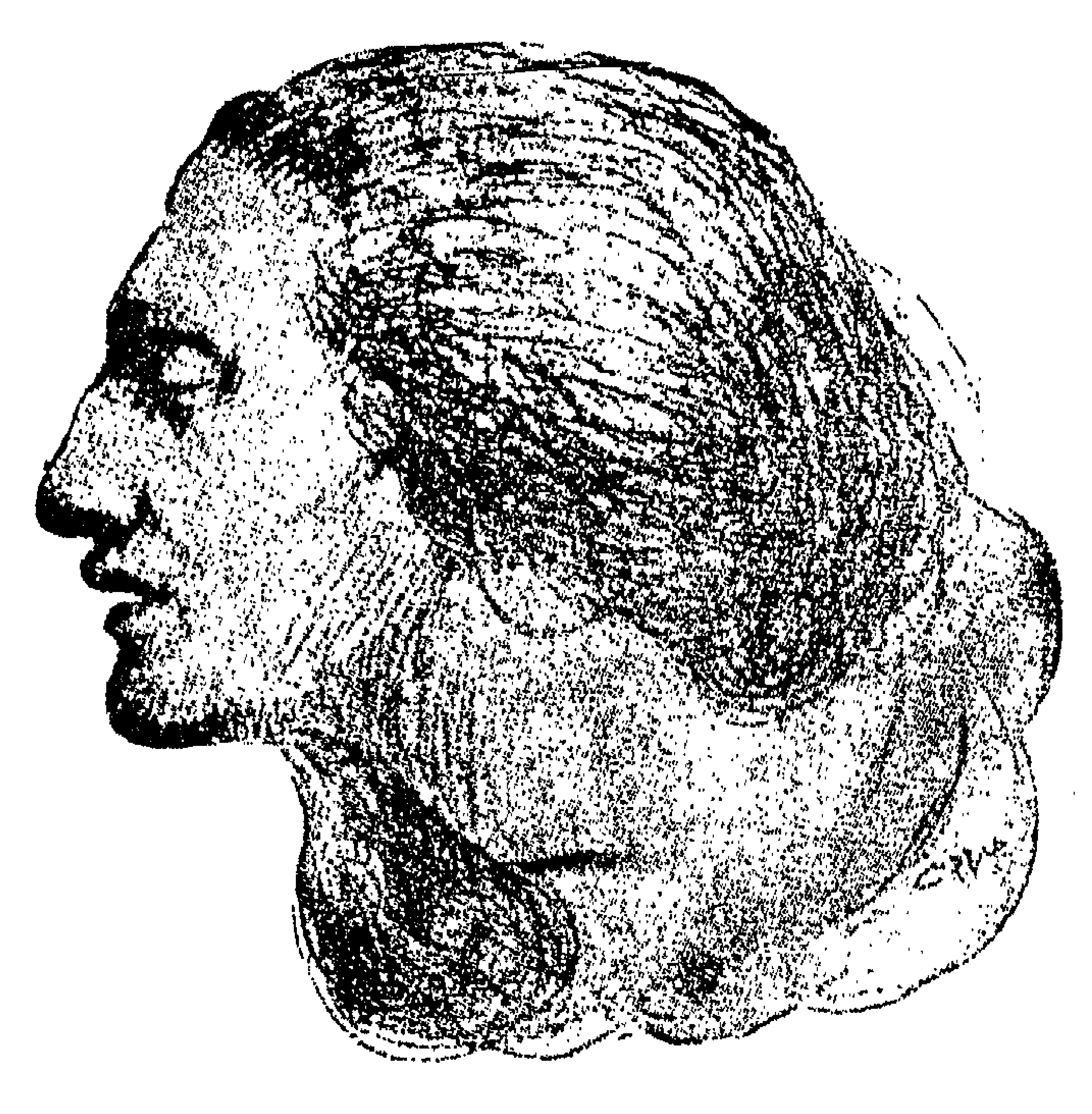
(٢) التدليس: الكذب والمخادعة.

أقولُ لكم: إنَّكُم لستُم على شَيءٍ. ولو كُنتُم تعلَمُونَ أَنَّكُم لستُم عَلى شَيءٍ لتَحَوَّلَ اشمِئزازي مِنكُم إلى شَكلٍ من العَطفِ والحَنان، ولكِنَّكُم لا تعلَمُون.

لكُم لبنانُكُم ولي لُبناني.

لكُم لبنانُكُم، وأبناءُ لبنانِكُم، فاقتَنِعُوا به وبهم، إنِ استَطَعْتُمُ الاقتناعَ بالفَقَاعيعِ الفَارِغَةِ؛ أمّا أنا فمُقتنعٌ بلبناني وأبنائه، وفي اقتِناعي عُذوبةٌ وسَكينةٌ وطُمَأنينةٌ.

***



«وجه أُمّي وجه أُمّتي»

بريشة جبران خليل جبران

الأرض

تَنبثِقُ الأرضُ من الأرضِ كَرْهًا وقَسْرًا.

ثمّ تَسيرُ الأرضُ فوقَ الأرضِ تِيهًا وكِبْرًا.

وتُقِيمُ الأرضُ مِنَ الأرضِ القُصورَ والبُروجَ والهياكلَ.

وتُنشِئُ الأرضُ في الأرضِ الأساطيرَ والتَعاليمَ والشَرائعَ.

ثمّ تَمَلُّ الأرضُ أعمالَ الأرضِ فتَحُوكُ من هالاتِ الأرضِ الأشباحَ والأوهامَ والأحلامَ.

ثُمّ يُراوِدُ نُعاسُ الأرضِ أجفانَ الأرضِ فتَنامُ نَومًا هَادِئًا عَميقًا أبدِيًّا.

ثمّ تُنادي الأرضُ قائِلةً للأرضِ: أنا الرَحِمُ، وأَنا القَبرُ وسَأبقَى رَحمًا وقَبرًا حتَّى تَضمَحِلَّ الكَواكِبُ وتتحَوَّلَ الشمسُ إلى رَمادٍ(1).

---

(1) هذه النفحة التشاؤمية تذكّرنا بأبي العلاء المعري وقوله:

رُبَّ لحدٍ قد صار لحدًا مرارًا
ضاحكٍ من تزاحُم الأضدادِ
تعبٌ كلّها الحياةُ فما أعجبُ
إلاّ من راغبٍ في ازديادِ

بالأمس. واليوم. وغدًا

قلتُ لِصَدِيقي: أَلا فَانظُرْهَا مُتَكِئَةً على سَاعِدِهِ، وبالأمسِ كانَتْ على سَاعِدِي.

فقالَ: وغَدًا على سَاعِدِي.

قلت: تأَمَّلْهَا جالسةً إلى جَانِبِهِ، وبالأمسِ كانت إلى جَانبي.

فقالَ: وغَدًا إلى جَانبي.

قلتُ: ألا تُبصِرُهَا تَشربُ الخَمرَ من كَأسِهِ، وبالأمسِ كانَت تَرشُفُها من كَأسِي؟

فقالَ: وغَدًا مِن كَأسي.

قلت: انظُرْ إليها تَرمُقُهُ بعَيْنٍ ملؤُها الحُبُّ، وبالأمسِ كانت تَرمُقُني.

فقالَ: وغَدًا ترمُقُني.

قلتُ: اسمَعْها تهمِسُ أغانِيَ الغَرامِ في أُذُنِهِ، وبالأمسِ كانَت

تهمِسُها في أُذُني.

فقالَ: وغَدًا في أُذُني.

قلتُ: انظُرْ فهيَ تُعانِقُهُ، وقد كانَت بالأمسِ تُعَانِقُني.

فقالَ: وغَدًا تُعَانِقُني.

قلتُ: ما أغرَبَها امرَأةً!

قال: هي كالحياةِ يمتَلِكُها كُلُّ البَشَرِ. وكالأبديّةِ تَضُمُّ كُلَّ البَشَرِ[1].

***

(١) قد يكون الجواب الأخير هو العِبرة التي تضمَّنها الحكاية: المرأة كالحياة، كالموت، كالأبديّة. (القصة نفسها تردُ في كتاب «التائه» ص ٩٠).

الكمــال

تَسأَلُني يا أخي: متى يَصِيرُ الإنسانُ كامِلاً؟

فاسمَعْ جَوابي:

يَسيرُ الإنسانُ نحوَ الكَمالِ عندَما يشعُرُ بأنّه هو الفَضاءُ ولا حَدَّ له، وَهوَ هُوَ البَحرُ بدُونِ شَواطئ، وأنَّه النّارُ المُتأجِّجَةُ دائِماً، والنُورُ السَاطِعُ أبَدًا، والرِياحُ إذا هَبَّتْ أو إذا سَكَنَتْ، والسُحُبُ إذا بَرَقَتْ وأرعَدَتْ وأمطَرتْ، والجَداوِلُ إذا تَرَنَّمَتْ أو نَاحَتْ، وَالأشجَارُ إذا أزهَرَتْ في الرَبيعِ أو تَجَرَّدَتْ[1] في الخَريفِ، والجِبالُ إذا تَعالَتْ، والأودِيَةُ إذا انخفَضَتْ، والحُقُولُ إذا أخصَبَتْ أو أجدَبَتْ.

إذا شَعَرَ الإنسانُ بكُلِّ هذهِ الأُمُورِ بَلَغَ مُنتَصَفَ طريقِ الكَمالِ، أمّا إذا شَاءَ بُلُوغَ مَحَجَّةِ[2] الكَمالِ فعَلَيه إن شَعَرَ بكيانه، أن يَشعُرَ بأنّه الطِفلُ المُتَّكِلُ على أُمِّه، والشيخُ المسؤولُ عن عِياله، والشَابُّ الضَائِعُ بينَ أمانيِّهِ وغَرَامِهِ، والكهلُ الذي يُصارعُ ماضِيه ومُستَقبلَه، والعَابِدُ

(١) تجرَّدت: تعرّت وسقطت أوراقها.

(٢) محجَّة: غاية.

فِي صَومَعَتِهِ، والمُجرِمُ فِي سِجنِهِ، والعَالِمُ بين كُتُبِهِ وَأوراقِهِ، والجاهلُ بين ظُلمةِ لَيلِهِ وظُلمَةِ نَهارِهِ، والرَاهِبَةُ بين أزهَارِ إيمَانِهَا وأشوَاكِ وَحشَتِها، والمُومِسُ بين أنياب ضُعفِها ومَخَالِبِ حَاجَتِها، والفَقيرُ بين مَرَارَتِهِ وامتِثَالِهِ، والغَنِيُّ بينَ مَطَامِعِهِ وإذعَانِهِ[1]، والشَاعِرُ بين ضَبابِ أمسَائِهِ وشُعاعِ أسحَارِهِ.

إذا استَطاعَ الإنسانُ أن يَختَبِرَ ويَعلَمَ جميعَ هذهِ الأمورِ يَصِلُ إلى الكَمالِ وَيَصِيرُ ظِلاًّ مِن ظِلالِ الله.

***

(١) إذعانه: خضوعه.

الاستقلال والطرابيش

قرأتُ منذُ أَمَدٍ غيرِ بَعيدٍ مَقالاً لأديبٍ قَامَ يَعترِضُ ويَحتَجُّ فيه على رُبّانِ ومُوَظَّفِي بَاخِرَةٍ[1] فرنسِيَّةٍ أقلَّتهُ[2] من سُورية إلى مِصر، ذلكَ لأن هَؤلاءِ قد أجبَرُوهُ، أو حَاوَلُوا إجبَارَهُ على خَلعِ طَربُوشِه أثناءَ جُلُوسِه إلى مَائِدَةِ الطَعَامِ، وكُلُّنا يَعلَمُ أن خَلْعَ القُبّعاتِ تَحتَ كُلِّ سَقفٍ عَادَةٌ مَرْعِيَّةٌ[3] عندَ الغَربيّينَ.

ولقَد أعجَبَني هذا الاحتِجَاجُ لأنّه أبَانَ لي تَمَسّكَ الشَرقِي برَمزٍ من رُمُوز حَياتِهِ الخَاصَّةِ.

أُعجبتُ بجُرأةِ ذلكَ السُورِيِّ كما أُعجِبتُ مرّةً بأميرٍ هِندِيٍّ دعوتُه إلى حُضورِ رِوايةٍ غِنائِيّةٍ في مَدينةِ ميلانو في إيطاليا فقالَ لي: لو دَعَوْتَني إلى زِيارةِ جَحيمِ دَانتِي[4] لذهبتُ مَعكَ مَسرُورًا، ولكنّي لا

---

(١) من الأصوب القول: ربّان باخرة وموظفيها.

(٢) أقلّته: حملَتْه ونقلَتْه.

(٣) عادة مَرْعيّة: عادة متَّبعة.

(٤) جحيم دانتي: هو الجحيم الذي وصفه الشاعر الإيطالي العالمي دانتي في ملحمته الشعرية «الكوميديا الإلهية».

أستطيعُ الجُلُوس في مَكانٍ يَحظُرُونَ فيه عَليّ استِبقَاءَ عِمامَتي وتَدخِينَ اللَفائِفِ[1].

أَجل يُعجِبُني أن أَرَى الشَرقيَّ مُتَمَسِّكًا بِبَعضِ مَزَاعِمِه قابِضًا ولو على ظِلٍّ من ظِلالِ عَاداتِهِ القَوميّةِ.

ولكنَّ إعجَابي هذا لا ولن يَمحُوَ ما وَرَاءَه من الحَقائِقِ الخَشِنَةِ المَستَتِبَّةِ[2] المُتَشَبِّثَةِ بذَاتِيَّةِ الشَرقِ ومَنَازِعِ الشَرقِ ومزَاعِمِ الشَرقِ.

لَو فَكَّرَ ذلكَ الأَديبُ الذي استَصعَبَ خَلْعَ طَربُوشِه في البَاخِرَةِ الإفرنجِيّةِ بأَنَّ ذلك الطَربوشَ الشريفَ قد صُنع في مَعمَل إفرنجِيٍّ، لهَانَ عليه خَلعُهُ في أيِّ مكانٍ وفي أيّةِ باخِرَةٍ إفرنجيّةٍ.

لو فَكَّرَ أديبُنا بأَنَّ الاستِقلالَ الشَخصِيَّ في الأمورِ الصَغِيرَةِ كان وسَيكُونُ رَهنَ الاستِقلالِ الفَنِّيِّ والاستِقلالِ الصِناعِيِّ، وَهُما كَبيرانِ، لَخَلَعَ طَربوشَهُ تمَثِيلاً صَامِتًا.

لَو فكَّرَ صاحِبُنا بأَنَّ الأمّةَ المُستَعبَدَةَ برُوحِها وعَقْلِيَّتِها لا تَستَطيعُ أن تكونَ حُرّةً بمَلابِسِها وعَاداتِها.

---

(١) اللفائف: المقصود ما هو متعارف عليه في اللغة المحكية ألا وهو: السجائر ومفردها سيجارة.
(٢) المستَتِبَّة: المستقِرَّة.

لو فَكَّرَ بذلكَ لَمَا كَتَبَ مَقَالَهُ مُعتَرِضًا.

لو فَكَّرَ أديبُنا بأنَّ جَدَّهُ السُوري كـان يُبحِـرُ إلى مِـصرَ عـلَى ظهـرِ مَركَبٍ سَوريٍّ مُرتَدِيًا ثَوبًا غَزَلَتْهُ وحَاكَتْهُ وخَاطَتْهُ الأَيـدي الـسُورِيّةُ، لَمَا تَرَدَّى[1] بَطَلُنا الحُرُّ إلاَّ بالمَلابِسِ المَصنُوعَةِ في بِلادِهِ، ولَمَا رَكِبَ سِوى سَفينَةٍ سَوريّةٍ ذاتِ رُبّانٍ سَورِيٍّ وبَحّارَةٍ سُوريّين.

مُصابُ أَديبِنا الـشُجاعِ أَنّـهُ قَـدِ اعـتَرَضَ عـلى النّتَـائِجِ وَلَمْ يَحفِـلْ بالأسبَابِ، فتَنَاوَلَتْهُ الأعراضُ قبلَ أن يَستَمِيلَهُ الجَـوهرُ. وهـذا شـأنُ أَكثرِ الـشَرقِيّينَ الـذين يَـأبَونَ أن يَكُونُـوا شَرقِيّـينَ إلاَّ بتَوَافِـهِ الأُمُـورِ وصَغَائِرِها، مَعَ أنّهم يُفاخِرُونَ بمَا اقتَبَسُوهُ مِنَ الغَربِيّينَ مِمّا لـيسَ بتَافِـهٍ أو صَغيرٍ.

أقولُ لأَديبِنا وأَقُولُ لجَمِيعِ المطَربِشِينَ: ألا فَاصـنَعُوا طَرابيـشَكُم بيدِكُم، ثمّ تَخَيَّرُوا في ما تفعَلُونَه بطَرابيشِكُم على ظهرِ البَـاخِرَةِ أو عـلى قِمَّةِ الجَبَلِ أو في جَوفِ الوَادي.

وتَعلَمُ السَماءُ أنَّ هذه الكَلِمَةَ لم تُكتَـبْ في الطـرابيشِ أو في شَـأنِ

---

(١) تردَّى: لبس رداء.

خَلْعِها أو استِبقَائِها على الرُؤوسِ تحـتَ الـسُقوفِ أو تَحـتَ المَجَـرَّةِ[1].
تَعلَمُ السَمَاءُ أنّها كُتِبَتْ في أمرِ أبعَدَ مِن كُلِّ طَربُوشٍ، فَـوقَ كُـلِّ رَأسٍ،
فوقَ كُلِّ جُثَّةٍ مُختَلِجَةٍ.

***

(١) المجرَّة: منطقة في السماءِ قوامها نجوم كثيرة لا يميِّزها البصر فيراها كبُقعةٍ بيضاء. قيل لها ذلك لأنها كأثر المَجَرّ. والعامَّة تسميها «درب التبَّانة».



«ابن خلدون»

بريشة جبران خليل جبران

أيتها الأرض

مَا أَجمَلَكِ أيتُها الأرضُ ومَا أبهَاكِ!

ما أَتَمَّ امتِثَالَكِ للنُورِ وأَنبَلَ خُضُوعَكِ للشَمس!

ما أظرَفَكِ مُتَشِحَةً بالظِلِّ! وما أملَحَ وَجهَكِ مُقَنَّعًا بالدُجى!

ما أَعذَبَ أَغانِيَ فَجرِكِ! ومَا أَهوَلَ تَهالِيلَ مَسائِكِ!

ما أكمَلَكِ أَيَّتُها الأرضُ وما أَسنَاكِ!

لَقَد سِرتُ في سُهُولِكِ، وصَعَدْتُ على جِبَالِكِ، وهَبَطْتُ إلى أَودِيَتِكِ، وتَسلَّقْتُ صُخُورَكِ، ودَخَلْتُ كُهُوفَكِ، فعَرَفتُ حِلمَكِ في السَهلِ، وَأَنَفَتَكِ[1] على الجَبَلِ، وهُدُوءَكِ في الوَادي، وعَزمَكِ في الصَخرِ، وتُكَتُّمَكِ في الكَهف. فأنتِ المُنبَسِطَةُ بقُوَّتِها، المُتَعالِيَةُ بتَوَاضُعِها، المُنخَفِضَةُ بعُلُوِّها، اللَيِّنَةُ بصَلابَتِها، الوَاضِحَةُ بأسرَارِها ومَكنُوناتِها.

(١) حِلمك: صبرك وأناتك وسكونك؛ أَنَفَتُكِ: عِزَّة نفسك.

لقد رَكِبتُ بِحَارَكِ، وخُضتُ أنهارَكِ، وتتبَّعْتُ جَدَاوِلَكِ، فسَمِعتُ الأبديّةَ تتكلَّمُ بمَدِّكِ وجَزْرِكِ، والدهورَ تترَنَّمُ بينَ هِضَابكِ وحُزُونِكِ[1]، والحَياةَ تُناجي الحَياةَ في شُعَبِكِ[2] ومُنحَدَرَاتِكِ، فأنتِ أنتِ لِسانُ الأبديّةِ وشِفاهُها، وَأوتَارُ الدُّهُورِ وأصَابِعُها، وفِكرةُ الحَياةِ وبَيانُها.

لقد أيقَظَني رَبيعُكِ وسَيَّرني إلى غَابَاتِكِ حيثُ تتَصَاعَدُ أنفاسُكِ بَخُورًا، وأجلَسَني صَيفُكِ في حُقُولِكِ حيثُ يَتَجَوهَرُ إجهادُكِ[3] أثمارًا، وَأوقَفَني خريفُكِ في كُرومِكِ حيثُ يَسيلُ دَمُكِ خَمرًا، وقادَني شِتاؤكِ إلى مَضجَعِكِ حيثُ يَتَنَاثَرُ طُهْرُكِ ثَلجًا، فأنتِ أنتِ العَطِرَةُ برَبيعِها، الجَوَّادَةُ بصَيفِها، الفَيّاضَةُ بخَريفِها، النقيّةُ بشِتائِها.

وفي الليلةِ الصَافيةِ وقَد فَتحتُ نَوافِذَ نَفسِي وأبوابَها وخرجتُ إليكِ مُثقلاً بمَطامِعي، مُكَبَّلاً بقُيُودِ أنانِيَّتي، فألفَيْتُكِ شَاخِصَةً[4]

(١) حُزُون: مفردها حَزْن: ما غَلُظَ من الأرضِ، وقلَّما يكون إلا مرتفعًا. وقد يقصد الكاتب بها السهول.
(٢) شُعَب: مفردها شُعبَة: الطريق في الجبل.
(٣) إجهادُكِ: تعبك الشديد المرهق.
(٤) ألفيتُكِ: وجدتُكِ؛ شاخصة: اسم فاعل من شَخَصَ: فَتَحَ عينيه فلم يطرف.

بالكَواكِبِ وهي تَبتَسِمُ لكِ، فَنَزَعْتِ عنّي قُيودي وأثقَالي، وعلمتُ أن مَنزِلَ النَفسِ فَضاؤكِ، ورَغائِبَها في رَغائِبِكِ، وسَلامَتَها في سَلامَتِكِ، وسَعادَتَها في الغُبارِ الذَهَبيِّ الذي تَنشُرُهُ النُجُومُ على جَسَدِكِ.

في اللَيلةِ المُبطَّنَةِ بالغُيُومِ، وقَد مَلَلْتُ غَفلَتي وجُمُودي، خرجتُ إليكِ فوَجَدْتُكِ جَبّارةً هَائِلَةً مُسَلَّحَةً بالعَاصِفَةِ، تُحارِبِينَ مَاضِيكِ بحَاضِرِكِ، وتَصرَعِينَ قَديمَكِ بجَدِيدِكِ، وتُبَعْثِرِينَ ضَئيلَكِ بضَليعِكِ[1]، فعَلمتُ أنَّ نِظامَ البَشرِ نِظامُكِ، وناموسَهم ناموسُكِ، وَسُنَّتَهُم سُنَّتُكِ، وأنَّ من لا يَهصِرُ[2] برياحِهِ ما يَبِسَ من أغصَانِهِ يَموتُ مَلَلاً، ومَنْ لا يُمزِّقُ بثَورَاتِهِ ما بَلِيَ من أورَاقِهِ يَفْنَى خُمُولاً[3]، ومَنْ لا يُكَفِّنُ بنِسيانِ ما مَاتَ مِن مَاضِيهِ كانَ هُو كَفَنًا[4] لِمَآتي المَاضي.

***

مَا أَكرَمَكِ أيَّتُها الأرضُ! وما أطوَلَ أناتَكِ!

---

(١) ضئيلك: ضعفك؛ ضليعك: قويّك.

(٢) يهصر: أرادها الكاتب بمعنى يكسر. وهي في الأصل بمعنى: جَذَب وأمالَ.

(٣) خمولاً: كسلاً.

(٤) كفنًا: ما يُلَفُّ به الميت من قماشٍ أو نحوه.

ما أَشَدَّ حنانَكَ على أبنائِكِ المُنصرِفِينَ عن حَقيقَتِهم إلى أوهَامِهم، الضَائِعينَ بينَ ما بَلَغُوا إليه وما قَصَّرُوا عَنه!

نحنُ نَضِجُّ، وأنتِ تَضحَكِينَ.

نحنُ نُذْنِبُ، وأنت تُكَفِّرينَ.

نحن نُجدِّفُ، وأنتِ تُبارِكِينَ.

نحن نُنَجِّسُ، وأنتِ تُقدِّسِينَ.

نحن نَهجَعُ ولا نَحلُمُ، وأنتِ تَحلُمِينَ في سَهرِكِ السَرمَدِيِّ[1].

نحنُ نَكْلُمُ صَدَركِ بالسُيوفِ والرِماحِ، وأنتِ تَغمُرِينَ كُلُومَنا بالزَيتِ والبَلسَمِ[2].

نحنُ نزرعُ رَاحاتِكِ[3] العِظامَ والجَماجِمَ، وأنتِ تَستَنْبِتِينَها حَورًا وصَفصَافًا.

نحنُ نَستَودِعُكِ الجِيَفَ[4]، وأنتِ تَمْلَئِينَ بيادِرَنا بالأَغْمارِ،

(١) نهجع: ننام؛ السرمديّ: الذي لا انقطاع له.

(٢) نكلُمُ: نجرح؛ كلومنا: جروحنا؛ البلسم: مادَّة صُمغِيَّة تُضَمَّدُ بها الجراحات، وهو أيضًا سائل عطري. لفظة يونانية.

(٣) راحاتك: مفردها راحة: باطن اليد. استعملها جبران استعارةً للسهل.

(٤) الجِيَف: مفردها جيفة: جثة الميت المنتنة.

ومَعَاصِرَنا بالعَنَاقيدِ[1].

نحنُ نصبُغُ وجهَك بالدَمِ، وأنتِ تغسِلينَ وُجُوهَنا بالكَوثرِ[2].

نحن نَتَنَاولُ عَنَاصِرَكِ لنَصنَعَ مِنها المَدَافِعَ والقَذائِفَ، وأنتِ تتناولينَ عناصِرنَا وتُكوِّنِينَ منها الوُرُودَ والزَنابِقَ.

ما أوسَعَ صَبرَكِ أيّتُها الأرضُ! ومَا أكثَرَ انعِطَافَكِ!

ما أنتِ أيّتُها الأرضُ؟ ومَنْ أنتِ؟

أذرَّةٌ مِنَ الغُبارِ تصَاعَدَتْ مِن بينِ قَدَمَي الله عندَما سارَ من مَشارِقِ الأكوانِ إلى مَغَارِبِها، أم شرارةٌ قُذِفَتْ من مَوقِدِ اللانِهايَةِ؟

أنَواةٌ طُرِحَتْ في حَقلِ الأثيرِ لتشُقَّ قِشرَتَها بعَزم لُبابِها وتَتَعَالى نَصبَةً ربّانيّةً إلى ما فَوقَ الأثيرِ؟

أقَطرةٌ مِنَ الدَمِ في عرُوق جَبّارِ الجَبَابِرَةِ؟ أم أنتِ قطرةٌ مِنَ العَرَقِ على جَبينِهِ؟

أثَمَرَةٌ تُلَوِّحُها[3] الشمسُ ببُطءٍ؟ أثَمرةٌ أنتِ في شَجرةِ المَعرفةِ

(١) المعاصر والبيادر (راجع هامش ص ٧٨).
(٢) الكوثر: الماء العَذْب.
(٣) تلوِّحُها: تُنضِجُها.

الكُليّةِ التي تَمُدُّ عروقُها في أعماقِ الأزلِ وتَرفَعُ غُصُونَها إلى أعماقِ الأبدِ؟ أم جَوهَرةٌ أنتِ وضَعَها إله الزَمنِ في حَفنَةِ آلِهَةِ المَسافةِ؟ أطِفلةٌ أنتِ في حِضنِ الفَضاءِ؟ أم عَجُوزٌ تَرقُبُ الأيّامَ والليالِيَ وقد شَبِعَتْ من حِكمَةِ الليالي والأيّام؟

ما أنتِ أيّتُها الأرضُ؟ ومَنْ أنتِ؟

أنتِ أنا أيّتُها الأرضُ! أنتِ بَصَرِي وبَصِيرَتِي، أنتِ عاقِلَتي وخَيَالي وَأحلامِي، أنتِ جُوعي وعَطَشِي، أنتِ أَلَمِي وسُرُورِي، أنتِ غَفْلَتي وَانِتباهي.

أنتِ الجَمالُ في عَينَيَّ، والشَوقُ في قَلبي، والخُلودُ في رُوحي.

أنتِ أَنا أيتُها الأرضُ، فلو لم أكن لَما كُنتِ.

***

البحر الأعظم

بالأَمس – وما أَبعَدَ الأمسَ ومَا أَقرَبُه! ذهبتُ ونَفسِي إلى البَحرِ الأعظَمِ لِنَغسِلَ بمَائِهِ ما عَلِقَ بنا من غُبارِ الأرضِ وأوحَالِها.

ولمّا بَلَغنَا الشَاطِئَ طَفِقْنَا نَبحثُ عَن مكانٍ خَالٍ يَحجُبُنا عَنِ العُيُونِ.

وبينَما نحنُ سَائِرانِ التَفَتْنا فإذا برَجُلٍ جَالِسٍ عَلَى صَخرَةٍ غَبراءَ وفي يَدِهِ كيسٌ يأخُذُ منه المِلحَ قَبضَةً بعدَ قَبضةٍ ويطرَحُها في البَحرِ.

فقالَتْ لي نَفسي: هُوذَا المُتَشَائِمُ الذي لا يَرَى من الحَياةِ سِوى ظِلِّها. وليسَ المُتشَائِمُ بخَليقٍ أن يَرَى جَسَدَيْنا العَارِيَيْن، فَلْنُغَادِرْ هذا المَكانَ إذ لا سَبيلَ إلى الاستِحمَامِ هَهُنا.

فتَرَكْنا ذلكَ المَكانَ وتَابَعْنا المَسِيرَ حتَّى وَصَلْنا إلى خَورٍ[1] في الشَاطِئِ فإذا برَجُلٍ واقِفٍ عَلى صَخرةٍ بَيضَاءَ وفي يَدِهِ صُندُوقَةٌ مُرَصَّعَةٌ بالجَواهِرِ وَهو يتناوَلُ مِنها قِطَعًا من السُكَّر ويَرمي بها في البَحرِ.

---

(١) خَور: منخفض.

فقالَتْ لي نَفسِي: «هُوذَا المُتفائِلُ الـذي يَستَبـشِرُ بـما لا بُـشرَ فيـهِ، وحَذارِ من المُتفائِلينَ أن يَرَوْا جَسَدَينا العَارِيَيْنِ».

فعُدنا نُواصِلُ السَيرَ حتَّى عَثَرْنا عَلى رَجُلٍ واقِفٍ بقُربِ الـشَاطئ يَلتَقِطُ الأسماكَ الميِّتَةَ ويُعيدُها بِحُنُوٍّ إلى البَحر.

فقالت لي نَفسِي: «وهذا هو الشَفُوقُ الذي يُحـاوِلُ إرجَـاعَ الحَيـاةِ لمَنْ في القُبُورِ، فَلْنَبْتَعِدْ عنه».

ثمّ انتَهينا إلى حيثُ رَأَينا رَجُلاً يرسُمُ خَيالَهُ عـلى الرِمَـالِ فتَجِـيءُ الأمواجُ وتَمحُو ما رَسَمَهُ وهو يُتَابعُ عَمَلَهُ المَرّةَ بعدَ الأُخرَى.

فقَالت لي نَفسِي: «هُوذَا المُتَـصَوِّفُ الـذي يُقِـيمُ في أَوهامِـهِ صَـنَمًا ليَعبُدَه، فَلْنَدَعْهُ وَشَأنَهُ».

ومَشينَا إلى أَن أَبصَرْنَا في خَليجٍ هَادِئ رَجُلاً يَكـشِطُ الزَبَـدَ[1] عَـن سَطحِ المَاءِ ويَضَعُه في إناءٍ مِنَ العَقِيقِ.

فقَالت لي نَفسِي: «هُوذَا الخَياليُّ الذي يَحُوكُ من خُيوطِ العَنكَبُـوتِ رِدَاءً ليَلبِسَه. وهو ليسَ بجديرٍ أنْ يَرى جَسَدَيْنا عارِيَيْنِ».

---

(١) يكشِطُ الزَبَدَ: ينزعه، يفصله.

فتَابَعْنا السَيرَ وإذا بنا نَسمَعُ صَوتًا هاتِفًا: «هـوذا البحـرُ العَمِيـقُ، هُوذَا البَحرُ الهَائِل العَظِيمُ».

فبَحَثْنا عن مَصدَرِ الصَوتِ فرَأَيْنا رَجُـلاً وَاقِفًـا مُـدِيرًا ظَهـرَه إلى البَحرِ وَقد وَضَعَ صَدفَةً على أُذُنِهِ وهو يُصغِي إلى دَمدَمَتِها.

فقالت لي نَفسِي: «سِرْ بنا فهذا هُوَ الدَهرِيُّ[1] الذي يُدير ظهـرَه إلى كُلِّيَّاتٍ لا يَستَطِيعُ الإحَاطَةَ بِها ويُشغِلُ ذاتَه بجُزئِيَّاتٍ تَستَمِيلُ كُلِّيَّتَهُ».

فَسِرنا إلى أن رأَيْنا في مَعشَبَةٍ رَجُلاً بينَ الصُخُور وقد دَفَـنَ رأسَـه في الرِمَالِ.

فقلتُ لنفسي: «هَلُمِّي يا نَفسِ نَستَحِمَّ هَـا هُنـا. فهـذا الرجُـلُ لا يَستَطِيع أن يُبصِرَنا».

فهَزَّتْ نفسِي رأسَها قائِلَةً:

«لا وألفِ لا؛ إنَّ مَنْ تَراهُ هُوَ شَرُّ النَاسِ أَجمَعِهم؛ هُو التَقِيُّ النَقِـيُّ الذي يَحجُبُ نفسَه عن مأسـاةِ الحَيـاةِ فتحجُـبُ الحيـاةُ مَـسَرَّاتِها عـن نَفسِه».

---

(١) الدهريّ: الملحد القائل إن العالم موجود أزلاً وأبدًا لا صانع له.

حِينَئِذٍ ظَهَرَ عَلى وَجهِ نفسِي حُزنٌ عَمِيقٌ. وبصَوتٍ تَقطَعُهُ المَرارَةُ قالت:

«لِنَذْهَبَنَّ مِن هذهِ الشَواطئ. فليسَ هُنا مكانٌ خَفِيٌّ مَحجُوبٌ نَستَطِيعُ أن نَستَحِمَّ به. وأنا لن أرضَى أن أُسَرِّحَ غدَائِري[1] الذَهبِيَّةَ في هذهِ الريحِ، أو أن أَكشِفَ صَدريَ البَضَّ[2] أمامَ هذا الفَضاءِ، أو أن أتجرَّدَ وَأقِفَ عَارِيَةً أمامَ هذا النُورِ.

فغادرتُ ونفسِي ذلكَ البَحرَ العَظِيم، وسِرنا نَنشُدُ[3] البحرَ الأعظمَ.

***

(١) غدائري: جمع غديرة وهي المضفور من شعر النساء.
(٢) البضّ: الرقيق الجلد، الناعم، الممتلئ.
(٣) نَنشُدُ: نطلبُ.

في سنة لم تكن قطُّ في التاريخ

... في تلكَ الدَقيقةِ ظهَرَتْ مِن وَراءِ أشجَارِ الصَفصَافِ صَبيَّةٌ تَجُرُّ أذيالَهَا عَلى الأعشَابِ، ووَقَفَتْ بجَانِبِ الفَتى النَائِم ووَضَعَتْ يَدَها الحَريريَّةَ على رَأسِهِ، فنَظَرَ إليها نِظرَةَ نَائِم أيقَظَهُ شُعاعُ الشَمسِ. فرَأى ابنةَ الأميرِ وَاقِفَةً حِذاءَه فجثَا[1] على رُكبَتَيْهِ مثلَما فَعَلَ مُوسى عندَما رأى العُلَّيقَةَ مُشتَعِلَةً[2]، ولما أرادَ الكَلامَ أُرتِجَ عَليه[3] فنابَتْ عيناه الطافِحَتانِ بالدَمعِ عَن لِسَانِهِ.

ثمّ عانَقَتْهُ الصَبِيَّةُ وقَبَّلَتْ شَفتَيْهِ، وقبّلَتْ عَينَيهِ راشِفَةً المَدامِعَ السخينةَ[4] وقالت بصَوتٍ أَلطَفَ من نَغمَةِ النَاي:

---

(١) حذاءه: قُبالته؛ فجثا: فركع.

(٢) مُوسَى: (القرن ١٣ ق.م.): أشهر رجال التوارة ومن أكبر مشترعي البشريّة. من سبط لاوي. وُلد في مصر وأنقذته ابنة فِرعَون من المياه فتربّى في قصر أبيها. بدأ رسالته في سنّ الأربعين بعد أن لجأ إلى برّية سينا فأرسله الربّ لينقذ بني إسرائيل من مظالم فرعون. فجاز معهم برّية سينا مدّة أربعين سنة. تلقّى من الربّ على جبل حوريب «الوصايا العشر» فسلّمهم إيّاها وسنّ لهم الشرائع الأدبيّة والكهنوتيّة والاجتماعيّة فكانت دستورهم الدينيّ المدنيّ. لهذا يُعتبر مُوسى المُؤسّس والمُخلّص والمُشترع. لُقّب بـ «كليم الله». مات ولم يدخل أرض الميعاد. أما قصة العلّيقة المشتعلة فواردة في التوارة سفر الخروج ٣:١-٦.

(٣) أُرتج عليه: امتنع عليه الكلام.

(٤) المدامع: جمع مدمع: مجرى الدمع؛ السخينة: الحارة.

«الجائعة المستعطية»

بريشة جبران خليل جبران

قد رأيتُك، يا حَبيبي، في أَحلامي ونظرتُ وَجهَك في وَحدَتي وانقِطاعي، فأنتَ رَفيقُ نفسِي الذي فَقَدْتُهُ، ونِصفِي الجَميلُ الذي انفَصَلْتُ عنه عندَما حُكم عَليّ بالمَجِيءِ إلى هذا العَالَم. قد جئتُ سِرًّا يا حَبيبي لألتَقِيَكَ. وها أنتَ الآنَ بَينَ ذِراعَيَّ فلا تَجْزَعْ. قد تركتُ مَجدَ وَالِدي لأتبَعَكَ إلى أقاصِي الأرضِ وأشرَبَ مَعَكَ كأسَ الحَياةِ والمَوتِ.

قُم، يا حبيبي، فنَذهَبَ إلى البرّيّةِ البَعيدةِ عنِ الإنسانِ.

ومشَى الحَبيبانِ بينَ الأشجار تَخفِيهما سَتائِرُ اللَيلِ ولا يُخِيفُهُما بطشُ الأميرِ ولا أشبَاحُ الظُلمَةِ[1].

***

(١) إنها نهاية قصة وردت في «دمعة وابتسامة» تحت عنوان «حكاية».

ابن سينا[1] وقصيدته

ليسَ بَينَ ما نَظَمَهُ الأقدَمُونَ قَصيدةٌ أدنَى إلى مُعتَقَدي وأقربُ إلى مُيُولي النَفسِيّةِ من قصيدة ابن سينا في النَفْسِ.

في هذه القَصيدةِ النَبيلةِ قَد وَضَعَ «الشَيخُ الرئيس» أبعدَ ما يُراوِدُ فِكرَةَ الإنسانِ، وأَعمَقَ ما يُلازِمُ خَيالَهُ من الأمَانِي التي تُوَلِّدُها المَعرفةُ، والسُؤالاتِ وليسَ من الغَرائِبِ صُدُورُ هذهِ القَصيدةِ عن وِجدانِ ابنِ سِينَا وهو نَابِغَةُ زَمَانِهِ. ولكِنْ، مِن الغَرائبِ أن تكونَ مَظهرًا لرجُلٍ صَرَفَ عُمرَهُ مُستَقِصيًا أسرارَ الأجسامِ ومَزَايا الهَيُولَى. فكأنّي بِهِ قَد بَلَغَ خَفَايَا الرُوحِ عنَ طَريقِ المَادَّةِ وأَدرَكَ مَكنُوناتِ المَعقُولاتِ بواسِطةِ المَرئِيَّاتِ، فجاءَتْ قَصِيدُتُه هذه بُرهانًا نَيّرًا[2] على

---

(١) ابن سينا (أبو علي) Avicenne (٩٨٠ - ١٠٣٧م): عُرِف «بالشيخ الرئيس». من كبار فلاسفة العرب وأطبائهم. تعمّق في درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضًا بالأفلاطونية المستحدثة. له ميول صوفية عميقة برزت في كتابه «الحكمة المشرقية». لا يزال قسم من تآليفه مخطوطًا. له في النفس القصيدة المشهورة ومطلعها:

هبطَتْ إليكَ من المحلِّ الأرفَعِ
ورقاءُ ذات تعـزُّز وتمنُّعِ

(٢) نيّرا: ساطعًا.

أنَّ العِلمَ هُو حَياةُ العَقلِ يتَدَرَّجُ بصَاحِبِهِ مِنَ الاختبـاراتِ العَمَليَّـةِ إلى النَظرِيَّاتِ العَقلِيَّةِ، إلى الشُعُورِ الرُوحي، إلى الله.

قد يَجِدُ المُطالِعُ في ما نَظَمَه كِبَارُ شُـعَراءِ الغَـربيِّينَ مَقـاطِعَ مُتَفَرِّقَـةً تُذَكِّرُهُ بهذِه القَصيدةِ السَامِيَةِ. ففي رِوايات شِكسبير[1] الخَالِـدَةِ أبيـاتٌ لا تَختَلِفُ بمَعَانِيها عن قَول ابنِ سينا:

وَصَلـتْ على كُرْهٍ إليـكِ ورُبّما
كَرِهتْ فِرَاقَك وَهيَ ذاتُ تَفَجُّعِ

وفي أقوالِ تشلي[2] ما يُماثِلُ:

سَجعتْ وقد كُشِفَ الغطاءُ فأبصَرَتْ
ما لَيس يُـدرَكُ بالعُيـونِ الهُجَّـعِ[3]

---

(١) شكسبير Shakespeare (١٥٦٤-١٦١٦م): شاعر مسرحي انكليزي في مصاف رجال الأدب العالمي. يُعتبر مثار فخر واعتزاز للإنكليز. امتاز بتحليله عواطف القلب البشري من حب وبغض. من مؤلفاته: «هملت»، «عُطيل»، «مكبث»، «الملك لير»، «روميو وجوليات»، «تاجر البندقية» وغيرها... ترجم بعضها خليل مطران، إلى العربية شعرًا.

(٢) تشلي، أو شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢م): شاعر انكليزي. من أهم شعراء المدرسة الرومنسية. كان أبلغ مَن دافع عن الحرية. كان دائم البحث عن الحقائق الكامنة وراء المرئيات العادية. خصب الخيال، يجد في الحب والحرية بلسمًا لشرور الدنيا.. عميق الإيمان بمستقبل البشرية.

(٣) العيون الهُجَّع: العيون النائمة.



«ابن سينا»

بريشة جبران خليل جبران

وفي تَأمُّلاتِ غُوتي[1] ما يُضارِعُ:

وتَعـودُ عَـالِمَةً بكُـلّ خَفِيَّةٍ
في العالَمِينَ، فَخِرْقها لم يُرْقَعِ

وفي ما قاله براونج[2] ما يضاهي:

فكأنّها بَرْقٌ تألّقَ بالحِمى
ثمّ انطوىَ فكأنّهُ لم يَلمَعِ

ولكنَّ «الشيخَ الرئيسَ» قد تَقَـدَّمَ جميـعَ هَـؤلاءِ بقُـرونٍ عديـدةٍ. فوَضَعَ في قَصيدةٍ وَاحِدَةٍ ما هَبَطَ بصُوَرٍ مُتَقَطِّعَةٍ على أفكـارٍ مُختَلفـةٍ في أَزمِنَةٍ مُختَلفةٍ. وهذا ما يجعَلُـه نابِغـةً لعَـصرِهِ وللعِـصُورِ التـي جَـاءَتْ بَعدَه، ويَجعَـلُ قَـصيدَتَهُ في الـنفسِ أبعـدَ وأشرفَ مـا نُظِـمَ في أشرَفِ وأبعدِ مَوضُوع.

***

(١) غوته Goethe (١٧٤٩- ١٨٣٢م): من مشاهير الكتّاب الألمان. رومنسيُّ الاتجاه مطبوع بـالألم والتأمل. له «فوست»، «هرمان ودوروته» و«آلام فرتر».

(٢) براونغ، روبرت Robert Browning (١٨١٢- ١٨٨٩م): شاعر انكليزي رومنسي. كـان لـه شهرة كبيرة وتأثير واسع في العهد الفكتوري (Lepoque victorienne).

الغـــــزالي

بين الغَـزَاليّ[1] والقِـدِّيس أُوغُوسـطِينُوس[2] رابِطـةٌ نَفسِيَّةٌ، فهُـما مُنظَّرَانِ مُتَشَابِهَانِ لَمبدأ وَاحِدٍ، رُغـمَ مـا بـينَ زَمـانَيْهِما ومُحِيطَـيْهِما مـن الاختلافاتِ المَذهَبيّةِ والاجتِماعِيَّة. أمّا ذلك المَبدأ فهوَ مَيلٌ وَضـعِيٌّ في داخِلِ النَفسِ يَتَدرَّجُ بصَاحِبِهِ منَ المَرئيَّاتِ وظَوَاهِرِهـا إلى المَعقُـولاتِ فالفَلسَفَةِ فالإِلهِيّاتِ.

اعتزَلَ الغزَالي الدُنيا ومَا كانَ له فيها مِنَ الرَخـاءِ والمَقـامِ الرَفيـعِ، وانفَرَدَ وَحدَه مُتَصَوِّفًا[3]، مُتَوَغِّلاً في البَحثِ عن تلكَ الخُيُوط الدَقيقَـةِ

(١) الغزالي (أبو حامد محمد. توفي ٥٠٥هـ/ ١١١١م) متكلِّم. لُقِّب بـ(حجة الإسـلام). نـشأ أولاً نشأة صوفية ثم انصرف إلى دراسة الفقه والكلام والفلسفة. علَّـم في المدرسـة النظاميـة ببغـداد وكتب «تهافت الفلاسفة» وفيه كفّر الفلاسفة أو بدَّعهم. ثم مـرَّ بمرحلـة مـن الـشكّ قادتـه إلى الصوفية، فترك التدريس وتبع طريق الصوفية. له «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال».

(٢) أوغوسطينوس (٣٥٤- ٤٣٠م): قديس من آباء الكنيـسة المـشهورين. عـاش شـبابًا مـضطربًا وارتدَّ بفضل مواعظ القديس امبروسيوس. لاهوتي وفيلسوف وكاتب كبير. حاول التوفيق بين العقل والإيمان. من آثاره: «الاعترافات»، «مدينة الله»، النعمة»...

(٣) التصوُّف: لغة مصدر مشتق من فعل «تصوَّف»، أي لَبِسَ الصُوفَ، كما يقال: «تقمَّص» إذا لَبِسَ القميصَ. واصطلاحًا هو منزع علمي وعملي نَزَعَتْ إليه الحيـاة الروحيـة الإسـلامية منـذُ أول نشأتها التاريخية. فالتصوُّف بهذا المعنى هو مرآة هذه الحياة الروحية الإسلامية التي يُخْضِعُ فيهـا الإنسانُ نفسَه لألوانٍ من الرياضة والمجاهدة، ويُعِدُّ فيها قلبَـه لمعرفـة الحقـائق عـن طـريق =

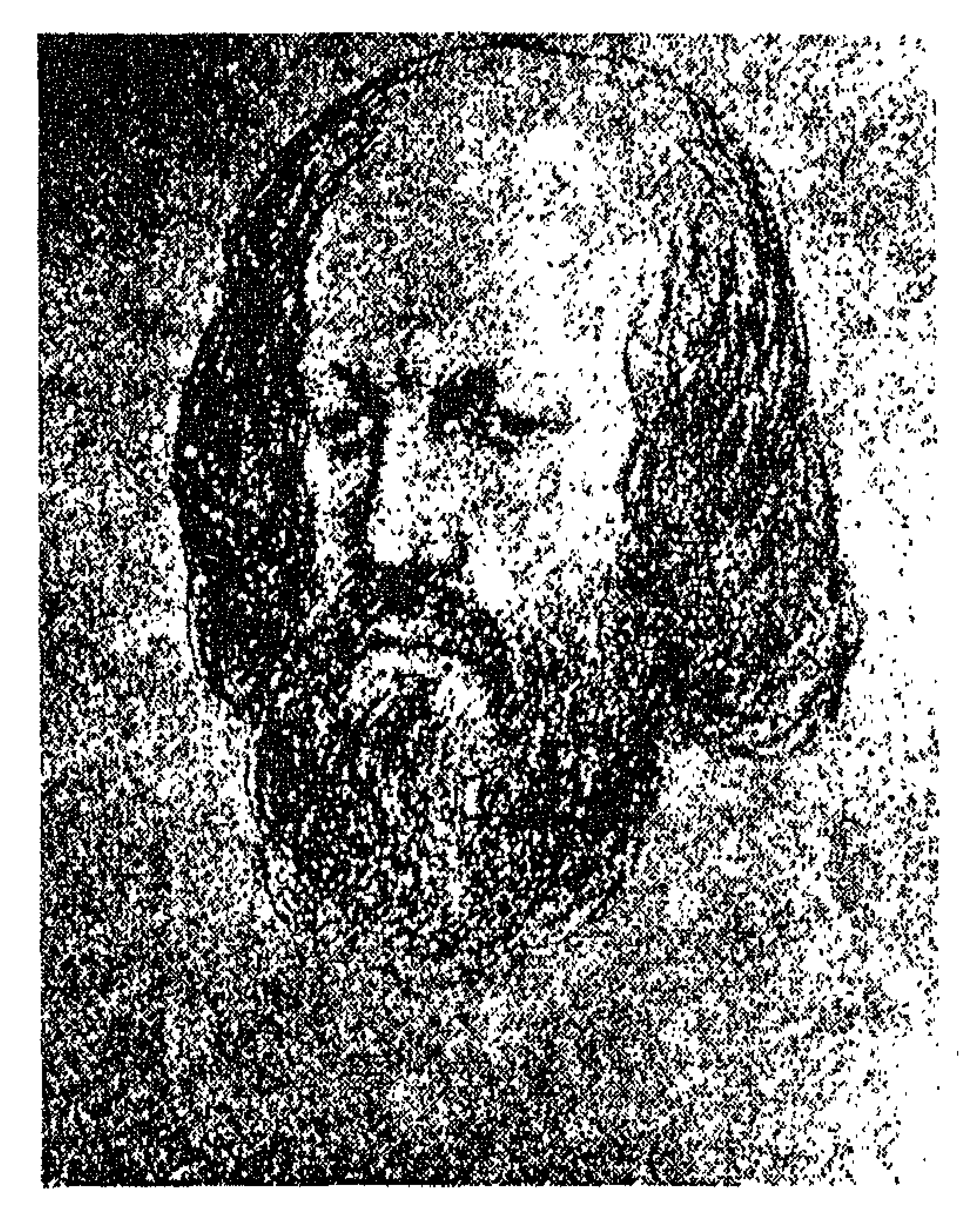
التي تَصِلَ أَوَاخِرَ العِلمِ بأوَائِلِ الدِينَ، مُتَعَمِّقًا في التَفتِيشِ عن ذلكِ الإناءِ الخَفِيِّ الذي تَمتَزِجُ فيه مَدارِكُ النَاسِ واختِباراتُهم بعَواطِفِ النَاس وَأحلامِهم.

وهكَذا فَعَلَ أُوغُوسطينُوس قَبلَه بخَمسَةِ أجيَالٍ. فمن يَقرأ له كِتَابَ «الاعتراف»[1] يَرى أنّه قَدِ اتَّخَذَ الأرضَ ومَآتيها سُلَّمًا يَصعَدُ نَحوَ ضَميرِ الوُجُودِ الأعلى.

غَيرَ أَنّني وَجَدْتُ الغَزالي أقربَ إلى جَواهِرِ الأُمورِ وَأسرارِها من القِدِّيس أُوغُوسطينُوس. وقَد يكونُ سببُ ذلكَ في الفرقِ الكائنِ بينَ

= الكشف والمشاهدة، والتي تقوم أولاً على ما اقتدىٰ فيه المسلمون الأولون بالنبي ﷺ من زهد ونسك وتقوى، ممَّا يُرَدُّ إلى مصدره في تحنُّث النبي ﷺ في غار حراء قبل البعثة، وفيما كان يعكف عليه ويأخذ به نفسه من عبادة بعد البعثة وإبانها. ولكنَّ هذه الحياة ما لبثت، بحُكم اتِّصال العرب المسلمين بغيرهم من الأمم ذوات الحضارات، أن اختلطَتْ بها عناصرُ دينية وفلسفية، استحال معها التصوُّف الذي يمثِّل الحياةَ الروحيةَ الإسلاميةَ إلى عِلمٍ لبواطن القلوب، ثم إلى فلسفة روحية، بعد أن كان أول عهده تصفيةً للنفوس وتطهيرًا للقلوب. أي إن التصوف الإسلامي قد انطوى في تطوّره على عناصر نظرية وعملية وروحية، تكشف دراستها عن قواعده في السلوك، ومبادئه في الأخلاق، ومناهجه في تذوُّق الحقائق ومعرفة الدقائق، ولا سيما ما كان مُتَّصلاً بمعرفة الحقيقة العليَّة أو الذات الإلهيَّة، التي يَعُدُّها الصوفية المتفلسفون المنبعَ الفيَّاضَ لكلِّ ما يتجلَّى في الكون من آيات الحق والخير والجمال (الموسوعة العربية الميسَّرة).

(١) اسم الكتاب الصحيح هو «الاعترافات».



«الغـــــزالي»

بريشة جبران خليل جبران

ما وَرِثَهُ الأوّلُ مِنَ النَظريّاتِ العِلميّةِ العَربيّةِ واليُونانيّةِ التي تَقدَّمَتْ زَمانَهُ، وما وَرِثَهُ الثاني من عِلمِ اللاهوتِ الذي كان يُشغِلُ آباءَ الكنيسةِ في القَرنَيْنِ الثاني والثالثِ للمَسيح، وأعني بالوراثةِ ذلكَ الأمرَ الذي ينتقِلُ مَعَ الأيّامِ من فِكرٍ إلى فِكرٍ مثلما تُلازِمَ بعضُ المَزايا الجسديّةُ مظاهرَ الشعوبِ من عَصرٍ إلى عصرٍ.

ووَجدتُ في الغَزالي ما يَجعَلُهُ حَلْقَةً ذَهبيةً مُوصِّلةً بين الذين تَقَدَّمُوه من مُتَصَوِّفي الهِند والذين جَاؤوا بَعدَه من الإلهيّين[1]. ففي ما بلغَتْ إليه أفكارُ البُوذِيينَ[2] قديمًا شيءٌ من مُيُول الغَزالي، وفي ما كتبه سبينوزا[3] ووليم بلايك[4] حَدِيثًا شَيءٌ من عَوَاطِفِهِ.

---

(١) الإلهيّون: معتنقو مذهب يسلّم بوجود الله خالق الكون ويرفضون كل عبادة خارجية وكل وحي إلهيّ.

(٢) البوذيُّون: معتنقو ديانة أسسها بوذا (حوالى ٥٦٦ - ٤٨٦ ق.م). وبوذا هو من حكماء الهند. كان اسمه سدّهارتا غواتاما. ولُقب بـ (بوذا) أي المنوَّر. والبوذية هي أقرب إلى فلسفة في الحياة منها إلى الدين إذ لا تؤمن بإله. ركنُها التجرُّد والزهد تخلُّصًا من الشهوات والألم وطريقًا إلى الفناء التامّ (نيرفانا). تبّاعها منتشرون في النبيال والصين والهند الصينية وكوريا والتبت واليابان.

(٣) سبينوزا Spinoza (١٦٣٢ - ١٦٧٧م): فيلسوف هولندي. امتاز باستقامة أخلاقه وخطّ لنفسه نهجًا فلسفيًا يؤدي إلى الحلولية الفكرية.

(٤) وليم بلايك (١٧٥٧ - ١٨٢٧م): شاعر ورسام انكليزي كان خير من مثّل الجيل الرومنسي الأول.

وَللغَزالي عند مُستَشرِقي الغَربِ وعُلَمائِهِ مَنزِلةٌ رَفيعةٌ. وهُم يضعُونَه مع ابنِ سِينا وابن رشُد(1) في المَقام الأولِ بين فَلاسِفَةِ الشَرق. أمّا الرُوحِيُّونَ بينَهُم فيَحسَبُونَهُ أنبلَ وأسمَى فِكرةٍ ظهَرَتْ في الإسلامِ. ومن الغَرائِبِ أنّني شَاهدتُ على جُدرانِ كَنيسَةٍ في فلُورَنسا (إيطاليا) من بِناءِ الجِيلِ الخَامِسَ عَشَرَ صُورة الغَزالي بينَ صور غَيرِهِ مِنَ الفَلاسِفَةِ والقِدّيسِينَ واللاهُوتيّينَ الذين تَعتَبِرُهُم أَئِمَّةُ الكنيسةِ في الأجيالِ الوُسطى دَعائِمَ وَأعمِدَةً في هَيكلِ الرُوح المُطلَقِ.

ولكنَّ الأغربَ من ذلك هو أن الغَربيّينَ يَعرِفُونَ عَنِ الغزالي أكثَرَ مِمّا يعرِفُهُ الشَرقيُّون. فهم يُترجِمُونَهُ ويَبحَثُون في تَعَالِيمِه ويُدقِّقُون النَظَرَ في مَنَازِعِهِ الفَلسفيّةِ ومَراميه الصُوفيةِ. أمّا نحنُ، نحنُ الذينَ لم نَزَلْ نتكلّمُ اللغةَ العربيّةَ ونكتبُها، فقلّما ذَكرنا الغزالي أو تحدّثنا عنه. نحنُ لم نَزَلْ مَشغُولينَ بالأصدافِ كأنَّ الأصدافَ هِيَ كُلُّ ما يَخرُجُ مِن بَحرِ الحَياةِ إلى شَواطِئ الأيّامِ والليالي.

(1) ابن سينا: راجع المقال السابق ص١١.

ابن رشد Averroes (١١٢٦ – ١١٩٨م) هو أبو الوليد محمد بن أحمد. فيلسوف عربي. درس الكلام والفقه والشعر والطب والرياضيات والفلك والفلسفة. سمّاه الغرب «الشارح» نظرًا إلى شروحه الكثيرة والممتازة لأرسطو. حاول التوفيق بين الشريعة والفلسفة، كما دافع عن الفلسفة ضد الغزالي في كتابه «تهافت التهافت».

جرجي زيدان[1]

لقد ماتَ زيدانُ. ومَمَاتُ زَيدان عَظيمٌ كحَياتِهِ، جَلِيلٌ كأعمَاله.

لقد رَقَدَتْ تلكَ الفِكرةُ الكَبيرةُ وحَول مَضجَعِها تَحُومُ الآنَ سَكينةٌ توحِي الهيبةَ والوَقارَ وتَرتَفِعُ عن الحُزنِ والبُكاءِ.

قد تَمَلَّصَتْ تلك الروحُ الطيّبةُ ورحَلَتْ إلى عَالَمٍ نشعُرُ به ولا نُدرِكُه، وفي رَحيلِها عِظَةٌ للبَاقِينَ في قبضةِ الأيَّامِ واللَّيالِي.

قد تَحَرَّرَ ذلكَ الوجدانُ النَبيلُ من مَتَاعِبِ العَمَلِ ومَشاقِّهِ وسَارَ مُلْتَفًّا بِرداءِ مَجدِهِ إلى حيثُ يتَسامَى العملُ عن المَشَاقِّ والمَتاعِبِ. قد ذهبَ زَيدان إلى حيثُ لا تَراهُ العَينُ ولا تَسمَعُهُ الأُذُنُ.

ولكنْ، إذا كانَ زَيدان قدِ انتَقَلَ إلى إحدى السَيَّارتِ السَابِحَةِ في بَحرِ اللانهايةِ، فَهو الآنَ مَشغولٌ بنَفْعِ سُكَّانها، مُنهَمِكٌ بجَمْعِ مَعَارِفِها، مأخوذٌ بجَمَالِ تاريخِها، مُنْصَبٌّ على دَرْسِ لُغَاتِها.

---

(١) جرجي زيدان: (١٨٦١ - ١٩١٤م): أديب ومؤرخ لبناني. وُلد وتعلَّم في بيروت وتوفِّي في القاهرة. من رجال النهضة. أسس في القاهرة مجلة الهلال ١٨٩٢م فنشر فيها المقالات التاريخية واللغوية والروائية. مؤسس دار الهلال للطباعة والنشر. أهم مؤلفاته: «تاريخ التمدُّن الإسلامي»، «تاريخ آداب اللغة العربية»، «تراجم مشاهير الشرق»، «روايات تاريخ الإسلام».



«بركـــة الـــدم»

بريشة جبران خليل جبران

هذا هُو زَيدان: فِكرَةٌ مُتَحَمِّسَةٌ لا ترتاحُ إلاَّ إلى العَمل، وروحٌ ظامِئَةٌ لا تنام إلاَّ على مَنكِبَي اليقَظةِ، وقلبٌ كبيرٌ مُفعَمٌ بالرِقَّةِ والغَيرة. فإذا كانَتْ تلكَ الفكرةُ لا تزالُ كائنةً بكِيانِ العَقلِ العَامِّ فهي تَشتَغِلُ الآنَ مَعَ العَقلِ العَامّ. وإذا كانَتْ تلكَ الروحُ مَوجُودَةً بوُجُودِ النَوامِيس فهي تَعملُ الآنَ مع النَوامِيس. وإذا كانَ ذلكَ القلبُ باقِيًا ببَقَاءِ الله فهو الآنَ مُلتَهِبٌ بشُعلةِ الله.

هذه هِي حَياةُ زَيدان: يَنبُوعٌ تَدفَّقَ مِن صَدرِ الوُجودِ وصَار نَهرًا صَافِيًا يَروي ما على جَانِبَي الوَادي من النَباتِ والأنصَابِ.

وهَا قَد بَلَغَ النهرُ شَاطِئَ البَحرِ فَأيُّ مُتَطَفِّلٍ، يا تُرى، يَجسُرُ أن يَندُبَهُ أو يَرثِيَهُ؟ أوَليسِ النَدبُ والنُواحُ خَليقَيْنِ بالذينَ يَقِفُونَ أمامَ عَرشِ الحَياةِ ثمّ يَنصَرِفُونَ قَبل أن يَسكُبُوا في راحَتَيْها قَطرَةً من عَرقِ جَبِينهم أو دَمِ قُلوبِهم؟ أوَلم يَصرِفْ زيدان ثَلاثينَ سَنةً مُذيبًا قلبَه مُستَقطِرًا جَبينَه؟ وهل بَينَنا مَنْ لم يَسْتَقِ من تلكَ المَجَاري البلورِيَّةِ العَذْبَةِ؟

إذًا فمَنْ شَاءَ أن يُكرِمَ زَيدان فَلْيَرْفَعْ نَحو رُوحِهِ ترنيمةَ الشُكرِ وعُرفانِ الجَميلِ بَدلاً مِن نُدباتِ الحُزنِ والأَسَى.

مَنْ شاء أن يُكرِمَ ذِكرَ زَيدان فَلْيَطْلُبْ قِسمَتَهُ مِن خَزَائِنِ المَعـارِفِ والمَدارِكِ التي جَمَعها زَيدان وتَرَكَها إرثًا للعَالَمِ العَربي.

لا تُعطُوا الرجلَ الكبيرَ بل خُذُوا منه، وهكذا تُكرِمُونَه.

لا تُعطُوا زيدان نَـدبًا ورِثـاءً، بـل خُـذُوا مـن مَوَاهِبِـهِ وعَطايـاه، وهكذا تُخَلِّدُونَ ذِكرَه.

***

مستقبل اللغة العربية

أولاً: ما هو مستقبل اللغة العربية؟

إنّما اللغةُ مَظهرٌ من مَظاهِرِ الابتِكارِ في مجْمُوعِ الأُمَّةِ، أو ذاتِها العَامَّةِ، فإذا هَجَعَتْ قُوّةُ الابتِكارِ تَوَقَّفَتِ اللُّغَةُ عن مَسيرِها، وفي الوُقوفِ التَقَهْقُرُ، وفي التقهقرِ الموتُ والاندِثارُ.

إذًا فمُستقبَلُ اللُغةِ العَربيّةِ يَتَوَقَّفُ على مُستقبلِ الفِكرِ المُبدعِ الكَائِنِ - أو غَيرِ الكَائنِ - في مُجموعِ الأُمَمِ التي تتكَلَّمُ اللُغةَ العَربيّةَ. فإنْ كانَ ذلكَ الفكرُ مَوجُودًا كانَ مُستقبَلُ اللُغةِ عَظيمًا كَماضِيها، وإنْ كانَ غيرَ مَوجُودٍ فمُستقبَلُها سَيكونُ كحَاضِرِ شَقيقَتِها السِريانيّةِ والعِبرانيّةِ.

وما هذه القوّةُ التي نَدعُوها بقُوّةِ الابتِكار؟

هِيَ في الأُمّةِ عَزمٌ دَافِعٌ إلى الأَمَامِ. هِي في قَلبِها جُوعٌ وعَطَشٌ وشَوقٌ إلى غَيرِ المَعرُوفِ، وفي رُوحِها سِلسِلَةُ أحلامٍ تَسعَى إلى تَحقِيقِها لَيلاً ونَهارًا، ولكنّها لا تُحقِّقُ حَلْقَةً مِن أحَدِ طَرَفَيْها إلاّ أضَافَتِ الحياةُ حَلْقَةً جَديدَةً في الطَرْفِ الآخرِ. وهِي في الأفرادِ النُبوغُ

وفي الجَماعَةِ الحَماسَةُ، وما النُبوغُ في الأفرادِ سِوى المَقدرَةِ على وَضْعِ مُيُولِ الجَماعَةِ الخَفِيَّةِ في أشكَالٍ ظاهِرةٍ مَحسُوسَة. ففي الجَاهِلِيَّةِ[1] كانَ الشاعِرُ يتأهَّبُ لأنَّ العَرَبَ كانوا في حَالَةِ التَأهُّبِ، وكان يَنمُو ويَتَمَدَّدُ أيّامَ المُخَضْرَمِينَ[2] لأن العربَ كانوا في حَالِة النُمُوِّ والتَمَدُّدِ، وكانَ يَتَشَعَّبُ أيّامَ المُولَّدِينَ[3] لأنَّ الأُمَّةَ الإسلاميّةَ كانَت في حَالةِ التَشَعُّب. وظَلَّ الشَاعِرُ يتدرّجُ ويتصَاعَدُ ويتلوّنُ فيظهرُ آنًا كفَيلسُوفٍ، وآوِنَةً كطَبيبٍ، وأُخرَى كفلَكيٍّ، حتَّى رَاوَدَ النُعاسُ[4] قوّةَ الابتِكارِ في اللُغةِ العَربيّةِ فنامَتْ، وبنَومِها تَحوَّلَ الشُعراءُ إلى نَاظِمِينَ، والفلاسِفَةُ إلى كلامِيّينَ[5]، والأطبّاءُ إلى دَجَّالِينَ، والفَلَكِيُّون إلى مُنَجِّمِين.

إذا صَحَّ ما تقدَّمَ كان مُستقبَلُ اللُغَةِ العَربيّةِ رَهْنَ قُوَّةِ الابتِكار في مَجمُوع الأُمَمِ التي تَتَكَلَّمُها، فإن كانَ لِتِلكَ الأُمَمِ ذاتٌ خَاصَّةٌ أو

---

(١) الجاهلية: هي العصور التي سبقت مجيء الإسلام.

(٢) المخضرم: مَنْ عايش الجاهلية والإسلام. وتطلق على كلِّ مَنْ عاصر عهدين أو جيلين.

(٣) أيام المولّدين: أي في العصور العباسية التي حصل خلالها التفاعل بين العقل العربي والحضارة الأعجمية وراح الشعر يستمدّ من الحضارة الجديدة كثيرًا من معانيه. فهذا الجيل الذي أفاد من الحياة الجديدة وابتكر معاني جديدة وأساليب جديدة، سُمِّي بجيل «المولّدين».

(٤) راوَدَ النعاسُ قوة الابتكار: بمعنى ضَعُفَتْ ووَهَنَتْ.

(٥) كلاميين: علماء الكلام.

وَحدَةٌ مَعنَوِيَّةٌ وكانَتْ قُوَّةُ الابتِكارِ في تِلكَ الذَاتِ قَدِ استَيْقَظَتْ بَعد نَومِها الطَويلِ كانَ مُستقبَلُ اللُغةِ العَربيّةِ عَظيمًا كماضِيها، وإلاَّ فَلاَ.

***

ثانيًا: وما عسَى أن يكونَ تَأثيرُ التَمدِينِ الأوروبيِّ والروحِ الغَربيّةِ فيها؟

إنّما التَأثيرُ شَكلٌ مِنَ الطَعامِ تَتناوَلُهُ اللُغَةُ من خَارجِها فتَمضَغُهُ وتَبتَلِعُهُ وتُحوِّلُ الصَالِحَ مِنه إلى كِيانِها الحَيِّ كما تُحوِّلُ الشَجرةُ النورَ والهَواءَ وعَناصِرَ التُرابِ إلى أفنانٍ[1] فَأورَاقٍ فَأزهَارٍ فَأثمارٍ. ولكِنْ إذا كانَتِ اللُغَةُ بدُونِ أضراسٍ تَقضِمُ ولا مَعِدَةً تَهضِمُ، فالطعَامُ يذهبُ سُدًى بل يَنقَلِبُ سُمًّا قَاتِلاً. وكَم مِن شَجرةٍ تَحتالُ على الحَياةِ وَهي في الظِلِّ فإذا ما نُقِلَتْ إلى نُورِ الشَمس ذَبُلَتْ ومَاتَتْ. وَقَد جَاءَ: مَنْ له يُعطى ويُزاد ومَن ليس له ما يُؤخذ منه[2].

وأمّا الروحُ الغَربيّةُ فهي دَورٌ من أدوارِ الإنسانِ وفَصلٌ من فُصُولِ حَياته. وحياةُ الإنسانِ مَوكِبٌ هَائِلٌ يَسيرُ دائِمًا إلى الأمام، ومِن

---

(١) أفنان: جمع فنن: غصن.

(٢) قول من أقوال السيد المسيح ورد على لسانه في نهاية مَثَلِ الوزنات (متى ٢٥:٢٩).

ذلكَ الغُبارِ الذهبِيِّ المُتَصَاعِدِ مِن جَوَانِبِ طَرِيقِه تَتكَوَّنُ اللُغَاتُ والحُكُوماتُ والمَذَاهِبُ. فالأُمَمُ التي تَسِيرُ في مُقَدِّمَةِ هذا المَوكِبِ هِيَ المُبتكِرَةُ، والمُبتكِرُ مُؤَثِّرٌ(١)؛ والأمَمُ التي تمشي في مُؤَخَّرَتِهِ هِيَ المُقَلِّدَةُ، والمُقَلِّدُ يَتَأَثَّرُ.

فلمّا كانَ الشَرقِيُّونَ سَابِقِينَ والغَربَيُّونَ لاحِقِينَ كان لمَدَنِيَّتِنا التأثيرُ العَظيمُ في لُغَاتِهِم. وها قد أصبَحُوا هُمُ السَابِقِينَ وأمسَيْنَا نحنُ اللاحِقينَ، فصارَتْ مَدَنِيَّتُهم، بحُكْمِ الطَبعِ، ذاتَ تأثيرٍ عَظيمٍ في لُغَتِنا وأفكارِنا وأخلاقِنا.

بَيد أنَّ الغَربِيِّينَ كانُوا في المَاضِي يتَنَاوَلُونَ ما نَطبُخُهُ فيمضَغُونَه ويَبتَلِعُونَه مُحَوِّلِينَ الصَالحَ منه إلى كِيانِهِم الغَربيِّ، أما الشَرقِيُّونَ في الوَقتِ الحَاضِرِ فيتناولونَ ما يَطبُخُه الغَربيُّونَ ويبتَلِعُونَه، ولكنَّه لا يَتحوَّلُ إلى كِيانهم، بل يُحوِّلُهُم إلى شِبهِ غَربِيِّينَ، وهيَ حالةٌ أخشَاهَا وأتبرَّمُ(٢) منها، لأنها تُبيِّنُ ليَ الشرقَ تارةً كعَجُوزٍ فَقَدَ أضراسَه وطَورًا كطِفلٍ بدُونِ أضراس!

---

(١) المبتكرُ مؤثِّر: أي ذو تأثير على غيره.
(٢) أتبرَّم: أتضجَّرُ منها.

إن رُوحَ الغَربِ صَدِيقٌ وعَدُوٌّ لنا. صَديقٌ إذا تمَكَّنَّا منه وعَـدُوٌّ إذا تَمَكَّنَ مِنّا. صديقٌ إذا فَتَحْنا له قلوبَنا وعَدُوٌّ إذا وَهَبْنا له قلوبَنا. صديقٌ إذا أَخَذْنا منه مـا يُوافِقُنـا وعـدوٌّ إذا وَضَـعْنا نفوسَـنا في الحَالَـةِ التـي تُوافِقُه.

ثالثًا: وما يكونُ تأثيرُ التطوُّرِ السِياسيِّ الحَاضرِ في الأقطارِ العَربيّةِ؟

قَد أجمَعَ الكُتَّابُ والمُفَكِّرُونَ في الغَربِ والشَرقِ عَـلى أنَّ الأقطـارَ العَربيّةَ في حَالِةِ التَشويشِ السِياسيِّ والإِداريِّ والنَفسِيِّ. ولقـدِ اتَّفَـقَ أكثرُهُم على أنَّ التَشويشَ مَجْلَبَةُ الخَرابِ والاضمِحلالِ.

أمّا أنا فأَسألُ: هَل هُو تَشويشٌ أَم مَلَلٌ؟

إن كانَ مَلَلاً فالمَلَلُ نِهايَةُ كُلِّ أُمَّةٍ وخَاتِمَـةُ كُـلِّ شَـعبٍ. المَلَـلُ هُـو الاحتِضارُ في صُورةِ النُعَاسِ، والموتُ في شَكلِ النَوم.

وإن كانَ بالحَقيقةِ تَشويشًا فالتَشويشُ في شَرعي يَنفَـعُ دائـمًا لأنّـه يُبيِّنُ ما كانَ خَافِيًا في رُوحِ الأُمّةِ، ويُبدِلُ نَـشوتَها بالـصَحْوِ وغَيبُوبَتَهـا باليَقظةِ، ونَظِيرَ عَاصِفَةٍ تَهُزُّ بعَزمِها الأشـجارَ لا لِتَقلَعَهـا بـل لتكـسِرَ أغصَانَها اليَابِسَةَ وتُبَعثِرَ أورَاقَها الصَفراءَ. وإذا ما ظَهَـرَ التَـشويشُ في

أُمّةٍ لم تَزَلْ عَلى شَيءٍ مِنَ الفِطرَةِ[1]، فهو أوضَحُ دَليلٍ على وُجودِ قُوّةِ الابتِكارِ في أفرادِها، والاستِعداد في مجموعها. إنّما السَديمُ[2] أوّلُ كَلمةٍ من كتَابِ الحَياةِ وليسَ بآخِرِ كَلمَةٍ منها، وما السَديمُ سِوى حَياةٍ مُشَوَّشَة.

إذًا فتأثيرُ التَطوُّرِ السِياسِيِّ سيُحَوِّلُ ما في الأقطارِ العَربيّةِ مِنَ التَشويشِ[3] إلى نِظامٍ، وما في دَاخِلِها مِنَ الغُمُوضِ والإشكال إلى تَرتيبٍ وأُلفَةٍ، ولكنَّهُ لا ولن يُبَدِّلُ مَلَلَها بالوَجْدِ[4] وضَجَرَها بالحَماسَةِ. إن الخَزَّافَ يستطيعُ أن يَصنَعَ مِنَ الطِينِ جَرَّةً للخَمرِ أو للخَلِّ، ولكنَّه لا يَقدِرُ أن يَصنَعَ شَيئًا من الرَملِ والحَصَى.

رابعًا: هل يَعمُّ انتشارَ اللُغةِ العَربيّة في المَدارِسِ العَاليةِ وغَيرِ العَاليةِ وتُعَلَّمُ بها جَميعُ العُلوم؟

لا يَعُمُّ انتشارُ اللُغةِ في المَدارسِ العَالِيَةِ وَغَيرِ العَاليةِ حتَّى تُصبحَ تلكَ المدارسُ ذاتَ صِبغَةٍ وَطنيّةٍ مُجَرَّدة. وَلن تُعَلَّم بها جَميعُ العُلُومِ

(١) الفطرة: الصفة التي يَتّصِف بها كلُّ موجود في أول زمان خلقته. صفة الإنسان الطبيعية.

(٢) السديم: الضباب أو الرقيق منه.

(٣) التشويش: المقصود الفوضى.

(٤) الوَجْد: الحبّ.

حتَّى تَنتَقِلَ المَدارسُ من أيدي الجَمعيَّاتِ الخَيريّةِ واللِجانِ الطّائفيةِ والبَعثاتِ الدِينيّةِ إلى أَيدي الحُكُوماتِ المَحَلِّيّةِ.

ففي سُوريا مثلاً كان التعليمُ يَأتِينا مِنَ الغَربِ بشَكلِ الصَدَقةِ، وقَد كُنّا ولم نَزَلْ نلتَهِمُ خُبزَ الصَدَقةِ لأَنّنا جِياعٌ مُتَضوِّرُونَ، ولقد أَحيَانا ذلكَ الخُبزَ. ولَمَّا أحيانًا أماتَنَا. أحيانًا لأنه أَيقَظَ جَميع مَدارِكِنا وَنَبَّهَ عُقولَنَا قَليلاً؛ وأماتَنا لأنّه فَرَّقَ كَلِمَتَنا وأضعَفَ وَحدَتَنا وقَطَعَ رَوابِطَنا وأَبْعَدَ ما بَينَ طَوائِفِنا حتَّى أصبَحَتْ بِلادُنا مَجْمُوعةَ مُستَعمَراتٍ صَغيرَةٍ مُختلفةِ الأذواقِ مُتَضارِبَةِ المَشَارِبِ[1]، كُلُّ مُستَعمَرَةٍ منها تَشُدُّ في حَبلِ إحدَى الأُمَمِ الغَربيّةِ وتَرفَعُ لِواءَها وتَتَرنَّمُ[2] بمَحَاسِنِها وأمجادِها.

فالشابُّ الذي تَنَاوَلَ لُقمَةً من العِلمِ في مَدرسةٍ أَميركِيَّةٍ قَد تَحَوَّلَ بالطَبعِ إلى مُعْتَمَدٍ أَميركيٍّ، والشابُّ الذي تَجَرَّعَ رَشْفَةً من العِلمِ في مَدرَسَةٍ يَسُوعِيَّةٍ صَار سَفِيرًا فَرَنْسِيًّا، والشابُّ الذي لَبِسَ قَمِيصًا مِن نَسيجِ مَدرَسَةٍ رُوسِيَّةٍ أصبَحَ مُمَثِّلاً لرُوسيا... إلى آخرِ ما هُناكَ مِنَ

---

(١) المشارب: الاتجاهات والأهواء.

(٢) تترنَّم: تتغنَّى، تثني...

المَدارس ومَا تُخَرِّجُهُ في كُلِّ عَامٍ مِنَ المُمَثِّلينَ والمُعتَمَدِينَ والسُفَراء. وأعظَمُ دليلٍ عَلى ما تَقَدَّمَ اختلافُ الآراءِ وتَبايُنُ المَنازِعِ في الوَقتِ الحَاضِرِ في مَستَقْبَلِ سُوريا السِياسِيِّ.

فالذين دَرَسُوا بعضَ العُلُوم باللُغَةِ الانكليزيّةِ يُريدُون أميركا أو انكلترا وَصيَّةً على بلادِهم؛ والذين درسُوها باللُغةِ الفَرنسيّةِ يَطلُبُونَ فَرنسا أن تَتَولَّى أَمرَهُم؛ والذين لم يَدرُسُوا بهذِهِ اللُغةِ أو بتِلكَ لا يُريدُونَ هذهِ الدولةَ ولا تلكَ بل يَتَّبِعُونَ سياسةً أدنَى إلى مَعَارِفِهم وأقربَ إلى مَدَارِكِهِم.

وقد يكونُ ميلُنا السياسيِّ إلى الأمّةِ التي نَتَعَلَّمُ على نَفَقتِها دَليلاً على عَاطِفَةِ عرفانِ الجميلِ في نُفُوسُ الشَرقيّينَ. ولكِنْ، ما هذهِ العاطفُة التي تَبني حَجَرًا من جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وتَهدُمُ جِدارًا من الجِهَةِ الأخرى؟ ما هذهِ العَاطِفَةُ التي تَستَنْبِتُ زَهرةً وتَقتَلِعُ غَابَةً؟ ما هذهِ العاطفةُ التي تُحيينا يومًا وتُميتُنا دَهرًا؟

إن المُحسِنينَ الحَقيقيّينَ وأصحابَ الأَرْيَحِيَّةِ في الغَربِ لَمْ يَضَعُوا الشَوكَ والحَسَكَ في الخُبزِ الذي بَعَثُوا به إلينا، فهُم بالطَبعِ قَد حَاوَلُوا نَفْعَنَا لا الضَرَرَ بِنا. ولكنْ، كيفَ تَوَلَّدَ ذلك الشَوكُ؟ ومِن أينَ أَتَى ذلكَ الحَسَكُ؟ هذا بَحْثٌ آخرُ أَترُكُهُ إلى فُرصَةٍ أُخرَى.

نَعَمْ، سوفَ يَعُمُّ انتشارُ اللُّغةِ العَربيّةِ في المَدارسِ العَاليةِ وغَيرِ العَاليةِ، وتُعَلَّمُ بها جَميعُ العُلومِ فَتَتَوحَّدُ مَيُولُنا السِياسِيَّةُ وتَتَبلورُ مَنَازِعُنا القَومِيَّةُ، لأنَّ في المَدرَسَةِ تَتَوحَّدُ المُيولُ، وفي المَدرسةِ تَتَجَوهَرُ المنازع. ولكِنْ، لا يَتِمُّ هذا حتى يَصيرَ بإمكانِنا تَعليمُ النَاشِئَةِ على نَفَقَةِ الأُمَّةِ. لا يَتُمُّ هذا حتَّى يَصِيرَ الواحِدُ مِنّا ابنًا لِوَطَنٍ وَاحِدٍ بدلاً من وَطَنَيْنِ مُتَنَاقِضَيْنِ أحدُهما لجَسَدِهِ والآخرُ لرُوحِه. لا يَتُمُّ هذا حتى نَستبدِلَ خُبزَ الصَدَقَةِ بخُبزٍ مَعجُونٍ في بَيتِنا، لأنّ المُتَسَوِّلَ المُحتَاجَ لا يَستَطِيعُ أن يَشتَرِطَ على المُتَصَدِّقِ الأَرْيَحِيِّ. ومَنْ يَضَعُ نفسَه في مَنزِلَةِ المَوهُوبِ[1] لا يَستطيعُ مُعَارَضَةَ الوَاهِبِ، فالمُوهُوبُ مُسيَّرٌ دائِمًا والواهبُ مُخَيَّرٌ أبَدًا.

خامسًا: وهل تتغلّبُ (اللغة العربيّة الفصحى) على اللهجَاتِ العَاميةِ المُختلفةِ وتوحِّدُها؟

إنَّ اللَهجاتِ العَاميَّةَ تَتَحَوَّرُ[2] وتتهَذَّبُ ويُدْلَكُ[3] الخَشِنُ فيها

(١) الموهوب: المعطى بلا عوض.
(٢) تتحوَّر: المقصود تتطوّر. لأن «تتحوّر» معناها: تتغيّر.
(٣) يُدلَكُ: يُفرَك ويُدعَكُ.

فَيَلِينُ؛ ولكنَّها لا ولن تُغلَبَ -ويَجِبُ ألاَّ تُغْلَبَ- لأنّها مَصدَرُ ما نَدعُوهُ فَصِيحًا مِنَ الكَلامِ وَمَنبِتُ ما نَعُدُّهُ بَليغًا مِنَ البيانِ.

إنَّ اللُغاتِ تَتبَعُ، مثلَ كُلِّ شَيءٍ آخرَ، سُنَّةَ بَقَاءِ الأنسَبِ، وفي اللَهجَاتِ العَاميةِ الشَيءُ الكَثِيرُ مِنَ الأنسَبِ الذي سَيبقَى لأنه أقربُ إلى فِكرةِ الأُمّةِ وَأدنَى إلى مَرامِي[1] ذاتِها العَامَّةِ. قلتُ إنّه سَيبقى وَأَعني بذلك أنّه سيَلتَحِمُ بِجِسْمِ اللُغَةِ ويَصيرُ جُزءًا مِن مَجْمُوعِها.

لكُلِّ لُغَةٍ مِنَ لُغَاتِ الغَربِ لَهجاتٌ عامِّيَّةٌ، ولتلكَ اللهجاتِ مَظاهِرُ أدبيّةٌ وفنيّةٌ لا تَخلُو من الجَميلِ المَرغُوبِ والجَديدِ المُبتكَرِ[2]، بل في أوروبا وأميركا طَائفةٌ مِنَ الشُعراءِ المَوهُوبين الذين تَمَكَّنُوا مِنَ التَوفِيقِ بين العَامِّيِّ والفَصيحِ في قَصَائِدِهِم ومُوَشَّحَاتِهِم فجاءَتْ بَليغَةً ومُؤَثِّرة. وعِندي أنَّ في «المَوَّالِ» و«الزَجَلِ» و«العتابا» و«المعنّى»[3] من الكناياتِ المُستَجَدَّةِ[4] والاستِعاراتِ المُستَمْلَحَةِ[5]

---

(١) مرامي: غايات.
(٢) الجديد المبتكر: الذي لم يُسبَق.
(٣) الموَّال والزجل والعتابا والمعنّى: أنواع من الشعر العامي.
(٤) المستجدَّة: المستحدَثة.
(٥) المستملَحة: المستحسَنة.

والتَعابيرِ الرشيقَةِ المُستنبَطة ما لو وَضعناهُ بجَانِبِ تلكَ القَصائِدِ المَنظُومَةِ بِلُغَةٍ فَصيحَةٍ، والتي تَملأُ جَرائِدَنا ومجلاَّتِنا، لبَانَتْ كبَاقَةٍ مِنَ الرَياحِينِ بقُربِ رَابيَةٍ مِنَ الحَطَبِ، أو كَسَرْبٍ من الصَبايا الرَاقِصَاتِ المُترَنِّمَاتِ قُبالةَ مجمُوعَةٍ مِنَ الجُثَثِ المُحنَّطَةِ.

لَقَد كانَتِ اللُغَةُ الإيطاليةُ الحَديثةُ لَهجةً عامِيّةً في القُرونِ المُتَوسِّطَةِ، وكانَ الخَاصَّةُ يَدعُونَها بِلُغَةِ «الهَمَجِ»[1]. ولكِنْ، لمَّا نَظَمَ بِها دانتي وبتراك[2] وكامُونس وفرانسيس داسيزي[3]، قَصائِدَهُم وموشَّحاتِهِم الخَالدةَ، أصبحَتْ تلكَ اللهجةُ لُغَةَ إيطاليا الفُصحَى، وصَارَتِ اللاتينيّةُ بعدَ ذلكَ هَيكَلاً يَسيرُ ولكِنْ في نَعْشٍ على أكتافِ الرَجعِيّينَ ... وليسَتِ اللَهجَاتُ العَامِّيةُ في مِصرَ وسُوريا والعراقِ

---

(١) الهَمَج: ج أهماج: الرعاع من الناس الحمقى. وقومٌ هَمَجٌ: لا خير فيهم.

(٢) دانتي وبتراك: الصحيح: دانتي وبترارك. الأول صاحب «الكوميديا الإلهية» وسبق التعريف به مرارًا. والثاني (١٣٠٤-١٣٧٤م) شاعر إيطالي من رواد النهضة الأوربية. اشتهر بديوانه «الانتصارات».

(٣) كامونس Luis Camoens (١٥٢٤-١٥٨٠م): شاعر برتغالي. اشتهر بشعره المستوحى من مناخات النهضة الإيطالية.

فرانسيس داسيزي Francois Assise (١١٨٢-١٢٢٦م): قديس. مؤسس رهبانية الفرنسيسكان. ولد في أسيزي وفيها توفي. امتاز بتواضعه وروح البساطة والفرح وحبه الفقر. كان أثره الديني كبيرًا في الغرب القرون الوسطى.

أبعدَ عن لُغَةِ المَعَرِّي والمُتَنَبِّي[1] مِن لَهجَةِ «الهَمَج» الإيطاليَّةِ عَن لُغَةِ أوفيدي وفرجيل[2]. فإذا ما ظَهَرَ في الشَرقِ الأدنَى عَظيمٌ ووَضَعَ كِتابًا عَظيمًا في إحدَى تلكَ اللَهجاتِ، تَحَوَّلَتْ هذهِ إلى لُغَةٍ فُصحَى.

بَيْدَ أنّي أستَبْعِدُ حُدُوثَ ذلك في الأقطارِ العَربيةِ، لأنَّ الشَرقيّينَ أَشَدُّ مَيلاً إلى المَاضِي مِنهُم إلى الحَاضِرِ أو المُستَقبَلِ، فهُمُ المُحافِظُونَ، على مَعرِفَةٍ مِنهُم أو على غَيرِ مَعرِفَة، فإن قامَ كَبيرٌ بينَهم لَزِمَ في إظهَارِ

---

(١) أبو العَلاء المَعَرّي (٩٧٣ – ١٠٥٧م): ولد في معرّة النعمان. شاعر مفكّر. فَقَدَ بصره في الرابعة من عمره. درس في حلب وطرابلس وإنطاكية. سافر إلى بغداد ثم عاد إلى المعرّة فعاش فيها معتزلا العالم متزهدًا. كان رقيق العاطفة، ثاقب العقل، لاذع الانتقاد، دقيق الإحساس، متبرمًا بالناس والدنيا، كثير التشاؤم. من مؤلفاته «سقط الزند» وهو مجموعة قصائد و«اللزوميات» في الفلسفة العلائية و«رسالة الغفران» في قصة إلهيّة طريفة. لُقب بشاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء.

المُتَنَبّي (أبو الطيب) (٩١٥ – ٩٦٥م): من كبار شعراء العرب. وُلد في محلة كِندة من الكوفة وقُتل في عودته من فارس إلى بغداد. تخرّج في العراق والشام ودخل البادية فخالط الأعراب. امتدَحَ سيفَ الدولة ثمّ كافورًا ثم عَضُد الدولة البويهي. كان متكبّرًا شجاعًا طموعًا محبًا للمغامرات. أفضل شِعره في الحِكمة وفلسفة الحياة ووصف المعارك، على صياغة قويّة مُحكَمَة. له ديوان شَرَحَهُ طائفة من كبار الأدباء كابن جنيّ وأبي العلاء المعري والواحدي والعكبري والشيخ إبراهيم اليازجي.

(٢) أوفيدي أو أوفيديوس Ovidius (٤٣ ق.م ـ ١٨م): شاعر لاتيني كبير، تغنّى بالحب وبـ «التطوُّر» في العلم. شعره أنيق مجوني.

فرجيل أو فرجيليوس Virgilius (٧١ – ١٩ ق.م): أعظم شعراء روما. ألّف «الرعائيات» و«الفلاحيات» وملحمة «الإنياذة». رقيق الشاعرية، موسيقي النظم، واسع المخيِّلة.

مَوَاهِبِهِ السُبُلَ البَيَانِيَّةَ[1] التي سَار عَليها الأقدَمُونَ، وما سُبُلُ الأقدَمِينَ سِوى أَقصَرِ الطُرُقاتِ بينَ مَهْدِ الفِكرِ ولَحدِه[2].

سادسًا: ومَا هيَ خَيرُ الوَاسائِلِ لإحياءِ اللُغةِ العَربيّة؟

إن خَيرَ الوسائلِ، بل الوَسيلَةُ الوحيدةُ لإحياءِ اللغُةِ هي في قلبِ الشَاعِرِ وعَلى شَفتَيْهِ وبَينَ أصَابِعِهِ. فالشَاعرُ هُو الوَسيطُ بَينَ قُوّةِ الابتِكارِ والبَشَرِ، وَهو السِلكُ الذي يَنقُلُ ما يُحدِثُهُ عالَمُ النَفسِ إلى عَالَمِ البَحثِ، ومَا يُقَرِّرُهُ عالَمُ الفِكرِ إلى عَالَمِ الحِفظِ والتَدوِين.

الشَاعرُ أَبو اللُغَةِ وأُمُّها، تَسيرُ حيثَما يَسيرُ وتَربِضُ أينَما يَربِضُ، وَإذا مَا قَضَى جَلسَتْ على قَبرِهِ بَاكِيَةً مُنتَحِبَةً حتَّى يَمُرَّ بها شَاعِرٌ آخَرُ ويأخُذُ بيَدِها. وإذا كانَ الشَاعرُ أبا اللُغةِ وأُمَّها فالمُقَلِّدُ ناسِجُ كَفَنِهَا وَحَافِرُ قَبرِهَا.

أَعني بالشَاعِرِ كُلَّ مُختَرِعٍ، كبيرًا كان أو صغيرًا، وكُلَّ مُكتَشِفٍ، قويًا كان أو ضَعيفًا، وكلَّ مُختَلِقٍ عَظيمًا كان أو حقيرًا، وكُلَّ مُحِبٍّ

(١) السُبُل البيانيَّة: أنواع البيان والبديع التي يتوسَّلها الكاتب لتحسين كلامه وتوشيته. وأشهر هذه المعاني المجاز، الكناية، التشبيه، الاستعارة، الجناس، الطباق... وغيرها.

(٢) مهد الفكر ولحده: ولادة الفكر وموته.

للحَياةِ المُجَرَّدةِ، إمامًا كان أو صعلوكًا، وكُلّ مَنْ يَقفَ مُتهيِّبًا أمامَ الأيّامِ والليالي، فَيلسُوفًا كانَ أو نَاطُورًا للكُرُوم.

أمّا المُقَلِّدُ فَهو الذي لا يَكتَشِفُ شَيئًا ولا يَختَلِقُ أمرًا، بَل يَستَمِدُّ حَياتَهُ النَفسِيَّةَ مِن مُعاصِرِيهِ ويَصنَعُ أثوابَه المَعنويَّةَ مِن رُقَعٍ يَجُزها[1] من أثوابِ مَنْ تقدَّمَهُ.

أَعنِي بالشَاعِرِ ذلكَ الزارعَ الذي يَفْلَحُ حَقلَهُ بمِحرَاثٍ يَختَلِفُ ولو قليلاً عَنِ المِحراثِ الذي وَرِثَهُ عَن أبيهِ، فيجيءُ بَعدَه مَن يَدعُو المِحراثَ الجَديدَ باسمٍ جَديدٍ؛ وذلكَ البُستانيَّ الذي يَستَنبِتُ بَينَ الزَهرةِ الصَفراءِ والزَهرةِ الحَمراءِ زَهرَةً ثَالثةً بُرتُقَاليَّةَ اللونِ، فيَأتي بَعدَه مَنْ يَدعُو الزَهرةَ الجَديدَةَ باسمٍ جَديدٍ؛ وذلكَ الحَائِكَ الذي يَنسُجُ عَلى نَولِهِ نَسِيجًا ذا رُسُومٍ وخُطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحَائِكُونَ، فيَقومُ مَن يَدعُو نَسيجَه هذا باسمٍ جَديدٍ. أَعني بالشَاعِرِ المَلاَّحَ[2] الذي يَرفَعُ لسَفينةٍ ذَاتِ شِرَاعَيْنَ شِراعًا ثالثًا؛ والبنّاءَ الذي يَبني بَيتًا ذا بابَيْنِ ونافِذَتَيْنِ بَينَ بُيوتٍ كُلُّها ذاتُ بابٍ

(١) يجزُّها: يقطعها.

(٢) الملاّح: قائد المركب أو السفينة.

وَاحِدٍ ونَافِذَةٍ وَاحِدَةٍ؛ والصبّاغَ الذي يَمزُجُ الألـوانَ التـي لم يَمزُجْهـا أحدٌ قبلَه فيَستَخرجُ لَونًا جَديدًا، فيَأتي بعدَ المَلاّحِ والبَنّاءِ والصَبّاغِ مَنْ يَدعُو ثِمارَ أعمالِهِم بأسماءٍ جَديـدةٍ، فيـضيفُ بـذلك شِراعًـا إلى سَـفينةِ اللُغةِ، ونَافِذةً إلى بيتِ اللُغةِ، وَلَونًا إلى ثَوبِ اللُغة.

أمّا المُقلِّدُ فَهو ذاكَ الذي يَسيرُ مِن مَكـانٍ إلى مَكـانٍ عَـلى الطَريـقِ التي سَار عَليهـا ألـفُ قافلـةٍ وقافلـةٌ، ولا يَحيـدُ عَنهـا مَخافَـةَ أن يَتيـهَ ويَضِيعَ؛ ذاكَ الـذي يتبَـعُ بمَعيـشَتِهِ وكَـسْبِ رِزقِـهِ ومَأكَلِـهِ ومَـشرَبِهِ ومَلبَسِهِ، تلكَ السُبُلَ المَطروقَةَ التي مَشَى عليهـا ألـفُ جِيـل وجيـلٌ، فتَظَلُّ حياتُه كرَجْعِ الصَدَى ويَبقى كِيانُه كظِلِّ ضَئيلٍ لحَقيقَـةٍ قَـصِيَّةٍ[1] لا يَعرِفُ عَنها شَيئًا ولا يُريدُ أن يَعرِفَ.

أَعنِي بالشَاعِرِ ذلكَ المُتَعبِّدَ الذي يَدخُلُ هَيكَلَ نفسِه فيَجثُو بَاكِيًـا فَرِحًا نَادِبًا مُهَلِّلاً مُصغِيًا مُناجِيًا، ثُمَّ يَخرُجُ وبينَ شَـفَتَيْهِ ولـسَانِهِ أسـماءٌ وَأفعَالٌ وحُرُوفٌ وَاشتقاقاتٌ جَديدةٌ لأشكالِ عِبادَتِهِ التـي تَتَجـدَّدُ في كُلِّ يَوم، وأنواعِ انجِذَابِهِ التي تَتَغَيَّرُ في كُلِّ لَيلـةٍ فيُـضِيفُ بعَمَلِـهِ هـذا وَتَرًا فِضِّـيًّا إلى قِيثارةِ اللُغةِ وُعُودًا طَيِّبًا إلى مَوقِدِها.

(١) قصيَّة: بعيدة جدًا.

أمّا المُقَلِّدُ فَهو الذي يُرَدِّدُ صَلاةَ المُصَلِّينَ وَابتِهالَ المُبتَهِلينَ بدُونِ إرادةٍ ولا عَاطِفَةٍ، فيتركُ اللغُةَ حيثُ يَجِدُها، والبيانَ الشَخصيَّ حيثُ لا بَيانَ ولا شَخصِيَّة.

أَعني بالشَاعِرِ ذاكَ الذي إن أَحَبَّ امرَأَةً انفَرَدَتْ رُوحُه وتَنَحَّت[1] عَن سُبُلِ البَشَرِ لتلبسَ أحلامُها أجسَادًا مِن بهجَةِ النَهار وَهولِ الليلِ ووَلوَلَةِ العَواصِفِ وسَكِينَةِ الأودِيَةِ، ثُمَّ عادَتْ لتَضفِرَ من اختِباراتِها إكليلاً لرَأسِ اللُغةِ، وتَصُوغَ من اقتِناعِها قِلادَةً لعُنُقِ اللُغَةِ.

أمّا المُقَلِّدُ فَمُقلِّدٌ حتى في حُبّهِ وغَزَلِهِ وتَشبيبِهِ، فإنْ ذَكَرَ وَجهَ حَبيبتِهِ وعُنُقَها قال: بَدْرٌ وغَزَال. وإن خَطَرَ على بَالِهِ شَعرَها وَقَدَّهَا ولَحظَها قال: ليلٌ وغُصنُ بانٍ وسِهَامٌ. وإن شَكَا قال: جَفنٌ سَاهِرٌ وفَجرٌ بَعيدٌ وَعَذُولٌ[2] قريبٌ. وإن شاء أن يأتي بمُعجزَةٍ بَيَانيَّةٍ قال: حَبيبتي تَستَمطِرُ لُؤلؤَ الدَمعِ من نَرجسِ[3] العُيُونِ لتَسقيَ وَرْدَ

---

(١) تنحَّت: ابتعدت، اتّخذت ناحيةً.

(٢) العَذول: الكثير الملامة.

(٣) نرجس: نبت من الرياحين زهره أبيض.

الخُدودِ، وتَعضُّ على عُنَّابِ أنامِلِها بَبَرَدِ أسنانِها[١]. يترنَّمُ صاحِبُنا البَبغاءُ بهذهِ الأغنيةِ العَتيقةِ وَهو لا يَدري أنّه يُسَمِّمُ ببلادَتِهِ دَسَمَ اللُّغَةِ ويَمتَهِنُ بسَخافَتِهِ وابتِذالِهِ شَرَفَها ونَبالَتَها.

قد تكلَّمتُ عن المُستنبَطِ ونَفْعِهِ، والعَقيمِ[٢] وضَرَرِهِ، ولم أذكُر أُولئِكَ الذين يَصرِفُونَ حَياتَهم بوَضْعِ القَوامِيسِ وتَأليفِ المُطَوَّلاتِ وتَشكِيلِ المَجَامِعِ اللُّغَوِيَّة؛ لم أَقُلْ كَلمةً عن هَؤلاءِ لاعتِقادي بأنّهم كالشَاطِئِ بينَ مَدِّ اللُّغةِ وجَزْرِها وأنَّ وظيفَتَهم لا تَتَعَدَّى حَدَّ الغَربَلَةِ[٣]. والغَربَلَةُ وَظيفةٌ حَسَنَةٌ؛ ولكنْ، ما عَسَى يغربِلُ المُغربِلُونَ إذا كانَت قُوَّةُ الابتِكارِ في الأُمّةِ لا تَزرعُ غيرَ الزُوانِ ولا تَحصُدُ إلاَّ الهَشِيمَ ولا تَجمَعُ على بيادِرِها سِوى الشَوكِ والقُطرُبِ؟[٤]

---

(١) قال أبو نواس:

واستمطرَتْ لُؤلُؤًا مِن نَرجسٍ، وسقَتْ
وردًا، وعَضَّتْ على العُنَّابِ بالبَرَدِ

(٢) المستنبَط: المبتكر؛ العقيم: المتكرر، المبذول، الذي لا جدوى منه.

(٣) الغربلة: بمعنى الانتقاء والاختيار.

(٤) الزُوان: لغة من الزُؤان: واحدته زؤانة: نباتٌ عشبيٌّ من فصيلة النجيليات. ينبت غالبًا بين الحنطة، وحَبُّه يشبه حَبَّها إلا أنه أصغر، وإذا أُكل يجلب النوم. وأراد بـ«الزُوان» في العشب اليابسَ الهشَّ؛ القطرب: نبات شائك يحمل حَبًّا كحَبِّ الحنطة، يلصق بمن يمرُّ به.

أقولُ ثانيةً إنّ حَياةَ اللُغةِ وتَوحِيدَها وتَعمِيمَها وَكُلَّ ما لـه عَلاقـةٌ بهَا قَد كانَ وسَيكُونُ رَهْنَ خَيال الشاعرِ. فهل عِندَنا شُعراء؟

نَعَمْ، عِندَنا شُعراءُ، وكُلُّ شَرقيٍّ يَستطيعُ أن يكونَ شَاعِرًا في حَقلِهِ وفي بُستَانِهِ وأمَام نَولِهِ[1]، وفي مَعبدِهِ وفوقَ مِنبرِهِ وبجَانِبِ مَكتبَتِهِ. كُلُّ شَرقيٍّ يستطيعُ أن يُعتِقَ نفسَه من سِجنِ التَقليدِ والتقَاليدِ ويَخرُجَ إلى نُور الشَمسِ فيَسيرَ في مَوكِبِ الحَياة. كُلُّ شَرقيٍّ يَستَطيعُ أن يستَسلِمَ إلى قُوّةِ الابتِكارِ المُختَبِئةِ في رُوحه، تلكَ القوّةِ الأزليةِ الأبديّةِ التي تُقيمُ مِنَ الحِجَارَةِ أبناءَ الله.

أَمّا أُولئكَ المُنصرفُونَ إلى نَظْمِ مَوَاهِبِهم ونَثْرِها فَلَهُم أقولُ: ليَكُنْ لَكُم مِن مَقاصِدِكُمُ الخُصُوصِيّةِ مانعٌ عَن اقِتفاء أَثَرِ المُتَقَدِّمِينَ[2]، فخيرٌ لكُم ولِلُّغَةِ العَربيّةِ أن تَبنُوا كُوخًا حَقيرًا مِن ذاتِكُمُ الوَضعيّةِ من أن تُقيمُوا صَرحًا شاهِقًا من ذاتِكُمُ المُقْتَبَسَةِ.

ليَكُنْ لكُم من عِزَّةِ نُفُوسِكُم زاجرٌ[3] عن نَظمِ قَصائِدِ المَديحِ

(١) النول: آلة يُحاك عليها الثوب.

(٢) اقتفاء أثر المتقدمين: اتّباع سُبُلهم وتقليدهم.

(٣) زاجر: مانع، حائل، رادعٌ.

والرثَاءِ والتَهنئةِ، فخيرٌ لكُم ولِلغَةِ العربيّةِ أن تَموتوا مُهمَلِينَ مُحتَقَـرِينَ من أن تَحرُقُوا قُلوبَكُم بَخُورًا أمامَ الأنصابِ[1] والأصنامِ.

ليكُن لكم مِن حَمَاسَتِكُمُ القوميّةِ دافعٌ إلى تصَويرِ الحَيـاةِ الـشَرقيّةِ بمَا فيها مِن غَرائِبِ الألمِ وعَجَائِبِ الفَرح، فَخَيرٌ لكُم ولِلُغةِ العرَبيّةِ أن تَتَناوَلوا أبسَطَ ما يَتَمَثّلُ لكُم مِنَ الحَوادِثِ في مُحيطِكُم وتُلبِسُوها حُلَّـةً من خَيالِكُم من أن تُعَرِّبُوا أجَلَّ وأجمَلَ ما كَتَبَهُ الغَربيّونَ.

***

(١) الأنصاب: بمعنى الأصنام.

ابن الفارض[1]

كانَ عُمَرُ بنِ الفَارضِ شَاعِرًا رَبَّانيًا[2]. وكانت روحُه الظمآنةُ تَشرَبُ من خَمرةِ الرُوحِ فتَسكَرُ ثمّ تَهيمُ سَابِحَةً، مُرفرِفَةً في عَالَمِ المَحْسُوسَاتِ حيثُ تطوفُ أحلامُ الشُعراءِ ومُيولُ العُشَّاقِ وأَمَانِيُّ المُتَصوِّفِينَ[3]. ثمّ يُفاجِئُها الصَحْوُ فتَعودُ إلى عَالَمِ المَرئِيَّاتِ لتُدَوِّنَ ما رَأتـه وسَمِعَتْهُ بِلُغَةٍ جَميلةٍ مُؤَثِّرَة؛ لكنّها غيرُ خَاليةٍ في بَعضِ الأحَايينِ من ذلكَ التَعقيدِ اللَفظِيِّ المَعروفِ بالبَديع، وهو في شَرعي ليسَ بالبَديع.

ولكِنْ، إذا وَضَعْنا صِناعَةَ [ابن] الفَارضِ جَانِبًا ونَظَرنا إلى فَنِّهِ المُجَرَّدِ ومَا وَراءَ ذلكَ الفَنِّ مِنَ المَظاهِرِ النَفسيَّةِ، وَجَدْناه كاهِنًا في هَيكَلِ الفِكرِ المُطلَقِ، أميرًا في دَولةِ الخَيالِ الوَاسِعِ، قَائِدًا في جَيشِ المُتَصوِّفِينَ العظيمِ، ذلكَ الجَيشِ السَائِرِ بعَزمٍ بَطيءٍ نحوَ مَدينَةِ الحَقِّ، المُتَغَلِّبِ في طَريقِه عَلى صَغَائِرِ الحَيَاةِ وتَوَافِهِها، المُحَدِّقِ أبدًا إلى هَيبَةِ

(١) ابن الفارض: (عمر بن علي ١١٨١-١٢٣٥م): من مفكرّي الإسلام والمتصوِّفين. عاشَ مُتنسِّكًا في وادي المستضعفين في المقطَّم ثم في الحجاز. له ديوان أشهرُ ما فيه تائيته الكبرى التي عرفت بـ «نظام السلوك»، وقد ضمَّنها سجلّ حياته الروحية وعرض فيها مذهبه الصوفي.

(٢) شاعرًا ربَّانيًا: متعبِّدًا لربِّه.

(٣) المتصوِّفون: للتعريف بالتصوُّف وبالمتصوِّفين راجع هامش ص ١٣٥.

الحَياةِ وجَلالِها.

وقَد عـاشَ [ابـن] الفَـارِضِ في زَمـنٍ خَـالٍ مِـنَ التَوليـدِ العَقـلِيِّ والإحداثِ النَفسِيِّ بينَ قَومٍ مُنصَرِفِينَ إلى التَقليدِ والتَقالِيدِ، مَـشغُولِينَ باستِفسارِ واستِيضَاحِ ما تَرَكَهُ الإسلامُ مِنَ الأمجَادِ الأدَبيّةِ والفَلـسَفيّةِ، غَيرَ أن النُبُوغَ ـ والنُبوغُ مُعجِزَةٌ إلهيّـةٌ ـ قَـد صَـارَ بالـشاعِرِ الحَمَـوِيِّ، فَتَنَحَّى عَن زَمنِهِ وعَن مُحِيطِهِ واختَـلَى بذَاتِـهِ ليَـنظِمَ مـا يـتراءى لِذاتِـهِ شِعرًا أَبَدِيًّا يَصِلُ ما ظَهَرَ مِنَ الحَياةِ بِما خَفِيَ مِنها.

ولم يتناوَلْ [ابن] الفارضِ مَواضِـيعَه مـن مَاجَريـاتِ[1] يَومِـهِ كـمَا فَعَلَ المُتَنبِّي، ولم تُشغِلْهُ مُعمَيَّاتُ الحَياةِ وأسرارُها كما شَغَلَتِ المَعَـرِّي، بَل كانَ يُغمِضُ عَينَيه عَنِ الدُنيا ليَرَى مَا وراءَ الدُنيا، ويُغلِقُ أُذُنَيْهِ عَـن ضَجَّةِ الأرضِ ليَسمَعَ أَغانِيَ اللانِهاية.

هذا هو [ابن] الفارِضِ: رُوحٌ نَقيّةٌ كأَشِعَّةِ الشَمسِ، وَقلبٌ مُتَّقِـدٌ كالنَار، وفِكرَةٌ صَافِيَةٌ كبُحَيْرَةٍ بينَ الجِبَالِ، وهو إن كان دُونَ الجَاهِلِيِّينَ عَزمًا وأقلَّ مِن المُوَلِّدِينَ ظَرفًا. ففي شِعرِهِ ما لم يَحلُـمْ بـه الأَوَّلُـونَ ولَمْ يَبْلُغْهُ المُتأَخِّرونَ.

---

(١) ماجريات: أحداث، وهي مركبة من «ما جرى».



«ابن الفـــــارض»
بريشة جبران خليل جبران

العهد الجديد

في الـشَرقِ اليَـومَ فِكرتَـانِ مُتَـصَارِعَتَانِ: فِكـرةٌ قديمـةٌ، وفِكـرةٌ جَديدة. أمّا الفِكرةُ القَديمَةُ فَستُغلَبُ على أمرِها لأنّها مَنهُوكَـةُ القُـوى مَحلُولَةُ العَزمِ.

وفي الشَرقِ يَقظَةٌ تُراوِدُ النَومَ، واليَقظةُ قَاهِرَةٌ لأنَّ الشَمسَ قَائِدُها والفَجرَ جَيشُها.

وفي حُقُولِ الشَرق، وَلقَـد كـانَ الـشرقُ بـالأمسِ جَبَّانـة واسِـعة الأرجاءِ، يَقِفُ اليومَ فَتـى الربيـعِ مُناديًـا سُـكَّانَ الأجـداثِ[1] ليَهُبُّـوا ويَسِيروا مَعَ الأيّامِ. وإذا ما أَنشَدَ الرَبيعُ أُغنيَتَهُ، بُعِثَ مَـصروعُ الـشِتَاءِ وخَلَعَ أكفانَه وَمشَى.

وفي فَضَاء الشَرقِ اهتِزازاتٌ حيّةٌ تَنمُو وتَتَمَدَّدُ وتَتَوسَّـعُ وتتنـاولُ النُفُوسَ المتنبِّهـةَ الحَـسّاسة فتَـضُمُّها إليهـا، وتُحيطُ بـالقُلوبِ الأبيّـةِ الشَاعِرَةِ لتكتَسِبَها.

(١) جبَّانة: مقبرة؛ والأجداث: مفردها جدث: القبر.

وللشَرقِ اليومَ سَيّدانِ: سَـيّدٌ يـأمُرُ وينهَـى ويُطـاع ولكنَّـهُ شَـيخٌ يُحتَضَرُ، وسَيِّدٌ سَاكِتٌ بسُكُوتِ النَـواميسِ والأنظِمَـةِ، هَـادِئ بهُـدُوءِ الحَقِّ، ولكنّهُ جَبّارٌ مَفتُولُ السَاعِدَيْنِ يَعرِفُ عزمَه ويَثِقُ بكِيانِهِ ويُـؤمِنُ بصَلاحِيتِّهِ.

في الشَرقِ اليومَ رَجُلان: رَجُلُ الأمسِ، ورجلُ الغَدِ، فـأيٌّ مِـنهُما أنتَ أيُّها الشَرقيُّ؟

ألا فاقترِبْ مِنـي لأتفرَّسَـكَ[1] وأتَبـصَّرَكَ وأتحَقَّـقَ مِـن مَلامِحِـكَ ومَظاهِرِكَ ما إذا كُنتَ من الآتينَ إلى النُورِ أو الذاهبينَ إلى الظلامِ.

تعالَ وَأخبِرْني: ما أنتَ؟ ومَنْ أنتَ؟

أَسـياسِيٌّ يقُـولُ في سِرّه: «أريـدُ أن أَنتَفِـعَ مِـن أُمّتـي»؟ أم غَيُـورٌ مُتَحَمِّسٌ يَهمِسُ في نفسِه: «أتوقُ إلى نَفعِ أُمَّتي»؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ نَبتَةٌ طُفَيْلِيَّةٌ[2]، وإن كنتَ الثاني فأنـتَ وَاحَـةٌ في صَحراءَ.

---

(١) تفرس: يعني أظهر أنه فارس، وتفرس فيه: ثبت نظـره فيـه. لـذلك ينبغـي إضـافة «فيـه» عـلى «تفرّس».

(٢) نبتة طفَيْليَّة؛ نبتة تعيش على ما هو حيٌّ من النبات.

أتاجرٌ يتَّخِذُ عَوَزَ النَاسِ وَسيلةً للربحِ والانتِفاخِ فيَحتكِرُ[١] الضَروريَّاتِ ليبيعَ بدينارٍ ما ابتَاعَهُ بِدِرهَمٍ؟ أم رَجُلُ جِدٍّ واجتِهادٍ يُسَهِّلُ التَبادُلَ بينَ الحَائِكِ والزَارعِ، ويَجعَلُ نفسَه حَلْقَةً بين الرَاغِبِ والمَرغُوبِ، فيُفِيدُ المَرغوبَ والراغبَ ويَستفيدُ بَعدلٍ منهما؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ مُجرمٌ سكنتَ القُصورَ أوِ السُجون، وإن كنتَ الثاني فأنتَ مُحسِنٌ شَكَرَكَ الناسُ أو جَحدُوك[٢].

أَرئيسُ دِينٍ يَحُوكُ من سَذَاجَةِ القَومِ بِرفيرًا[٣] لجَسَدِهِ، ويَصُوغُ من بَسَاطَةِ قُلُوبِهم تَاجًا لرَأسِهِ، ويَدَّعي كَرَهَ إبليسَ ويَعيشُ بَخَيْرَاتِهِ؟

أم تَقِيٌّ وَرِعٌ يَرَى في فَضِيلَةِ الفَردِ أساسًا لرُقِيِّ الأُمَّةِ، وفي استِقصاءِ[٤] أَسرارِ رُوحِهِ سُلَّمًا إلى الرُوحِ الكُلّي؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ كَافِرٌ مُلحِدٌ صُمْتَ النهارَ أو صَلَّيتَ الليلَ، وإن كنتَ الثاني فأنتَ زَنبقَةٌ في جَنّةِ الحَقِّ ضَاع أريجُها[٥] بينَ أُنوفِ

(١) يحتكرُ الضروريات: يجمعها ويحتبسها انتظارًا لغلائها فيبيعها بالكثير.
(٢) جحدوك: أنكروا فضلك.
(٣) برفيرًا: ثوبًا أرجوانيًا يرتديه الأحبار والملوك.
(٤) استقصاء: تتبُّع.
(٥) أَريجُها: طيبها، شذاها.

البَشَرِ أو تَصاعَدَ حُرًّا طَليقًا إلى الغِلافِ الأثيرِيِّ حَيثُ تُحفَظُ أنفاسُ الأزهارِ.

أَصَحفِيٌّ يَبيعُ فِكرَتَهُ ومَبدَأَهُ في سُوقِ النَخّاسِينَ(١) ويَنمُو ويَترعرَعُ على ما يُفرِزُهُ الاجتماعُ من أخبارِ المَصائِبِ والوَيلاتِ، ونَظيرَ الشُوحَةِ(٢) الجائِعَةِ لا تَهبِطُ إلاَّ على الجِيَفِ المُنتِنَةِ؟ أم مُعَلِّمٌ واقِفٌ على مِنبَرٍ من مَنابِرِ المَدنيّةِ يَستَمِدُّ مِن ماَتي الأيّام مَواعِظَ يُلقيها على الناسِ بعدَ أن يَتَّعِظَ بها هُو نَفسُه؟

إن كنتَ الأوّلَ الأوّلَ فأنتَ بُثُورٌ(٣) وقُرُوحٌ، وإن كنت الثاني فدواءٌ وَبلسَمٌ...

أَحاكِمٌ يَتَصاغَرُ أمامَ مَنْ وَلاَّهُ ويَستَصغِرُ مَنْ تَولَّى عَليهم، فلا يُحَرِّكُ يَدًا إلاَّ لِيَضَعَها في جُيُوبِهم، ولا يَخطُو خُطوةً إلاَّ لَمطمَعٍ له فيهم؟ أم خادِمٌ أمينٌ يُدِيرُ شُؤونَ الشَعبِ ويَسهَرُ على مَصالِحِهِ ويَسعَى إلى تَحقيقِ أمانِيِّه؟

---

(١) سوق النخاسين: حيث يُتاجَرُ بالإنسان بيعًا وشراء.

(٢) الشوحة: نوع من الطيور الجارحة تدعى الحدأة.

(٣) بثور: جمع بثر وهو خرّاج صغير.

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ زُوانٌ في بَيادِرِ الأُمّة، وإن كنتَ الثاني فأنتَ بَرَكَةٌ في أهرائِها(١).

أَزوجٌ يَستَبيحُ لنَفسِهِ ما يُحَرِّمُهُ على زَوجَتِهِ، ويَسرَحُ ويَمرَحُ وفي حِزَامِهِ مِفتَاحُ سِجنِها، ويَلتَهِمُ ما يَشتَهيهِ حتى التَخمَةِ وهي جَالِسَةٌ في وَحدَتِها أمامَ صَحفَةٍ فَارغةٍ؟ أم رفيقٌ لا يَسيرُ إلى أمرٍ إلاَّ ويدُه بيدِ رَفيقَتِهِ، ولا يفعَلُ أمرًا إلاَّ وَلها فِيه فِكرَةٌ ورأيٌ، ولا يَفُوزُ بأمرٍ إلاَّ لتُسَاهِمَهُ أفراحَهُ وأمجادَه؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ مِمّن بَقِيَ حَيًّا من قَبائِلَ انقرَضَتْ وهي تسكُنُ الكُهوفَ وتَلبسُ الجُلُودَ، وإن كنتَ الثاني فأنتَ في طَليعةِ أُمّةٍ تَسيرُ مَعَ الفَجرِ نَحو ظَهيرَةِ العَدالةِ والحَصَافَةِ(٢).

أَكاتِبٌ بَحَّاثَةٌ يَشمَخُ برأسِهِ إلى ما فَوقَ رُؤوسِنا أمَّا ما في دَاخِلِ رَأسِه فيَدُبُّ في هُوَّةِ المَاضي الغَابِرِ حيثُ ألقَتِ الأجيالُ ما رَثَّ مِن أثوابِها(٣)، ورَمَتْ ما لم يَعُدْ صَالِحًا لها، أم فِكرةٌ صَافِيَةٌ تَتَفَحَّصُ مُحيطَها

---

(١) لمعرفة معاني المفردات «بلسم، زُوان، بيادر»، راجع ص١٤٠.
(٢) الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.
(٣) ما رَثَّ من أثوابها: ما بليَ منها.

لتعلمَ ما يَنفَعُهُ وما يَضُرُّهُ فتَصرِفَ العُمرَ في بِناءِ النَافعِ وهَدْمِ المُضِرِّ؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ سَخَافَةٌ مُطرَّسَةٌ[1] وبَلادَةٌ مُزركَشَةٌ، وإن كنتَ الثاني فأنتَ خُبزٌ للجَائِعِينَ وماءٌ للظَامِئِينَ.

أشاعرٌ أنتَ يَضرِبُ الطُنبورَ أمامَ أبوابِ الأُمَراءِ ويَنثُرُ الأزهارَ في الأعراسِ ويَسيرُ وَراءَ الجُثَثِ الهَامِدَةِ وبينَ فَكَّيْهِ إسفِنجَةٌ مُثقَلَةٌ بالماءِ الفَاتِرِ، حتَّى إذا ما بَلَغَ المَقبرَةَ ضَغَطَ عَليها بلِسَانِهِ وشَفتَيْهِ[2]، أم مَوهوبٌ وَضَعَ اللهُ في يَدِهِ قيثارةً يَستَولِدُها أنغامًا عُلْوِيّةً تَجذُبُ قُلُوبَنا وتُوقِفُنا مُتَهَيِّبِينَ أمامَ الحَياةِ وما في الحَياةِ مِنَ الجَمَالِ والهَوْلِ؟

إن كنتَ الأوّلَ فأنتَ من المُشَعْوِذِينَ[3] الذين لا يُنبِّهُونَ في نُفُوسِنَا سِوَى عَكسِ ما يَقصِدُونَ، فإن تَباكَوا نَضْحَكْ، وإن مَرَحُوا نكتَئِبْ، وإن كنتَ الثانيَ فأنتَ بَصيرةٌ مُشَعشِعَةٌ وراءَ بَصَرِنا، وشَوقٌ عَذْبٌ في قُلوبِنا، ورُؤيا رَبّانِيّةٌ في غَيبُوبَتِنا.

أَقولُ في الشَرقِ مَوكِبان: مَوكِبٌ من عَجَائِزَ مُحدَوْدِبِي الظُهورِ

---

(١) مطرَّسة: مكتوبة.

(٢) أراد بالصورتين: شاعر مناسبات يهيّئ نفسه لكل مناسبة، ويهيّئ لكل مناسبة لبوسًا خاصًا، دون أن تكون الكلمةُ التي يقولُها تعبيرًا عن إحساس عاطفة صادقة اختلجت في حناياه.

(٣) المشعوذين: الدجّالين.

يَسيرون مُتَوَكِّئِينَ على العِصِيِّ العَوجَاءِ، ويَلهَثُون مَنهُوكِينَ[1] مَعَ أنّهُم يَنحَدِرُون مِنَ الأعَالي إلى المُنخَفَضَاتِ، ومَوكِبٌ مِن فِتيَانٍ يَتَراكضُون كأنَّ في أرجُلِهِم أجنِحَةً، ويُهَلِّلونَ كأنّ في حَنَاجِرِهم أوتارًا، ويَنتَهِبُونَ[2] العَقَبَاتِ كأنَّ في جَبهاتِ الجِبَالِ قُوّةً تَجذُبُهُم وسِحرًا يَختَلِبُ ألبابهم[3].

فمِن أَيّةِ فئَةٍ أنتَ أيُّها الشَرقيُّ وفي أَيِّ مَوكِبٍ تَسيرُ؟

ألا فَاسأَلْ نفسَك، استَجْوِبْهَا في سَكينَةِ اللَيلِ وقَد صَحَتْ من مُخَدِّراتِ مُحيطِها، عَمّا إذا كنتَ مِن عَبيدِ الأمسِ أم مِن أحرارِ الغَدِ؟

أَقولُ لكَ: إنَّ أبناءَ الأمسِ يَمشُونَ في جَنَازَةِ العَهد الذي أوجَدَهُم وأوجَدُوهُ. أقولُ: إنّهم يَشُدُّونَ بحَبْلٍ أوهَتِ الأيّامُ خُيُوطَهِ، فإذا ما انقَطَعَ -وعَمّا قَريبٍ ينقَطِعُ- هَبَطَ مَن تَعَلَّقَ بِهِ إلى حُفرَةِ النِسيانِ.

أقول: إنّهُم يَسكُنونَ مَنازِلَ مُتَدَاعِيَةَ الأركانِ[4]، فإذا ما هَبَّتِ العَاصِفَةُ -وهي عَلى وَشَكِ الهُبُوبِ- انهَدَمَتْ تلكَ المنازِلُ على

(١) منهوكين: أعياهُمُ التعبُ.
(٢) ينتهبون العقبات: يستولون عليها.
(٣) يختلب ألبابهم: يسحر قلوبهم.
(٤) متداعية الأركان: على وشك الانهيار.



«ديك الجن الحمصي»

بريشة جبران خليل جبران

رُؤوسِهم وكانَت لَهُم قُبُورًا. أقول: إنَّ أفكارَهُم وأقوالَهُم ومَنَازِعَهُم وتَصَانِيفَهُم[1] ودَواوِينَهم وكُلَّ مآتيهم ليسَت سِوى قيودٍ تَجُرُّهُم بثِقْلِها ولا يستَطيعُونَ جَرَّها لضُعفِهِم.

أَمّا أبناءُ الغَدِ فهُمُ الذينَ نادَتْهُمُ الحَياةُ فَاتَّبَعُوها بأقدامٍ ثَابتَةٍ ورُؤوسٍ مَرفُوعَةٍ. هُم فَجرُ عَهدٍ جَديدٍ، فلا الدُّخَانُ يَحجُبُ أنوارَهُم، ولا قَلقَلَةُ السلاسلِ[2] تَغمُرُ أصواتَهم، ولا نَتَنُ المُستَنقَعاتِ يَتَغَلَّبُ عَلى طِيبِهم. هُم طائفةٌ قليلةُ العَدَدِ بينَ طَوائِفَ كَثُرَ عَدَدُها. ولكِنْ، في الغُصنِ المُزهِرِ ما ليسَ في غَابةٍ يَابِسَةٍ، وفي حَبَّةِ القَمحِ ما ليسَ في رَابيةٍ من التِبنِ. هُم فِئَةٌ مجهولةٌ لكنَّهُم يَعرِفُون بعضَهم بعضًا، ومثلَ قِمَمٍ عَاليةٍ يَرى واحِدُهُمُ الآخَرَ ويسمَعُ نِداءَه ويُناجيه، أمّا المَغاوِرُ فعَمياءُ لا تَرى، وطرشاءُ لا تَسمَعُ. هُمُ النَواةُ التي طَرَحَها الله في حَقْلَةٍ ما، فَشَقَّتْ قِشرَتَها بعَزْمِ لُبابِها، وتَمايَلَتْ نَصبةً غَضَّةً[3] أمامَ وَجهِ الشَمسِ، وسوفَ تَنمُو شَجَرةً عُظمَى تَمتَدُّ عروقُها إلى قلبِ الأرضِ وتتصَاعَدُ فروعُها إلى أعماقِ الفَضاءِ.

---

(١) تصانيفهم: تآليفهم.

(٢) قلقلة السلاسل: الصوت الصادر عن تحريكها.

(٣) نصبة غضَّة: نديَّة، طريَّة، نَضِرَة.

الوحدة والانفراد

الحياةُ جزيرةٌ في بَحرٍ من الوَحدةِ والانفِراد.

الحياةُ جَزيرةٌ صُخُورُها الأماني، وأشجَارُها الأحلامُ، وأزهارُها الوَحشةُ، ويَنابيعُها التَعَطُّشُ، وهي في وَسَطِ بَحرٍ مِنَ الوَحدةِ والانفِرَادِ.

حياتُك، يا أخي، جَزيرةٌ مُنفَصِلَةٌ عَن جَميعِ الجُزُرِ والأقاليم، ومَهمَا سَيَّرتَ مِن المَراكِبِ والزَوارِقِ إلى الشَواطِئِ الأُخرى، ومَهما بَلغَ شَواطِئَكَ من الأسَاطِيلِ والعِمَارَاتِ[1] أنتَ أنتَ الجَزيرةُ المُنفرِدَةُ بآلامِها، المُستَوحِدَةُ بأفراحِها، البَعيدَةُ بحَنينِها، المَجهولةُ بأسرارِها وخَفاياها.

رأيتُكَ، يا أخي، جَالِسًا على رَابِيَةٍ مِنَ الذَهَبِ وأنتَ فَرِحٌ بثَروَتِكَ، مُتَفَوِّقٌ بغِنَاكَ، شاعِرٌ أن في كُلِّ حَفنَةٍ من التِبرِ سِلكًا خَفِيًّا يَصِلُ فِكرَةَ الناسِ بفِكرَتِكَ ويَربِطُ مُيُولَهم بمُيُولِكَ. ومثلَ فاتحٍ كَبيرٍ

(١) العِمَارات: جمع عِمارة وهي طائفة من السفن البحرية كالأسطول.

أبصَرْتُكَ تَقودُ فَيَالِقَ[1] جُنُودِ الظَفَرِ إلى المَعَاقِلِ الحَصِينَة فَتَدُكُّها، وَإلى المُستَحْكَمَاتِ[2] المَنيعةِ فتَمتَلِكُها. وَلكنَّني نظرتُ إليكَ ثانيةً فرأيتُ وَراءَ جُدرانِ خَزائِنِكَ قَلبًا يَختَلِجُ في وَحدَتِهِ وانفِرادِهِ اختلاجَ ظَامِئٍ في قَفَصٍ مَصنُوعٍ من الذَهَبِ والجَوَاهِرِ وَلكنَّه خَالٍ مِنَ المَاءِ.

رأيتُكَ، يا أخي، جَالِسًا عَلى عَرشٍ من المَجدِ وقَد وَقَفَ حَولَكَ الناسُ مَتَرَنِّمِينَ باسمِك، مُرَدِّدينَ حَسَنَاتِكَ، مُعَدِّدينَ مَوَاهِبَكَ، مُحَدِّقِينَ إليك كأنَّهُم في حَضرةِ نَبيٍّ يَرفَعُ أرواحَهم بعَزمِ رُوحِهِ ويطُوفُ بها بينَ النُجومِ والكَواكِبِ، وأنتَ تنظرُ إليهم وَعَلى وَجهِكَ سِيماءُ[3] الغِبطةِ والقُوّةِ والتَغَلُّبِ كأنَّكَ منهُم بمَقَامِ الرُوحِ من الجَسَدِ. ولكنَّني نظرتُ إليكَ ثَانيةً فرأيتُ ذاتَكَ المُستَوحِدَةَ واقِفَةً إلى جَانِبِ عَرشِكَ وهي تَتَوَجَّعُ بغُربَتِها وتَغَصُّ بوَحشَتِها. ثمّ رأيتُها تَمُدُّ يدَها إلى كُلِّ نَاحِيَةٍ كأنّها تَستَعطِفُ وتَستَعطِي الأشبَاحَ غيرَ المنظورَةِ. ثمّ رأيتُها تنظُرُ من فَوقِ رُؤوسِ النَاسِ إلى مَكانٍ قَصِيٍّ، إلى مَكانٍ خَالٍ مِن كُلِّ شَيءٍ سِوى وَحدَتِها وانفِرادِها.

---

(١) فيالق: مفردها فيلق، وهو الجيش العظيم.

(٢) المستحكمات: الأماكن المحصنّة أثناء الحروب من خنادق أو حصون.

(٣) سيماء: علامة.

رأيتُكَ، يا أخي، مَشغُوفًا بحُبِّ امرأةٍ جَميلةٍ وأنتَ تَسكُبُ عَلى مَفرِقِ شَعرِها ذَوْبَ قَلبِكَ وتَملأُ رَاحَتَيْها بقُبَلِ شَفتَيْكِ، وهي تنظُرُ إليكَ وأشِعَّةُ الانِعطافِ في عَينَيها وحلاوةُ الأمومةِ على ثَغرِها، فقلتُ بِسِرِّي: لقد أزالَتِ المَحبَّةُ وَحدَةَ هذا الرجُلِ ومَحَتِ انفِرَادَه، فعادَ واتَّصَلَ عَنها بالخُلُوِّ والسُلوانِ. ولكنَّني نظرتُ إليكَ ثانيةً فرأيتُ طَيَّ قَلبِكَ[1] المَشغُوفِ قَلبًا مُنفَرِدًا يريدُ أن يَسكُبَ مُخَبَّآتِهِ عَلى رأسِ المَرأةِ ولا يَقدِرُ، ورأيتُ وَراءَ نفسِك الذَائِبَةِ حبًّا نفسًا أُخرَى مُستَوحِدَةً شَبيهةً بالضَبابِ تَرومُ أن تَتَحَوَّلَ في حَفنَتَيْ رَفيقَتِك إلى قَطَرَاتٍ مِنَ الدُمُوعِ ولكنَّها لا تستَطيعُ.

حَيَاتُك، يا أخِي، مَنزِل مُنفَرِدٌ بَعيدٌ عن جَميعِ المَنازِلِ والأحياءِ.

حياتُك المَعنويَّة منزلٌ بَعيدٌ عَن سُبُلِ الظَواهِرِ والمَظاهِرِ التي يَدعُوها الناسُ باسمِكَ. فإن كانَ هذا المنزلُ مُظلِمًا فأنتَ لا تقدِرُ أن تُنيرَه بِسراجِ قَريبِكَ؛ وإن كانَ خَاليًا فأنتَ لا تستَطِيعُ أن تَهبِطَ بِهِ إلى وَادٍ وَطِئَتْهُ أقدامُ غَيرِك.

حَياتُكَ النَفسيّةُ، يا أخي، مُحَاطَةٌ بالوَحدةِ والانفِرادِ، وَلَولا هذهِ

---

(١) طيّ قلبك: داخله.

الوَحدةُ وذاكَ الانفِرادُ لَمَا كنتَ أنتَ أنتَ، وأنا أنا. لولا هـذه الوَحـدةُ وذاك الانِفرادُ لكنتَ إن سَمِعتُ صوتَك ظَننتُني مُـتكلِّمًا، وإن رأيـتُ وَجهَك تَوهَّمْتُ نفسِي ناظِرًا في المِرآة.

***

إرم ذات العماد

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ ﴾ [الفجر: ٦-٨]

(القرآن الكريم)

«يدخلها بعض أمّتي».

(الحديث)

توطئة لإرم ذات العماد

بَعدَ أن مَلَكَ شَدّادُ بن عَادٍ جَميعَ الدُنيا أمرَ ألفَ أميرٍ مِن جَبابِرَةِ قَومِ عَادٍ أن يَخرُجُوا ويَطْلُبُوا أَرضًا وَاسِعةً كثيرةَ الماءِ طيّبةَ الهواءِ بَعيدَةً عن الجِبَالِ ليبنيَ فيها مَدينةً مِن ذَهَبٍ. فخَرَجَ أُولئكَ الأمراءُ وَمَعَ كُلِّ أميرٍ ألفُ رَجُلٍ مِن خَدَمِهِ وحَشَمِهِ. فسَارُوا حتَّى وَجَدُوا أَرضًا وَاسِعَةً طَيِّبَةَ الهَواءِ فَأعجَبَتْهُم تلكَ الأرضُ فأَمَرُوا المُهَندِسِينَ والبَنّائِينَ فخَطُّوا مَدِينَةً مُربَّعَةَ الجَوَانِبِ دورُها أربعونَ فَرسَخًا[1] مِن كُلِّ جهةٍ عَشرةٌ، فحَفَروا الأساسَ إلى المَاءِ وبَنَوا الجُدرانَ بحِجَارَةِ

(١) الفرسخ: مقياس فارسي حوالى ثمانية كيلومترات.

الجَزعِ اليَمانِيِّ حتَّى ظَهَرَ على وَجهِ الأرضِ، ثُمَّ أحاطُوا به سُورًا ارتفاعُه خَمسُمائةِ ذراعٍ وغَشَّوهُ بصَفَائِحِ الفِضَّةِ المُمَوَّهَةِ بالذَهَبِ فلا يكادُ يُدرِكُهُ البَصَرُ إذا أشرَقَتِ الشمسُ. وكانَ شدَّادٌ قد بَعَثَ إلى جميعِ مَعادِنِ الدُنيا فاستَخرجَ منها الذَهَبَ واتَّخذه لَبِنًا[1]. واستَخرجَ الكنوزَ المَدفونَةَ، ثمّ بَنَى داخلَ المَدينةِ مائةَ ألفِ قَصرٍ بعَدَدِ رُؤساءِ مَملكتِه كُلَّ قصرٍ على أعمِدةٍ من أنواعِ الزبرجَد[2] واليَواقيتِ مُعقدةٍ بالذَهَبِ طُولُ كُلِّ عَمودٍ مائةُ ذِراعٍ. وأجرَى في وَسَطِها أنهارًا وعَمِلَ مِنها جَداوِلَ لتِلكَ القُصورِ والمَنَازلِ، وجَعَلَ حَصاها من الذَهَبِ والجَواهِرِ واليَواقيتِ، وحَلَّى قُصورَها بصفَائح الذَهَبِ والفِضّةِ، وجَعَلَ على حَافَّاتِ الأنهارِ أنواعَ الأشجارِ جُذوعُها من الذَهَبِ وأوراقُها وثَمَرُها من أنواعِ الزبرجدِ واليَواقيتِ واللآلئ. وطَلَى حيطانَها بالمِسكِ والعَنبرِ، وجَعَلَ فيها جَنّةً مزخرفةً له. وجَعَلَ أشجارَها الزمردَ واليواقيتَ وسائرَ أنواعِ المَعادن. ونصبَ عليها أنواعَ الطيورِ المَسمُوعَةِ الصادحِ والمُغرِّدِ وغيرَ ذلك.

«الشعبي في كتاب سير الملوك»

---

(١) اللَبِن: واحدته «لَبِنَة» وهي قطعة طين تُستعمل في النباء.

(٢) الزبرجد: حجر كريم يشبه الزمرّد.

إرم ذات العماد

المكان: غابة صغيرة من الجوز والحور والرمّان تحيط بمنزل قديم منفرد بين منبع العاصي وقرية الهرمل في الشمال الشرقي من لبنان.

الزمان: عصارى يوم من أيّام تموز (يوليو) في سنة ١٨٨٣م.

أشخاص الرواية:

زين العابدين النهاوندي: وهو درويش عجمي في الأربعين من عمره، معروف بالصوفي.

نجيب رحمة: أديب لبناني في الثالثة والثلاثين.

آمنة العلوية: معروفة في تلك النواحي بجنيّة الوادي، ولا أحد يعرف عمرها.

يرفع الستار فيظهر «زين العابدين» متكئًا على ساعده في ظلال الأشجار وهو يرسم برأس عصاه الطويلة خطوطًا مستديرة على التراب. بعد هنيهة يدخل الغابة «نجيب رحمة» راكبًا على فرس ثمّ يترجّل ويربط مقود فرسه بجذع شجرة وينفض الغبار عن ملابسه ثمّ يقترب من زين العابدين.

نجيب رحمة: السلامُ عليك يا سَيّدي.

زين العابدين: وعليكَ السَلام (ويحوّل وجهه قائلاً في نفسه): أمّا السلامُ فنَقبَلُه، وأمّا السِيادَةُ فلا نَدري أنقبَلُها أم لا؟

نجيب (ينظر حواليه مستفحصًا): أهنا تَسكُنُ «آمنةُ العَلَوِيَّةُ»؟

زين العابدين: هذا مَنزِلٌ من مَنازِلِها.

نجيب: أَتَعني يا سَيِّدُ أنَّ لها بَيتًا آخَرَ؟

زين العابدين: لَهَا منازِلُ لا عِدَادَ لَها.

نجيب: منذُ الصَباحِ وأنا أبحَثُ وأَسأَلُ كُلَّ مَنْ لَقِيتُه عَن مَقَرِّ آمِنَةَ العَلَوِيّةِ ولم يَقُلْ لي أَحدٌ إنَّ لها مَنزِلَيْنِ أو أكثَرَ.

زين العابدين: هذا دليلٌ على أنّك لم تَلتقِ منذُ الصَباحِ غيرَ مَنْ لا يَرَى إلاَّ بعَينَيهِ ولا يسمَعُ إلاَّ بأُذُنَيهِ.

نجيب (مستغربًا): رُبّما كانَ الأمرُ مِثلَما تقولُ. ولكِنْ، أَصْدِقْنِي، يا سيِّدي، أَفي هذا المَكانِ تَسكُنُ آمنةُ العَلَوِيّةُ؟

زين العابدين: نَعَمْ، في هذا المَكانِ يَسكُنُ جسدُها بعضَ الأَحَايِينِ.

نجيب: وهَلاَّ أخبَرتَني أينَ هِيَ الآنَ؟

زين العابدين: هِيَ في كُلِّ مكان. (مشيرًا بيده إلى الجهة الشرقيّة) أمّا جسدُها فيَسِيرُ مُتَجَوِّلاً بينَ تلكَ التُلولِ والأوديةِ.

نجيب: وهَل تَعودُ اليومَ إلى هذا المَكانِ؟

زين العابدين: ستَعودُ إن شاءَ اللهُ.

نجيب (يجلس على صخر أمام زين العابدين ثمّ يتفحصه طويلاً): يَبدُو لي مِن لِحيتِكَ أنّكَ فارِسيّ.

زين العابدين: نَعم، وُلِدتُ في نَهاوَنْدَ، وربيتُ في شِيرازَ، وتَثَقَّفتُ في نيسابورَ[1]، وجُبتُ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، وأنا غريبٌ في كُلِّ مَكانٍ.

نجيب: كُلُّنا غَرِيبٌ في كُلِّ مَكانٍ.

زين العابدين: لا وَالحقِّ، فقد لَقِيتُ وَحَدّثتُ ألفَ ألفٍ من النَاسِ فَلَمْ أرَ سِوى المُكتَفِينَ بمُحِيطِهِم، المُستَأنِسِينَ بِالْفِهِمْ[2]،

---

(١) نهاوند وشيراز ونيسابور: مدن في إيران.

(٢) بِإلفِهِمْ: بصَديقهم ومُؤانِسِهم.

المُنصرِفينَ عن العَالَمِ إلى الفُسحَةِ الضَيِّقَةِ التي يَرَوْنَها من العَالَمِ.

نجيب (مُعجبًا بكلام جَليسِه): الإنسانُ، يا سيّدي، مطبوعٌ على حُبِّ المَكانِ الذي وُلِدَ فيه.

زين العابدين: المَحدودُ منَ الناسِ مطبوعٌ على حُبِّ المَحدودِ منَ الحَياةِ، وشَحيحُ البَصَرِ لا يَرَى غيرَ ذِراعٍ مِنَ السَبيلِ الذي تَطأُهُ قَدَمَاهُ، وذراعٍ مِنَ الحَائِطِ الذي يَسنُدُ إليه ظَهرُه.

نجيب: ليسَ لِكُلٍّ مِنّا المَقدَرَةُ على الإحاطَةِ بكُلِّيَّاتِ الحَياةِ. ومِنَ الظُلمِ أن تَطلبَ مِن شَحيحِ البَصَرِ أن يَرَى البَعيدَ والضَئيلَ.

زين العابدين: أَصَبْتَ وأحسَنْتَ، فَمِنَ الظُلمِ أن نَطلُبَ الخَمرَ من الحِصرِمِ.

نجيب (بعد دقيقة سكوت): اسمَعْ، يا سيدي: منذُ أعوامٍ وأنا أسمَعُ الأخبارَ عن آمنةَ العَلَويّةِ، ولقَد أَثَّرتْ بي هذه الأخبارُ إلى دَرجَةٍ قُصوى، فَعَزَمتُ على الاجتِماعِ بها لاستِفسارِها ومَعرِفَةِ أسرارِها وخَفَايَاها.

زين العابدين (يقاطعه): أيوجَدُ في هذا العَالَمِ مَنْ يَستطيعُ مَعرِفَةَ

أسرارِ آمنةَ العَلَويّةِ وخَفاياها؟ أيوجَدُ بَينَ البَشرِ مَنْ يَقدِرُ أن يَسيرَ مُتَجوِّلاً مُتَنزِّهًا في قاعِ البَحرِ كَأنّه في حَدِيقَةٍ؟

نجيب: قد أسأتُ التَعبيرَ، يا سَيّدي، فسَامِحْني. أنا لا أقدِرُ بالطَبعِ على الإحاطَةِ بمَكنُوناتِ آمِنَةَ العَلَويّةِ، ولكنَّني أرجُو أن أسمَعَ منها حِكايَةَ دُخُولِها إلى إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ.

زين العابدين: ما عليكَ سِوى الوُقُوفِ في بَابِ حُلمِها، فإن فُتِحَ لكَ بَلَغْتَ قَصدَكَ، وإن لم يُفتَحْ فأنتَ المَلُومُ.

نجيب: مَاذا تَعني، يا سَيّدي، بقَولِكَ إنْ لم يُفتَحْ لي كنتُ أنا المَلُومَ؟

زين العابدين: أَعنِي أنَّ آمنةَ العلويّةَ أدرى الناسِ مِنهُم بنُفُوسِهم، فهي تَرَى بلَمحَةٍ واحِدَةٍ ما في ضَمَائِرِهم وقُلُوبِهم وَأرواحِهِم، فإن وَجَدَتْكَ خَليقًا بمُحادَثتِها حَدّثَتْكَ وَإلاَّ فلا.

نجيب: ماذا أقولُ وماذا أفعَلُ لأكونَ حَرِيًّا(1) باستِماعِ حَديثِها؟

زين العابدين: عَبَثًا تُحاولُ الدُنُوَّ مِن آمنةَ العَلَويّةِ بوَاسِطَةِ القَولِ

(1) حريًّا: جديرًا، خليقًا.

والعَملِ، فهي لا ولن تُصغِيَ إلى ما تَقُولُه. لا، ولا تَنظُرُ إلى ما تَفعَلُهُ؛ بل سَوفَ تَسمَعُ بأُذُنِ أُذنِها ما لا تقُوله وتَرَى بعَينِ عَينِها ما لا تفعَلُه.

نجيب (تظهر على ملامحه سيماء الدهشة): ما أَبلَغَ كلامَكَ هذا وما أجمَلَه!

زين العابدين: ليسَ ما أقولُ عن آمِنَةَ العَلَويّةِ سوى دَندَنَةِ[1] أَخرَسَ يريدُ أن يُغَنِّيَ نَشِيدًا.

نجيب: أتعلمُ يا سَيّدي أينَ وُلِدَتْ هذهِ المَرأةُ العَجيبة؟

زين العابدين: وُلِدَتْ في صَدرِ الله.

نجيب (ملْتبكًا)[2]: أَعني أينَ وُلِدَ جَسَدُها؟

زين العابدين: بجِوارِ دِمَشقَ.

نجيب: وَهَلاَّ أخبَرْتَني شَيئًا عن وَالِدَيْها وتَربيتِها؟

زين العابدين: مَا أشبَهَ سؤالاتِك هذهِ بسُؤالاتِ القُضاةِ والمُتشرِّعِينَ: أفتظُنُّ أنّك تستطيعُ إدراكَ الجَواهِرِ باستِفسارِكَ

---

(١) دَندنة: تنغيمٌ من غير إفهام كلمةٍ مما يُنَغَّم.
(٢) مُلْتبكًا: من الْتبَكَ: اختَلَطَ وَ الْتَبَسَ. وقد يكون المقصود: مرتبكًا.

الأعراضَ، أو مَعرِفَةَ طَعْمِ الخَمرةِ بمُجَرَّدِ النَظَرَ إلى خَارِجِ الجَرَّةِ؟

نجيب: بَينَ الأرواحِ وأجسَادِها رَابِطَةٌ، وبينَ الأجسَادِ ومُحِيطِها عَلاقَةٌ. ولَمَّا كنتُ لا أعتقدُ بالصُدَفِ، أرَى أنَّ النَظَرَ في تلكَ الروابطِ وتلك العَلاقاتِ لا يَخلُو مِنَ الفَائِدَةِ.

زين العابدين: أعجَبْتني، أعجَبْتني! يَلُوحُ لي أنّك عَلى شَيءٍ مِنَ العِلمِ. إذًا، فاسمَعْ: لا أعرفُ شَيئًا عَن والدَةِ آمِنَةَ العَلويّةِ سِوى أنّها ماتَتْ وهي تَتَمَخَّضُ بابنتِها. أمّا والدُها الشيخُ عَبدُ الغنيِّ الضَريرُ المشَهورُ بالعَلوِيِّ، فقَد كان إمامَ زَمانِهِ في العُلُوم البَاطِنيّةِ[1] والتَصَوُّفِ. وقَد كان، رَحِمَهُ الله، وَلُوعًا بابنتِه إلى دَرجَةٍ قُصوى، فهَذَّبَها وثَقَّفَها وسَكَبَ في رُوحِها كُلَّ ما في رُوحِه. ولَمَّا بَلَغَتْ أَشُدَّها، أدرَكَ أن العُلومَ التي أخذَتْها عنه لم تكُن مِنَ العِلمِ الذي أُنْزِلَ عَلَيْها ألاَّ بمَقامِ الزَبَدِ مِنَ البَحرِ، فَصَارَ يقُول عنها: لقد انبثَقَ من ظُلمَتي نُورٌ أستَضِيءُ به.

ولَمَّا بَلغَتِ الخَامسَةَ والعِشرينَ، خَرَجَ بها لأداءِ فَريضَةِ الحَجِّ. ولما قَطَعَا باديَةَ الشَامِ وأصبَحَا على بُعدِ ثَلاثِ مراحِلَ مِنَ المَدينةِ المُنَوَّرَةِ

(١) المحصورة على فئة معينة من الناس دون سواها.

بُلِيَ الضَريرُ بالحُمَّى وتُوُفِّيَ، فدفَنَتْهُ ابنتُه في خُفِ[1] جبَلٍ هُناكَ وجَلسَتْ على قَبرِه سبعَ ليَالٍ تُناجي روحَه وتَستكشِفُها أسرارَ الغَيبِ وتَستَعلِمُ منها عمّا وراءَ الحِجاب.

وفي الليلةِ السَابعةِ أوحَتْ إليها رُوحُ والدِها أن تُطلِقَ رَاحِلتَها وتَحمِلَ زادَها على عَاتِقِها وتَسيرَ من ذلكَ المَكانِ إلى الجَنُوبِ الشَرقِيِّ، ففعلت.

(يسكت دقيقة ويحدق إلى الأفق البعيد ثمّ يعود إلى الكلام):

وظلَّمتْ آمنةُ العَلَويةُ سائرةً في البَاديةِ حتَّى وَصَلَتْ إلى «الرُبعِ الخَالي» وهو قلبُ الجَزيرةِ الذي لم تَختَرِقْهُ قَافِلَةٌ ولم يَصِلْ إليه سِوى أفرادٍ قَليلينَ منذُ بَدءِ الإسلامِ إلى يومِنا هذا. أمّا الحُجّاجُ فظَنُّوا أنها تَاهَتْ في تلك القِفارِ وقَضَتْ جُوعًا، ولمَّا عَادُوا إلى دِمَشْقَ أَخبَرُوا الناسَ بذلك، فَحَزِنَ عليها وعلى أبيها مَنْ عَرَفَ فَضلَهُما ثمّ التَحَفَ ذِكرَهما النِسيانُ كأنّهما مَا كانا...

وبعدَ خَمسةِ أعوامٍ ظهَرَتْ آمنةُ العَلَويةُ في المَوصِلِ[2]. وكان

(١) خُفِ الجبل: أصله.

(٢) المَوْصِل: مدينة في شمال العراق على دجلة. قربها أطلال نينوى عاصمة أشُّور. لُقِّبت بالحدباء وأُمّ الربيعَيْن. مركز صناعي وزراعي، وفيها أهمّ حقول النفط.

ظهورُهَا بمَا هِي عَليهِ مِنَ الجَمَالِ والهيبَةِ والعِلمِ والصَلاحِ، أشبَهَ شَيءٍ بهُبُوطِ نَيزَكٍ[1] مِنَ الفَضَاءِ. فقد كانَت تَسيرُ بينَ الناسِ مُسفِرَةً[2] وتَقِفُ بحَلقَاتِ العُلَماءِ والأَئِمَّةِ مُتكَلِّمَةً عَنِ الأُمورِ الرَبّانِيَّةِ، وتَصِفُ لَهُم مَشاهِدَ إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ بفَصَاحَةٍ ما سَمِعَ القومُ بمِثلِها.

ولما اشتُهِرَ أمرُها وكَثُرَ عَدَدُ أتباعِها وَمُرِيدِيها، خافَ عُلماءُ المَدينةِ ظُهُورَ بِدعَةٍ، وخَشَوا الفِتنَةَ، فشَكَوْها إلى الوالي، فاستَقْدَمَها هذا إليهِ وَأَلقَى بينَ يَدَيْها صُرَّةً مِنَ الذَهَبِ وطَلَبَ إليها أن تُغادِرَ المَدينة، فرفَضَتِ المَالَ وتَرَكَتِ المَدينةَ لَيلاً دُونَ أن يَصحَبَها أحدٌ مِنَ الناس. ثُمّ تَوَجَّهَتْ إلى الآسِتانَةِ فحَلَبَ فَدِمَشْقَ فَحِمْصَ فطَرابُلسَ.

وَكانَت في كُلِّ مَدينةٍ من هَذهِ المُدُنِ تُثيرُ ما سَكَنَ في نُفُوسِ الناسِ وتُشعِلُ ما خَمَدَ[3] في وِجدَانِهم، فيَلتَفُّونَ حَولَها ويُصغُونَ إلى مُحَاضَرَاتِها وأحَادِيثِ اختِباراتِها العَجيبةِ مجذُوبينَ بعَوامِلَ قَويّةٍ سِحريّةٍ. غيرَ أنَ أئمّةَ الدِينِ وشُيوخَ العلمِ في كُلِّ بَلَدٍ، كانُوا يُصادِرُونَها ويُفَنِّدُونَ أقوالَها ويَعرِضُونَ بها إلى الحُكّامِ.

---

(١) نيزك: جسم يخترق الجو، يحتدم فيضيء.
(٢) مُسفِرة: كاشفة عن وجهها، دون حجاب.
(٣) خَمَدَ: انطفأ.

بعدَ ذلكَ طلبَتْ نفسُها العُزلَةَ، فجاءَتْ هـذا المَكـانَ منـذُ أعـوامٍ واستَوحَدَتْ بِهِ زاهِدَةً مُتعبّدةً مُنصَرِفَةً عَن كُلِّ شَيءٍ سِوى التَعمُّـقِ في الأسرارِ الرَّبّانيةِ.

هذا قليلٌ من كَثيرٍ أَعرِفُهُ عَن حَياةِ آمنةِ العَلويّةِ. أمّا مَا حبَاني[1] الله بمَعرِفَتِهِ عَن ذاتِها المَعنويّةِ وما يَتآلفُ في نَفسِها مِنَ القُـوى والمَواهِـبِ فليسَ بإمكَاني الكلامُ عنهُ الآنَ. ومَن مِنَ البَشَرِ، يا تُـرى، يـستطيعُ أن يجَمَعَ الأثيرَ المُحِيطَ بهذا العالَمِ في كُؤوسٍ وأكوابٍ؟

نجيب (متأثرًا): أشكُرُ لك، يا سَيّدي، ما تفضَّلتَ وحَـدَّثتَني بـهِ عن هذهِ المَرأةِ العَجيبَةِ. لقَد ضَاعَفْتَ شَوقي إلى الوُقُوفِ بحَضرَتِها.

زين العابدين (يتفرّس فيه دقيقة): أنتَ مَسِيحيٌّ. أليسَ كذلك؟

نجيب: نعم، وُلدتُ مَـسيحيًا، غَـيرَ أنـني أعلَـمُ أننـا إذا جَرَّدْنـا الأديانَ مِمّا تَعلَّقَ بها مِنَ الزَوائِدِ المَذهبِيَّـةِ والاجتِماعِيَّـةِ وَجَـدْناها دِينًـا واحِدًا.

زين العابدين: أصبتَ، وليسَ بينَ البشَرِ أدرى بالوَحـدة الدِينيَّـة

(١) حباني: وهبني، منحني.

المُجرَّدةِ مِن آمنَةَ العَلَويّة، فهي في الناسِ عَلى اختلافِ طَوَائِفِهم كَنَدَى الصَباحِ الـذي يَهـبِطُ مِـنَ الأعَـالي ويَنعَقِـدُ دُرًّا مُشَعـشِعًا بـينَ أَوراقِ الأزهارِ المُتبَايِنَةِ لونًا وشَكلاً. نَعَمْ، هِي كَنَدَى الصبَاحِ...

(يقف زين العابدين فجأة عن الكلام ويلتفت إلى الجهة الشرقية مصغيًا ثمّ ينتصب على قدميه ويومئ إلى نجيب أن ينتبه فيفعل هذا ممتثلاً).

زين العابدين (هامسًا): هي ذي آمنةُ العَلَوِيّة.

(يرفع نجيب يده إلى جبهته كأنّه أحسّ بحُدوث تغيير في دقائق الهواء، ثمّ الهواء، ثمّ ينظر فيرى العلويّة آتية، فتتغيّر ملامحه ويضطربُ في داخله؛ ولكنّه يبقى واقفًا في مكانه كالتِمثال... تدخل آمنة العلوية وتقف أمام الرجلَيْن وهي بهيئتها وحركاتها وملابسها أقربُ إلى مَعبودات الشُعوب الغابرة منها إلى امرأة شرقيّة في الزمن الحاضر. ومن الصعب تحديد عمرها بمجرّد النظر إلى مَلامِحِها، فكأنَّ الشبابَ في وَجهها يستر ألف سنة من المعرفة والاختبار. أمّا نجيب وزين العابدين فيظلان جامدَيْن خاشعَيْنْ متهيبَيْنْ كأنهما بحضرة نبيّ من أنبياء الله... وبعد أن تحدِّق العلويّة إلى وَجه نجيب كأنها تخترقُ بنظراتها صَدره، تدنو منه وقد انبسطت ملامِحُها وابتسمت، وبصوتٍ عَذْبٍ تقول):

آمنة العلوية: جِئْتَنَا أيُّها اللبنانيُّ مُتَنَسِّمًا[1] أخبارَنا مُستَفْحِصًا حَالنَا. ولن تجدَ بنا إلاَّ ما بكَ، ولن تسمَعَ منَّا إلا ما عَرَفتَهُ في نفسِك.

نجيب (مفعولاً)[2]: ها قَد رأيتُ وسَمِعتُ وصَدَّقتُ واكتفيتُ.

العلويّة: لا تكُن قَنُوعًا بالقَليلِ، فمَنْ يَرِدُ[3] يَنابِيعَ الحَياةِ بجَرَّةٍ فَارِغَةٍ صُرِفَ بجَرَّتَيْنِ طافِحَتَيْنِ.

(تمدّ يدها إليه فيتناولها بكلتا يديه خاشِعًا مُحتشِمًا ويقبّلُ أطرافَ أصابِعِها مدفوعًا بعامل خَفيّ. تلفتُ إلى زَين العابدين وتُمدُّ يدَها إليه، فيفعل هذا فِعْلَ نجيب، ثمّ تتراجعُ قليلاً إلى الوراء، وتجلسُ على حَجَرٍ مَنحوت أمام بيتها، وتشير إلى صخرٍ قريب، وتقول لنجيب): هذهِ مقاعِدُنا فَاجْلِسْ.

(يجلس نجيب ويفعل زين العابدين فعله).

العلويّة: إنّا نرى بعَينَيك نُورًا مِن أنوارِ الله؟ ومَن ينظُرُ إلينا ونُور الله في عَينَيه يَرى حَقيقَتَنا عاريةً مُجَرَّدَةً. وإنَّا نَرَى بوَجهِكَ ما يَرفَعُهُ

(١) متنسِّمًا أخبارنا: من تنسَّم الخبر: تلطَّف في التماسه شيئًا فشيئًا، أو تَتَبَّعَهُ.
(٢) مفعولاً: يقصد: منفعلاً.
(٣) يَرِدُ ينابيع الحياة: يقصدها.

الإخلاصُ عن حُبِّ الاستِطلاعِ إلى الرَغبةِ في الحَقِّ. فإن كانَ على لسانِكَ كلمةٌ فَقُلْهَا فنحنُ إليك مُصغُون. وإنْ كان في قلبِكَ سؤالٌ فَاطْرَحْهُ فنَحنُ لكَ مُجيبونَ.

نجيب: جئتُ مُستَعلِمًا عَن أمرٍ يَتَحَدَّثُ الناسُ به لغَرابَتِهِ، ولكنّي ما وقفتُ بحَضرتِكِ حتَّى علمتُ أنَّ الحياةَ مظاهرُ الرُوحِ الكُلِّيَّةِ، فكان مَثَلِي مَثَلَ صَيَّادٍ ألقىَ شَبَكَتَهُ في البَحرِ ليَصطادَ سَمَكًا، ولمَّا اجتَذَبَها إلى الشَاطِئِ وَجَدَ فيها صُرَّةً من الحِجَارَةِ الكَرِيمَةِ.

العلويّة: جئتَ تَسأَلُنا عن دُخُولِنا إِرَمَ ذاتَ العِمَادِ؟

نجيب: نَعَمْ: يا سيدتي. منذُ حَدَاثَتي وهذهِ الكَلِماتُ الثَلاثُ «إِرَمُ ذاتُ العِمَادِ» تعانِقُ أحلامِي وتتمَشَّى مع خَيالي بمَا وراءَها مِنَ الرُمُوز والمَقَاصِدِ الخَفِيّة.

العلوية: (ترفع رأسها وتغمض عينيها وبصوت يخاله نجيب آتيًا من قلب الفضاء تقول): أجَلْ، قد بَلَغْنا المَدينَةَ المَحجُوبَةَ ودخَلْنَاها وأَقَمْنا فيها ومَلأنا رُوحَنا مِن أَريجِها، وقَلَبْنا من أسرارِها، وجُيُوبَنا من لُؤلُؤِها وياقوتِها، فمَنْ يُنكِرُ عَلينا ما شاهَدْناه وعَرَفْناه كانَ ناكِرًا لذَاتِهِ أمامَ الله.

نجيب (متأنّيًا): مَا أنا، يا سَيّدتي، سِوى طِفلٍ يَلثَغُ[1] مُتَلَعْثِمًا بِمَا يُريدُ بَيانَه، فإن سألتُكِ عَن أمرٍ فبِخُشُوعٍ أَسأَلُ. وإنِ استَقْصَيْتُ أمرًا فبِإمعَانٍ وَإخلاصٍ. فَهَلاَّ جَعَلْتِ عَطفَكِ عَلَيَّ شَفيعًا بي لَدَيْكِ إذا ما أَتعَبْتُ سِرَّكِ بِسُؤالاتي الكَثيرةِ؟

العلويّة: سَلْ ما شِئتَ، فَقَدْ جَعَلَ اللهُ الحقيقةَ ذاتَ أبوابٍ يفتحُها بوَجْهِ مَنْ يَطرُقُها بِيَدِ الإيمانِ.

نجيب: هَل دخلتِ إرَمَ ذاتَ العِمَادِ بالجَسَدِ أم بالرُوحِ؟ وهل هِي مَدينةٌ مَصنُوعَةٌ من عَنَاصِرِ الأرضِ المُتبَلوِرَةِ وقَائمةٌ في بُقعَةٍ مَعلُومَةٍ مَن الأرضٍ، أم هي مَدينَةٌ رُوحِيَّةٌ تَرمُزُ عَن حالةٍ رُوحِيَّةٍ يَبلُغُها أنبياءُ الله وَأَولياؤه في غَيبُوبَةٍ يُلقيها اللهُ نِقابًا على نُفُوسِهِم؟

العلويّة: ليسَ ما نراهُ على الأرضِ ومَا لا نراهُ سِوى حَالاتٍ رُوحِيَّةٍ، وأنا قَد دَخلتُ المَدينةَ المَحجُوبَةَ بجَسَدِي وَهو رُوحِي الظاهِرةُ، ودخلتُها برُوحي وهي جَسدِي الخَفِيُّ. ومَنْ يُحاولُ التَفريقَ بينَ ذَرَّاتِ الجَسَدِ كان في ضَلالٍ مُبِين. إنّما الزَهرةُ وعِطرُها شَيءٌ

---

(١) يلثغ: يرتبك في الكلام، وكأنَّ في لسانه ثقلاً. والأصل في المعنى: النُطق بالسين كالثاء، وبالراء كالغَين أو كالياء أو كاللام.

وَاحِد. فالأعمَى الذي يُنكِرُ لـونَ الزَهـرةِ وصُـورَتَها قـائلاً: «لَيـسَتِ الزهرةُ سِوى عِطرٍ يَتَمَوَّجُ في الأثير» لـيسَ هـو إلاَّ كـالمَزكُومِ(١) الـذي يَقولُ: «ليستِ الأزهارُ غيرَ صُورٍ وَألوانٍ».

نجيب: إذًا فالمَدينةُ المَحجُوبَةُ التي نَدعُوها بإرمَ ذاتِ العِمادِ، حَالةٌ رُوحِيَّةٌ؟

العَلَويّة: كُـلُّ مَكـانٍ وَزمـانٍ حَالَـةٌ رُوحيَّـةٌ. وكُـلُّ المَرئيَّـاتِ والمَعقُولاتِ حَالاتٌ رُوحِيَّة. فإن أغمَضْتَ عَينَيكَ ونظرتَ في أعـماقِ أعماقِكَ رأيتَ العَالَمَ بكُلِّياتِهِ وجُزئِيَّاتِهِ، وخَبرتَ ما فيهِ منَ النَـوامِيسِ، وعَلِمْتَ ما يُلازِمُهُ مِنَ الذَرائِعِ وفَهِمْتَ مـا يَتَلَمَّـسُهُ مِـنَ المَحجَّـاتِ. أَجَلْ، إنّـكَ إذا أَغمَـضْتَ بَـصَرَكَ وفَتَحْـتَ بَـصيرَتَكَ، رأيـتَ بِدايَـةَ الوُجُودِ ونِهايَتَه، تلكَ النِهايةَ التي تَصِيرُ بِدَورِها بِدايةً وتِلـكَ البِدَايَـةَ التي تَتَحَوَّلُ إلى نِهايَةٍ.

نجيب: وهَل بإمكانِ كُلِّ إنسانٍ أن يُغمِضَ عَينَيـه ويَـرَى جَـوهَرَ الحَياةِ المُجَرَّدَ؟

---

(١) المزكوم: المصاب بالزكام، أو بـ«الرشح» كما يقول العامّة.



العلويّة: يَستَطِيعُ كُلُّ إنسانٍ أن يَتَشَوَّق ثُمَّ يَتَشَوَّق ثم يَتَشَوَّق حتَّى يَنزَعَ الشوقُ نِقابَ الظَواهِرِ عَن بَصَرِهِ، فيُشاهِدَ إذ ذاكَ ذاتَه. ومَن يَرَ ذاته يَرَ جَوهَرَ الحَياةِ المُجَرَّد. فكلُّ ذاتٍ هي جَوهَرُ الحَياةِ المُجَرَّد.

نجيب (يضع يده على صدره): إذًا كُلُّ ما في الوُجُودِ من مَحسُوسٍ ومَعقُولٍ كائِنٌ هُنا، هُنا في صَدري؟

العلويّة: كُلُّ ما فِي الوُجُودِ كائِنٌ فيكَ، وبك، ولكَ.

نجيب: أبإمكَاني أن أقولَ لِذَاتي: إنَّ إرَمَ ذَاتَ العِمَادِ مَوجُودَةٌ في باطِني لا في خَارِجي؟

العلويّة: كُلُّ ما في الوُجُود كائِنٌ في باطِنِكَ، وكُلُّ ما في بَاطِنِكَ مَوجُودٌ في الوُجُودِ. وليسَ هُناكَ مِن حَدٍّ فَاصِلٍ بَينَ أقرَبِ الأشياءِ وأقصَاهَا، أو بَينَ أعلاهَا وأخفَضِها، أو بينَ أصغَرِها وأعظَمِها، فَفي قَطرَةِ المَاءِ الوَاحِدَةِ جَميعُ أسرارِ البِحَارِ، وفي ذَرَّةٍ وَاحِدَةٍ جميعُ عَناصرِ الأرضِ، وفي حَرَكةٍ واحِدَةٍ من حَرَكاتِ الفِكرِ كُلُّ ما في العالَمِ من الحَرَكاتِ والأنظِمَةِ.

«مجنـــون ليـــلى»

بريشة جبران خليل جبران



نجيب (تظهر على وجهه علامات الالتباس)[1]: قد قيلَ لي، يا سيّدتي: إنّكِ قطعتِ المسافاتِ الشاسِعَةَ حتّى بَلغْتِ ذلكَ المَكانَ المَعروفَ بالرُبعِ الخالي في قَلبِ الجَزيرَةِ. وقيلَ لي: إنَّ روحَ وَالدِكِ كانَتِ المُوحِيَةَ إليكِ، والهَادِيَةَ لكِ، والسَائِرَةَ حتّى بلغتِ إِرَمَ ذاتَ العِمادِ. أفليسَ عَلى الرَاغِبِ في الوُصُولِ إلى تلكَ المَدينةِ المَحجُوبَةِ أن يكونَ في حَالةٍ شَبيهَةٍ بحَالتِكِ، وأن تكُونَ له الوَسائِلُ الجَسَدِيَّةُ والأسبابُ المعَنويّةُ ليحصَلَ على ما حَصَلْتِ أنتِ عَليه؟

العلويّة: أجَلْ، قد قَطَعْنَا الصَحَارى، وقَاسَيْنا الجُوعَ والعَطَشَ، وخَبَرْنَا مَخاوِفَ النَهارِ ورَمْضَاءَه[2]، وأهوالَ الليلِ وسَكِينَتَهُ قبلَ أن رَأينا أسوارَ مَدينةِ الله. ولكِنْ قَد بَلَغَ مَدينةَ الله قَبلَنا مَنْ لم يَسِرْ خُطوَةً، وعَرَفَ جَمالَها وبَهاءَها مَنْ لَم يَختَبِرْ جُوعًا في الجَسَدِ أو عَطشًا في الرُوحِ. إي وَالحقِّ، لقد طَافَ في المَدينةِ المُقَدَّسَةِ إخوانٌ لنا وأخواتٌ دُونَ أن يَخرُجُوا مِنَ المنازِلِ التي وُلِدُوا فيها.

(تسكت هنيهة ثم تومئ بيدها إلى الأشجار والرياحين المحيطة

(١) الالتباس: الحيرة، الغموض.
(٢) الرمضاء: شدّة الحرّ.

بها): لكلِّ بَذرَةٍ مِنَ البُذُورِ التي يُلقِيهَا الخَرِيفُ في أَديمِ التُّرابِ أساليبُ خَاصّةٌ في فَسخِ قِشرَتِها عَن لُبابِها وفي تكوِينِ أوراقِها فأَزهارِها فأَثمارِها. ولكِنْ، مَهمَا تبايَنَتِ الأساليبُ فمَحَجَّةُ جَميعِ البُذُورِ تَظَلُّ واحِدَةً. وتَلكَ المَحَجَّةُ[1] هِي الوُقوفُ أمامَ وَجهِ الشَمسِ.

زين العابدين (يتمايل إلى الأمام وإلى الوراء متأثرًا كأنه انتقل بالروح إلى عالم سام ثم يصرخ بصوت رخيم): الله أكبَر، لا إلهَ إلا الله الكَريمُ الوهَّابُ المُلقي ظِلَّهُ بينَ الألسِنَةِ والشِفَاه.

العلوية: أجَل. قُلِ الله أكبَر. لا إلهَ إلا الله، وقُل لا شَيءَ إلاَّ الله.

(يتمتمُ زينُ العابدين هذه الكلمات في ذاته أمَّا نجيبُ فيحدِّق إلى العلويَّة كالمَسحور وبصَوت يكادُ يكون هَمسًا يقول): لا شَيءَ إلاَّ الله.

العلوية: قُل لا إلهَ إلاَّ الله، ولا شَيءَ إلاَّ الله، وكُن مَسيحيًّا.

نجيب (يحني رأسه محرّكًا شفتيه مردّدًا كلماتها ثمّ يرفع رأسه قائلاً): قدَ قُلتُها، يا سيّدتي، وسَوفَ أقولُها إلى نِهايَةِ حَياتي.

العلويّة: ليسَ لحياتِكَ نِهاية، فأنتَ باقٍ ببقاءِ كُلِّ شَيء.

---

(١) المحجّة: مكان الحجّ.

نجيب: مَن أنا؟ ومَا أنا لأبقَى خَالِدًا؟

العلويّة: أنتَ أنتَ. وأنتَ كُلُّ شَيء، لذلك ستبَقَى خَالِدًا.

نجيب: إنّي أعلَمُ طَبعًا، يا سَيّدتي، أنَّ الذرّاتِ التي تَتَألَّفُ منها وَحدتي الهَيوليّةُ ستبَقَى ببقاءِ الهَيولى. ولكِنْ، أباقيةٌ، يا تُرى، هذه الفِكرةُ التي أدعُوها أنا؟ أباقيةٌ هذه اليقظةُ الضئيلةُ المُمَنْطِقةُ بالهُجوع[1]؟ أباقيةٌ هذه الفَقاقيعُ المُلتَمِعَةُ بنُور الشَمس، وأمواجُ البَحرِ التي وَلَّدَتْها هِيَ هِيَ الأمواجُ التي تَمحُوها لتُوَلِّدَ غيرَها؟ أباقيةٌ هذه الأمَانِيُّ والآمالُ والأوجاعُ والأفراحُ؟ أباقيةٌ هذهِ الأوهامُ المُرتعشةُ في هذا النَومِ المُتَقَطِّعِ في هذا اللّيلِ الغَريبِ بعَجائِبِهِ، الهَائلِ باتِّسَاعِهِ وعُمقِهِ وعُلُوِّهِ؟

العلويّة (ترفع عَينيها إلى العلاءِ كأنّها تتناول شَيئًا من جُيوب الفضاءِ، وتقول بلَهجة إيجابيّةٍ مِلؤَها العزمُ والمعرفة والخبرة): كُلُّ مَوجُودٍ بَاقٍ. ووُجُودُ المَوجُودِ دليلٌ على بَقائِهِ. أمَّا الفِكرةُ وهي العِلمُ بكُلِّيَّتِهِ، إذ لولاها لَمَا عَلِمَ العَالَمُ، موجودًا كان أو غير موجود، فهي كِيانٌ أزليٌّ أبدِيٌّ خَالِدٌ لا يَتَغَيَّرُ إلاَّ ليَتجَوْهَرَ، ولا يَختَفِي إلاَّ ليَظهَرَ

---

(١) الهجوع: النوم.

بصُورةٍ أسنَى[1]، ولا ينامُ إلاَّ ليَحلُمَ بيقظَةٍ أبهَى.

ولقد عَجِبتُ لَمَنْ يُثْبِتُ بَقَاءَ الذَرَّاتِ في الغِلافَاتِ الخَارِجيَّةِ التي تَتَصَوَّرُهَا حَواسُّنا، ولكنّه يُنكِرُ ما جُعِلَتِ الغِلافَاتُ من أجلِهِ. عَجِبتُ لَمَن يُقرِّرُ خُلودَ العَناصرِ التي تَتَألّفُ مِنها العَينُ ولكنَّهُ يَشُكُّ بخُلُودِ النَظَرِ الذي اتَّخَذَ العينَ آلةً لهُ. عَجِبْتُ لَمَنْ يُثبِتُ أبديَّةَ المُسَبَّبات ولكنَّه يُحتِّمُ[2] باضمِحلالِ الأسبَابِ. عَجِبتُ لَمَن تُشغِلُهُ المظَاهِرُ المَكَوَّنَةُ عن المُكَوِّنِ المُظهِرِ. عَجِبتُ لَمَن يَقسُمُ الحَياةَ إلى شطرَينِ، فيُؤمنُ بالشَطرِ المدفُوعِ، ويَجْحَد الشَطر الدَافِعِ.

عَجِبتُ لمن ينظُرُ إلى تلكَ الجِبالِ والسُهولِ المَغمُورَةِ بنُور الشَمسِ، ثمّ يُصغِي إلى الهَواءِ مُتكَلِّمًا بألسِنَةِ الأغصانِ، ثمّ يَتَجَرّعُ[3] عِطرَ الأزهارِ والريَاحِينِ، وبعد ذلك يقولُ لنَفسِه: لا ولن يَزولَ ما أراهُ وأسَمَعُهُ، لا ولن يضمَحِلّ ما أعرِفُهُ وأشعُرُ به. ولكِنْ، هذهِ الروحُ العاقِلَةُ التي تَرى فتَتَهَيَّبُ وتَتَأمّلُ، وتَسمَعُ فتَفرَحُ وتكتئِبُ؛ هذهِ الروحُ التي تَشعُرُ فترتَعِشُ وتَنبَسِطُ، وتَعلَمُ فتكتئبُ وتتحقّق؛

---

(١) أسنى: أوضح.

(٢) يحتِّمُ: يؤكدُ.

(٣) يجحد: يُنكرُ.

هَذِهِ الرُوح التِي تُحيط بِكُل شَيءٍ سَوفَ تَضمَحلُّ اضمِحلالَ الفَقاقِيعِ على وَجهِ البَحرِ، وتَزُولُ زَوالَ الظِلِّ أمامَ النُور.

إي والحقِّ، إنّي أعجَبُ لكائنٍ يُنكِرُ كِيانَهُ.

نجيب (متهيّجًا): قد آمنتُ بكِياني يا سَيّدتي. ومَنْ يسمَعُكِ مُتكَلِّمَةً ولا يُؤمِنُ كانَ أشبَهَ بالصَخرِ منه بالإنسَانِ.

العلويّة: إنّ اللهَ وَضَعَ في كُلِّ نَفسٍ رَسُولاً ليَسْيرَ بنا إلى النُور. ولكِنْ، في الناس مَنْ يَبحثُ عن الحَياةِ في خَارجِهِ والحَياةُ في دَاخِلِهِ ولكنَّهُ لا يَعلَمُ.

نجيب: أليسَ في خَارِجِنا أنوارٌ لا نَستطيعُ بدُونها الوُصُولَ إلى ما في أعماقِنا؟ أليسَ في مُحيطِنا قُوى تَستَنهِضُ[1] قُوانا، ومُؤَثِّراتٌ تُنَبِّهُ الغَافِلَ فينا؟

(يطرق هنيهة متردّدًا ثمّ يعود يقول): أوَلم تُوحِ إليك روحُ والدِكِ أمُورًا لا يعرِفُها سَجِينُ الجَسَدِ ورَهينُ الأيّامِ واللّيالي؟

العلويّة: أجل، ولكِنْ عَبثًا يطرُقُ الزائرُ بابَ البيتِ إذَا لم يكُن في

---

(١) تستنهض قوانا: تدفعها إلى النهوض.

داخِلِ البَيْت مَنْ يسمَعُ الطَرقاتِ ويقومُ ليفتَحَ في وَجهِهِ. إنّما الإنسانُ كائِنٌ مُنتَصِبٌ بين اللانهايةِ في باطِنِهِ واللانهايةِ في مُحيطِهِ. فلو لم يكُن فينا ما فينا لَمَا كانَ في خارجِنا ما في خَارجِنا. لقَد ناجَتْني روحِ وَالدي لأنَّ رُوحي ناجَتْها وأوَحَتْ إلى عَاقِلَتِي[1] الخَارجيّةِ ما كانَت تَعرِفُهُ عَاقِلَتِي البَاطِنيّةُ، فلَولا جُوعي وعَطَشي لَمَا حَصَلْتُ على الخُبزِ والمَاءِ، ولولا شَوقي وحَنيني لما لقيتُ مَوضوعَ شَوقي وحَنيني.

نجيب: أيستَطيعُ كُلٌّ مِنّا، يا سيّدتي، أن يَغزِلَ سِلكًا من شَوقه وحَنينِهِ ويَمُدُّهُ بين رُوحِه والأرواحِ المُنعَتِقَةِ[2]؟ أفليسَ هناكَ طائفةٌ من الناسِ قَد أُعطِيَتِ المَقدَرَةَ على مُخاطَبَةِ الأرواحِ واستِنزَالِ مَشيئَتِها ومَراميها؟

العلويّة: إن بينَ سُكَّانِ الأثيرِ وسُكّان الأرضِ مُخاطَباتٍ ومُسَامَرَاتٍ مُستَتِبَّةً[3] باستِتبابِ الأيَّامِ واللّيالي. وليسَ بينَ النّاسِ مَنْ لم يَأتَمِرْ بمَشيئةِ القُوى العَاقِلَةِ غَيرِ المَنظُورة. فكَم مِن عَمَلٍ يَأتي به الفردُ مُتَوَهِّمًا أنّه مُخَيَّر بفِعلِهِ وهَو بالحَقيقةِ مُسَيَّرٌ. وَكَم مِن عَظيمٍ في

---

(١) عاقلتي: قوّتي المدرِكة.
(٢) المنعتقة: المتحرِّرة.
(٣) المستتبَّة: المستقرَّة.

الأرضِ كانَــتْ عَظَمَتُــه في استِــسلامِه التَــامِّ إلى إرادةِ مــن الأرواحِ استِسلامَ قيثارةٍ دَقيقَةِ الأوتَارِ إلى نَقراتِ عَازِفٍ خَبير!

أجَلْ، إنَّ بينَ عَالَمِ المَرئياتِ وعَالَمِ العَقلِ سَبيلاً نَجتازُهُ في غَيبُوبَاتٍ تَحدُثُ لنا ونحنُ غافِلون، ثمَّ نعودُ وفي أكُفِّنا المَعنَويّـةِ بُـذُورٌ نُلقيهـا في تُربةِ حَياتِنا اليَوميّةِ فتُنبِتُ أعمالاً جَليلةً[1] أو أقوالاً خَالِدَة، ولولا تلـكَ السُبُلُ المَفتُوحَةُ بينَ أرواحِنا والأرواحِ الأثيريَّةِ لَمَا ظَهَرَ في النـاسِ نَبـيٌّ ولا قامَ فيهم شاعرٌ ولا سار بينَهم عَازِفٌ.

(ترفع صوتها عن ذي قبل): أقولُ، ومَآتي الأدهارِ تشهَدُ لي:

إنّ بينَ المَلإِ الأعلَى والمَـلإِ الأدنَـى رَوابِـطَ شَـبيهَةً بعَلاقَـةِ الآمـرِ بالمَـأمُورِ والمَنـذِرِ بالمُنـذَرِ، أقـولُ: إنّـا مُحَـاطُونَ بوِجـدَاناتٍ تَـستَمِيلُ وجداناتِنا، وعَاقِلاتٍ تُوعِزُ إلى عاقِلاتِنا، وقُوى تستَنهِضُ قُوانا؛ أقولُ إنَّ شُكُوكَنَا لا تَنفي امتِثالَنَـا[2] إلى مـا نَـشُكُّ بـه، وَانـصِرافَنا إلى أمـانِيِّ أجسَادِنَا لا يَصرِفُنا عن مُرَادِ الأرواحِ بأروَاحِنا، وتَعامِينا عَن حَقيقَتِنـا لا يَحجُـبُ حَقيقَتَنـا عـن عُيُـونِ المَحجُـوبينَ عنّـا. فـنحنُ وإن وَقَفْنـا

(١) أعمال جليلة: أعمال عظيمة.

(٢) امتثالنا: خضوعنا.

فسَائِرُونَ بمَسِيرِهِم، وإن هَمَدْنا[١] فمُتَحَرِّكُونَ بحَرَكَاتِهِم، وإن صَمَتْنا فمُتَكَلِّمُونَ بأصواتِهِم؛ فَلا الهُجُوعُ فينا يُزِيل يَقظَتَهم عنّا، ولا اليَقظَةُ بنا تُحَوِّلُ أحلامَهُم عَن مَسَارِحِ خَيالِنا. فنحنُ وَهُم في عَالَمَيْنِ يَضُمُّهُما عَالَمٌ وَاحِدٌ، وفي حالتَيْنِ تُمَنْطِقُهُما حَالَةٌ وَاحِدَةٌ، وفي وُجُودَيْنِ يجمَعُهُما ضَمِيرٌ كُلِّيٌّ سَرمَدِيٌّ أَحَدٌ ليسَ له بَدءٌ، وليسَ له نِهايَةٌ، وليس له فوقٌ، وليسَ له تَحتُ، وليسَ له حَدٌّ، وليسَ له جِهَاتٌ.

نجيب: أَيأتِي يَومٌ، يا سيّدتي، نعرفُ فيه بالاستِقراءِ العِلميِّ والاختبارِ الحِسِّيِّ ما تَعرِفُه أرواحُنا بالخَيالِ ومَا تَختَبِرُهُ قُلُوبُنا بالتَشويق؟ وهَل يتقَرَّرُ[٢] لنا بقَاءُ الذاتِ المَعنويّةِ بَعدَ المَوتِ مثلَما تَقَرَّر لدينا بعضُ الأسرارِ الطَبيعِيَّةِ، فنلمُسُ بيَدِ المَعرفةِ المُجَرّدةِ ما نَتَلَمَّسُهُ الآنَ بأصَابعِ الإيمانِ؟

العلويّة: نَعَمْ، سيأتي ذلكَ اليومُ. ولكِنْ، ما أَضَلَّ الذينَ يُدرِكُون حَقيقَةً مُجَرَّدةً ببعضِ حَوَاسِّهِم، ولكنَّهُم يَظَلُّونَ مُرتَابِينَ بها حتَّى تَبدوَ لِحَوَاسِّهِم الأُخرَى! ما أغرَبَ مَنْ يسمَعُ الشُحرورَ مُغَرِّدًا ويُشاهِدُهُ مُرَفرِفًا مُتَنَقِّلاً، ولكنّه يَبقى مُشَكِّكًا بِمَا سَمِعَ ومَا رَأى حتى يَقبِضَ

(١) همَدْنا: سَكَنَّا، توقَّفنا عن الحركة.

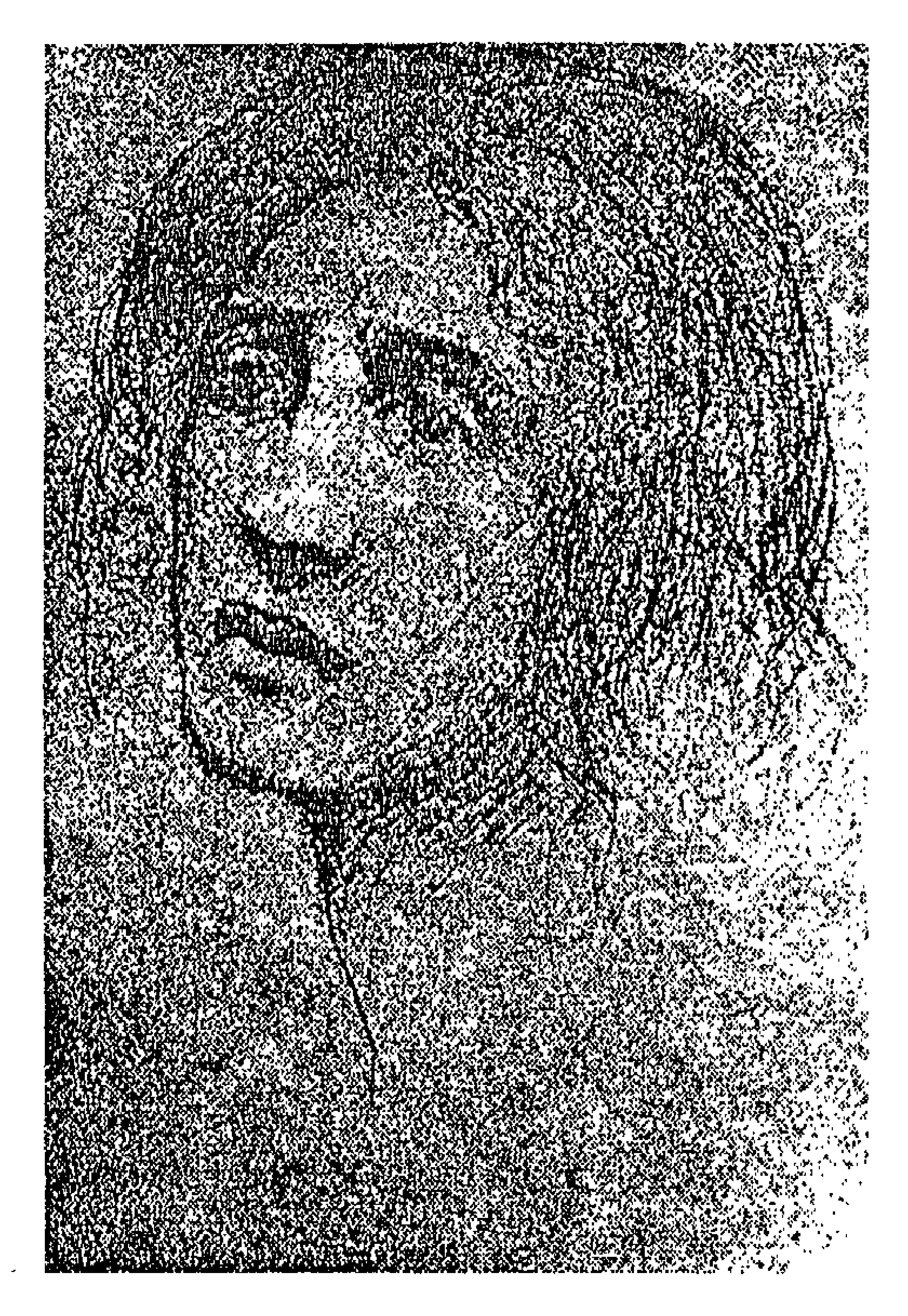
(٢) يتقرَّر لنا: يثبت.

بيدهِ على جِسمِ الشُحرور! ما أغربَ مَنْ يَحْلُمُ بحَقيقةٍ جَميلةٍ ثُمّ يُحاوِلُ تَجسِيدَهَا وَحَبْسَها بقَوالِبِ الظَوَاهِرِ فلا يُفلِحُ، فيَرتابَ بالحُلمِ ويَجحَدَ الحَقيقَةَ ويشُكَّ بالجَمال!

ما أجهَلَ مَنْ يَتَخَيَّلُ أمرًا ويَتَصَوَّرُهُ بشَكلِهِ ومَعالِمِهِ، وعندَما يَستَحِيلُ عَليه إثباتُه بالمَقاييسِ السَطحِيَّةِ والبَراهِينِ اللَفظِيَّةِ يَحسَبُ الخَيالَ وَهمًا والتَصوُّرَ شَيئًا فارِغًا! ولكِنْ، لو تَعَمَّقَ قَليلاً وتَأمَّلَ هُنَيْهَةً لَعَلِمَ أن الخَيَالَ حَقيقةٌ لم تَتَحَجَّرْ بَعْدُ، وأنَّ التَصَوُّرَ مَعرِفَةٌ أسمَى مِن أن تَتَقَيَّدَ بسَلاسِلِ المَقاييسِ، وَأعلى وَأرحَبُ من أن تُسجَنَ بأقفاصِ الألفاظِ.

نجيب: أَفي كُلِّ خَيالٍ حَقيقةٌ، يا سيّدتي؟ وهل في كُلِّ تَصَوُّرٍ معرفة؟

العلويّة: إي والحَقِّ، إنَّ مرآةَ النفَسِ لا تَعكِسُ سِوى ما انتَصَبَ أمامَها، ولو شَاءَتْ لَمَا استَطاعَتْ. إنَّ البُحيرةَ الهَادِئَةَ لا تُرِيكَ في أعماقِها خُطُوطَ جبالٍ ورُسومَ أشجارٍ وأشكالَ غُيُومٍ لا وجُودَ لها بالحَقيقةِ، ولو شاءَتِ البُحيرةُ لَمَا استَطاعَتْ. إنَّ خلايا الرُوحِ لا تُرجِعُ إليكَ صَدَى أصواتٍ لم يَرتَعِشْ بها الأثيرُ حَقًّا، ولو شاءَتِ الخَلايا لَمَا استَطاعَتْ. إنَّ النُورَ لا يُلقي عَلى الأرضِ ظِلَّ شَيءٍ لا كِيانَ لَه، ولو شَاءَ النُور لَمَا استَطاع.



«الخنســـــاء»

بريشة جبران خليل جبران .

إنّما الإيمانُ بالشَيءِ هوَ المَعرِفَةُ بالشَيءِ. والمُؤمِنُ يَرى ببَصِيرَتِهِ الرُوحيّةِ ما يَراه البَاحِثُونَ والمُنَقِّبُونَ بعُيونِ رُؤوسِهم، ويُدرِكُ بفِكرَتِهِ البَاطِنةِ ما لا يَستطِيعُون إدراكَه بفِكرَتِهم المُقتبَسَةِ. المؤمِنُ يَختَبِرُ الحَقائِقَ القُدسِيَّةَ بحَواسَّ تَختَلِفُ عَنِ الحَوَاسِّ التي يَستَخدِمُها النَاسُ كافَّةً فيَظنُّها جِدارًا مُحكَمَ البِناءِ فيسيرُ في طَريقِهِ قائلاً: ليسَ لهذهِ المَدينةِ مِن أبوابٍ.

(تقف العلويّة وتخطو بضع خطوات نحو نجيب، وبلهجة من أوشك أن يبلغ من الكلام حدًّا لا يريد الزيادة عليه تقول):

العلويّة: إن المُؤمنَ يعيشُ كُلَّ الأيّام وكُلَّ الليَالي، أما غَيرُ المُؤمِن فلا يعيشُ سِوى ثوانٍ مَعدُودَةٍ منها. فما أضيَقَ عَيشَ مَنْ يرفَعُ يدَه بينَ وَجِهه والعالم أجمَعَ، فلا يَرَى غيرَ الخُطوطِ في كَفِّهِ! وما أشَدَّ شفَقَتي على مَنْ يُديرُ ظهرَه إلى الشمسِ فلا يَرَى غيرَ ظِلِّ جَسَدِهِ عَلَى التُرابِ.

نجيب (ينتصب واقفًا شاعرًا بدنو ساعة انصرافه): أأقولُ للنّاسِ، يا سيّدتي، عندَما أعودُ إليهم: إنَّ إرَمَ ذاتَ العِمادِ مَدينةُ أحلامٍ رُوحِيَّة، وإنَّ آمنةَ العَلَويّةَ قد سارَتْ إليها عَلى سَبيلِ الشَوقِ ودَخَلَتْها من بَابِ الإيمانِ؟

العلويّة: قُلْ: إنَّ إرَمَ ذاتَ العِمَادِ مَدينةٌ حَقيقِيَّةٌ كائِنَةٌ بكِيانِ الجِبَالِ والغَابَاتِ والبِحَارِ والصَحَارَى. وقُلْ: إنَّ آمنةَ العَلَويّةَ قد وَصَلَتْ إليها بعدَ أن قَطَعَتِ الباديةَ الخاليةَ وقاسَتْ ألمَ الجُوعِ وحَرقَةَ العَطَشِ وكآبَةَ الوَحدِةِ وَهولَ الانفِرادِ. وقل: إن جَبَابِرَةَ الدُّهُورِ قَد بَنَوْا إِرمَ ذاتَ العِمَادِ مِمّا تَبلْوَرَ وتَجَوْهَرَ من عَنَاصِرِ الوُجودِ، ولم يَحْجُبُوها عَنِ النَاسِ، ولكنَّ الناسَ حَجُبُوا نفوسَهم عَنها، فمَنْ يَضِلّ الوُصُولَ إليها فَلْيَشْكُ دَليلَه وحَادِيَه(١) بَدلاً مِن مَصاعِبِ الطَريقِ وحَراجَتِها. وقُل للنّاسِ: إنَّ مَنْ لا يُشعِلُ سِرَاجَه لا يَرَى في الظَلامِ سِوى الظَلامِ. (ترفع وجهها نحو العلاء وتغمض عينيها ويظهر على ملامحها نقاب من العطف والحلاوة).

نجيب (يدنو منها منحني الرأس ويظلّ صامتًا هنيهة ثمّ يقبّل يدها هامسًا): ها قَد بلغَتِ الشمسُ الغروبَ، وعَليَّ أن أعودَ إلى مَسَاكِنِ الناسِ قبلَ أن يَكتَنِفَ الظلامُ الطَرِيقَ.

العلويّة: سِرْ في النُور وسِرْ بأمانِ الله.

نجيب: سأسيرُ في نُورِ المِشعَلِ الذي وَضَعْتِهِ في يَدي، يا سَيّدتي.

---

(١) الحادي: الذي يسوق الإبل ويغني لها.

العلويّة: سِرْ بنُورِ الحَقِّ الذي لا تُطفِئهُ الأَهوِيَةُ. (تنظر إليه نظرة طويلة مفعمة بشعاع الأمومة ثمّ تتحوّل عنه وتمشي بين الأشجار حتى تنحجب عن عينيه).

زين العابدين (يقترب من نجيب): إلى أينَ أنتَ سَائِرٌ الآنَ؟

نجيب: إلى مَنزِلِ أصحَابٍ لي بقُربِ مَنبَعِ العَاصي.

زين العابدين: أتسمَحُ لي بمُرافَقَتِكَ؟

نجيب: بكُلِّ سُرورٍ، وَلكنَّني ظَنَنْتُ أنّكَ باقٍ بجِوارِ آمنةَ العَلَويّةِ، فطوَّبتكَ رُوحي وتَمَنَّيْتُ لو كنتُ مَكانَكَ!

زين العابدين: نحنُ نَحيا بنُورِ الشَمس عَن بُعدٍ. ولكِنْ، مَنْ مِنّا يستطيعُ الحَياة في الشَمسِ؟ (بلهجة ذات معانٍ بعيدة) أجيءُ مرّةً في الأُسبوعِ مُتبَرِّكًا مُتَزَوِّدًا، وعندَما يأتي المَساءُ أعُودُ قانِعًا مُكتَفِيًا!

نجيب: وَدِدْتُ لو جَاءَ الناسُ كَافَّةً مَرّة في الأُسبوع ليَتبرَّكُوا ويَتزوَّدُوا، ويعُودُوا قَانِعِين مُطمَئِنّين.

(يحلّ نجيب مقود فرسه ويسير به راجلاً بجانب زين العابدين)

(ستار الختام)

سكوتي إنشاد (من الطويل)

سـكُوتِيَ إنـشادٌ وجُـوعيَ تُخمَـةٌ
وفي عَطَـشي مـاءٌ وفي صَـحوَتي سُـكْرُ(١)
وفي لَـوْعتي عُـرْسٌ وفي غُربَتـي لُقًـا
وفي بَـاطني كَشفٌ وفي مَظهَـري سِـترُ
وكـم أشـتكي هَمًّـا وقَلبـي مُفـاخِرٌ
بِهَمِّـي! وكَـم أبكـي وثَغـريَ يَفـتَرُّ(٢)!
وكـم أرْتجـي خِـلاًّ وخِـلّي بجَـانبي!
وكـم أبتَغـي أمـرًا وفي حَـوزَتي الأمـرُ(٣)!
وقـد يَنشـرُ اللّيـلُ البَهـيمُ مَنـازِعي
عـلى بَسطِ أحلامـي فيَجمَعُهـا الفَجـرُ(٤)
نَظَـرْتُ إلى جسـمي بمِـرآةِ خـاطري
فألفَيتُـهُ رُوحًـا يُقلِّـصُهُ الفِكـرُ

(١) التخمة: الثقل في الأكل.
(٢) يفترُّ ثغري: يكشف عن ابتسام.
(٣) خِلاًّ: صديقًا؛ أبتغي: أرومُ، أريد.
(٤) الليل البهيم: الحالك السواد.

فبي مَا براني، والذي مَدّ فُسحَتي
وبي المَوتُ والمَثوَى، وبي البَعثُ والنَشرُ[1]
فلوْ لم أكُن حَيًّا لَما كُنتُ مائِتًا
ولوْلا مُرامُ النّفسِ ما رَامَني القَبرُ
ولّما سألتُ النّفسَ ما الدّهْرُ فاعِلٌ
بحَشْدِ أمانِينا؟ أجابَتْ: أنا الدّهرُ(*)

***

(١) براني: خلقني؛ النشر: القيامة.

(*) في القصيدة أمور عديدة.

١- نحن مظهر الوجود.

٢- الألم والحرمان سبيلان إلى المعرفة.

٣- العطش إلى المعرفة يدفعنا إلى السعي والتفتيش الدائمين.

٤- الحلولية ووحده الوجود.

يا مَنْ يُعادينا (من السريع)

يـا مَـن يُعادينـا ومـا إنْ لَنـا
ذَنـبٌ إلَيـهِ غـيرُ أحلامِنـا
هـذي رَحيـقٌ مـا لهـا أكْـؤسٌ
فكَيـفَ نَـسقيها للُوّامِنـا[1]؟
وهـيَ بِحـارٌ مَـدُّها صَـمْتُنا
وجَزرُهـا في حِـبرِ أقْلامِنـا

***

جـاوَزْتُمُ الأمـسَ ومِلْنـا إلى
يَـوم مُوشَّـى صُـبْحُهُ بالخَفَـاء
ورُمـتُمُ الـذكَّرَى وأطيافَهـا
ونحـنُ نَـسعى خَلـفَ طَيـفِ الرّجـاء
وجُبـتُمُ الأرْضَ وأطْرافَهـا
ونحـنُ نَطـوي بالفَـضاءِ الفَـضاء

---

(١) رحيق: شراب خالص لا غشّ فيه.

لُومُـــوا وسُـــبُّوا والعَنُـــوا واســـخَرُوا
وسَـــاوِرُوا أيّامَنَـــا بالخِـــصامْ[1]
وابغُـــوا وجُـــورُوا وارجُمُـــوا واصلُبُوا
فـــالرّوحُ فينـــا جَـــوْهرٌ لا يُـــضامْ[2]
فـــنَحنُ نحـــنُ كَوْكَـــبٌ لا يَـــسيرُ
إلى الـــورا في النُّـــورِ أو في الظَّـــلامْ
إن تَحْـــسَبونا ثُلمـــةً[3] في الأثـــيرِ
لَـــن تَـــستطِيعوا رَتْقَهـــا بـــالكَلامْ(*)

***

(١) ساوِرُوا أيامنا: شَوِّشُوها.
(٢) لا يُضام: لا يُمَسُّ.
(٣) ثلمة: ثغرة.
(*) نجد في هذه القصيدة: حلم الرومنطيقيين في التغيير، ومفهومهم في الأدب والفن والحياة.



«أبو نـــواس»

بريشة جبران خليل جبران

يا نفس (مجزوء الرجز):

يــا نَفــسُ لــوْلا مَطمَعــي بالخُلــدِ مــا كنــتُ أعــي
لَحَنًــــا تُغَنِّيــــه الــــدّهورْ
بــل كُنــتُ أنهــى حــاضري قَســرًا فيَغْــدو ظــاهري
سِرًّا تُورايـــــهِ القُبُـــــورْ(١)

***

يــا نَفــسُ لَــوْ لم أغتَسِلْ بالــدّمع أوْ لم يَكتَحِــلْ
جَفنـــي بأشـــباح الـــسَقامْ
لعِــشْتُ أعمَــى وعــلى بَــصيرَتي ظِفــرٌ، فَــلا
أرَى سِــوَى وَجــهِ الظّــلام(٢)

***

يــا نفــسُ مــا العيشُ سِوَى ليــلِ إذا جَــنّ انتَهَــى
فـــالفَجر، والفجـــرُ يَـــدومْ

(١) قسرًا: قَهرًا، غضبًا؛ تواريه: تخفيه.

(٢) السقام: المرض. قبول الألم وصولاً إلى المعرفة. يقول إلياس أبو شبكة: اجرحِ القلبَ وَاسْقِ شعرك منه... ولو عدنا إلى حديث الخيال في «غلواء» لوجدنا الألم شرطًا من شروط المعرفة.

وفي ظـــمّا قَلبـــي دَليـــل عـــلى وُجُـــودِ السّلـــسبيل
في جَـــرّة المـــوْتِ الرّحـــومْ[1]

***

يـا نفـسُ إن قـالَ الجَهـول: الـــرّوحُ كالجِـــسْمِ تَـــزُول
ومـــا يَـــزولُ لا يَعـــودْ
قُـــولي لـــهُ: إنَّ الزّهـــور تَمـــضي، ولكـــنّ البـــذور
تَبقـــى، وذا كُنْـــهُ الخلـــودْ[2]

***

(١) جَنَّ الليل: اشتدَّ ظلامه. الموت رحوم لأنه يخلّص الإنسان من الحقيقة الزائفة وينقله إلى عالم الحقيقة الناصعة.

(٢) كنه الوجود: أساسه وجوهره.

البلاد المحجوبة (من الرمل)

هــوذَا الفَجــرُ فقُــومي نَنــصرِفْ
عَــن دِيــارٍ مــا لَنــا فيهــا صَــديقْ
مــا عــسَى يَرْجــو نَبــاتٌ يَختَلــفْ
زهــرُه عــن كُــلِّ وَردٍ وشَــقيقْ[1]؟
وجَديــدُ القَلــبِ أنّــى يــأتَلفْ
مــع قُلــوبٍ كــلُّ مــا فيهــا عَتيــقْ؟
هُــوَذا الــصُبْحُ يُنــادي فاســمَعي
وهَلُمّــي نَقتَفــي خُطواتِــه[2]
قــد كَفانــا مــن مَــساءٍ يَــدّعي
أنّ نــورَ الــصُّبح مــن آياتِــه

***

قــد أقَمْنــا العُمــرَ في وادٍ تَــسيرْ
بَــينَ ضِــلعَيْه خَيــالاتُ الهُمُــومْ

---

(١) شقيق النعمان: اسم زهرة حمراء اللون.

(٢) نقتفي: نتبع.

وشَـــهِدْنا اليــأسَ أسرابًــا تَطــيرْ
فــوْقَ مَتنَيــهِ كعِقبــانٍ وبُـــومْ
وشَرِبْنـا الـسّقمَ مـن مـاء الغَـديرْ
وأكَلْنـا الـسّمَّ مـن فَـجِّ الكُـرُومْ
ولبِـسنا الـصّبرَ ثَوبًـا فالتَهَـبْ
فغَـدونا نَـتَرَدّى بالرّمــادْ[1]
وافترَشْــناهُ وِســادًا فانقَلَـبْ
عنــدما نُمنـا هَـشيمًا وقَتـادْ[2]

***

يــا بــلادًا حُجبَـتْ مُنـذُ الأزَلْ
كيــفَ نَرْجـوكِ ومــن أيَّ سَـبيلْ؟
أيُّ قَفــرٍ دُونَهــا، أيُّ جَبَـلْ
سُـورُها العَـالي؟ ومَـن مِنّـا الـدّليل؟
أسَرابٌ أنــتِ أمْ أنــتِ الأمــلْ
في نُفــوسٍ تتمنّــى المُـستَحيلْ؟

(١) نتردَّى: نسقط. وهنا بمعنى نرتدي، نلبس.
(٢) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر.

أمَنـــامٌ يَتَهَـــادى في القُلــــوبْ
فــــإذا مـــا اســـتيَقَظَتْ وَلّى المَنـــامْ؟
أم غُيُــومٌ طُفْــنَ في شَــمسِ الغُــروبْ
قبـــلَ أن يَغــرَقنَ في بَحـــرِ الظّـــلامْ؟

***

يـــا بـــلادَ الفِكـــرِ يـــا مَهـــدَ الأُلى[1]
عبَـــدوا الحَـــقَّ وصَـــلّوا للجَـــمالْ
مـــا طَلَبْنَـــاكِ بِرَكْـــبٍ أوْ عـــلى
مَـــتنِ سُـــفنٍ أوْ بِخَيْـــلٍ ورِحـــالْ
لـــستِ في الـــشّرْقِ، ولا الغـــرْبِ، ولا
في جنـــوبِ الأرْض، أو نحـــو الـــشّمالْ
لـــستِ في الجـــوّ ولا تحـــتَ البِحـــار
لـــستِ في الـــسّهلِ ولا الـــوَعرِ الحَـــرِجْ[2]

(١) الأُلى: الذين، ولا واحد لها من لفظها.
(٢) الوعر: الأرض الصعبة.

أنتِ في الأرْواحِ أنوارٌ ونَار
أنــتِ في صـــدري فُــؤادي يَخــتَلجْ(*)

***

(*) نجد في هذه القصيدة:
- غربة الفنانين والأنبياء.
- اليأس من عالم لا يصطلح ولا يمكن أن يكون قابلاً للإصلاح.
- قبول الألم، مرة أخرى، وتحمُّله سبيلاً إلى المعرفة.
- البلاد المحجوبة هي الأمل الذي يسعى إليه جبران.
- لا يمكن أن تحصل على ما تسعى إليه إلا بالحب والألم.

حرقة الشيوخ (من الرَّمَل)

يــا زمــانَ الحُــبِّ: قَــد وَلّى الــشَبابْ
وتَــوارَى العُمــرُ كالظِــلّ الــضّئيلْ
وامّحَــى المَــاضي، كــسَطرٍ مــن كتــابْ
خطَّــهُ الــوَهمُ عــلى الطّــرْس البَليــلْ[1]
وغَـــدَتْ أيّامُنـــا قَيـــدَ العَـــذابْ
في وُجـــودٍ بالمَـــسرّاتِ بَخيـــلْ
فالـــذي نَعـــشَقُهُ يَأسًـــا قَـــضَى،
والـــذي نَطلُبُـــهُ مَـــلَّ وراحْ[2]
والـــذي حُزنـــاهُ بـــالأمسِ مَـــضَى
مِثْـــلَ حُلـــم بـــينَ لَيـــلِ وصَـــباحْ[3]

***

(١) الطرس: الكتاب.
(٢) قَضَى يأسًا: مات يأسًا.
(٣) حُزناه: حصلنا عليه.

يـا زمـانَ الحُـبِّ، هـلْ يُغنِـي الأمَـلْ
بخُلُـودِ الـنّفسِ عـنْ ذِكـرِ العُهُـودْ[1]؟
هل، تُرى، يَمحُو الكَرَى رَسمَ القُبَلْ
عـنْ شِـفاهٍ مَلَّهـا وَرْدُ الخُـدُود[2]؟
أوْ يُـدانِينا ويُنـسِينا المَلَـلْ
سَـكرَةَ الوَصْـلِ وأشْـواقَ الـصُّدُودْ[3]؟
هـلْ يَـصُمُّ المَـوْتُ آذانًـا وَعَـتْ
أنّـةَ الظَّلْـمِ وأنغَـامَ الـسُّكُونْ؟
هـلْ يُغَـشِّي القَـبرُ أجفانًـا رأتْ
خافيـاتِ القَـبرِ والـسِرَّ المَـصُونْ[4]؟

***

كَـمْ شَرِبنـا مِـنْ كُـؤوسٍ سَـطَعَتْ
في يَـدِ الـسّاقي كنُـورِ القَـبَسِ[5]!

---

(١) يُغني الأمل: يُكتَفَى به؛ ذِكر العهود، أراد العهود والوعود الماضية.
(٢) الكرى: النعاس.
(٣) يدانينا: يقاربُنا؛ الصدود: المجافاة.
(٤) السر المصون: المكنون، المحافَظ عليه.
(٥) يذكِّر هذا النَفَسُ الشِعريُّ بموشَّحٍ أندلسي، وبرباعيات الخيام.

وَرَشَفْنا مِن شِفاهٍ جَمَعَتْ
نَغمَةَ اللُّطفِ بثغْرٍ ألعَسِ[1]!
وتَلَوْنا الشِعرَ حتى سَمِعَتْ
زُهُرُ الأفلاكِ صَوتَ الأنفُسِ[2]
... تلكَ أيّامٌ تولّتْ كالزّهورْ
بِهبُوطِ الثّلج مِن صَدرِ الشّتاءْ[3]
فالذي جَادَتْ بِه أيدي الدُهورْ
سلَبَتْهُ خِلسَةً كفُّ الشَقاءُ...

***

لَو عَرَفْنا ما تَرَكْنا لِيلَةً
تَنقَضي بَينَ نُعاسٍ ورُقادْ
لَوْ عَرفنا ما تركْنا لحظَةً
تَنْثَني بَينَ خلوٍّ وسُهادْ[4]

---

(١) الثغر الألعس: ما كان فيه سوادٌ مستحسن.
(٢) زُهُر الأفلاك: الكواكب.
(٣) تولّت: راحت ومضت.
(٤) سُهاد: سَهَرٌ.

لـــوْ عَرَفنـــا مـــا تركْنـــا بُرْهـــةً

مِـــن زمـــانِ الحُـــبِّ تمـــضي بالبُعـــادْ

قـــد عَرَفنـــا الآنَ، لكِـــنْ بَعـــدَما

هَتَـــفَ الوِجـــدانُ: «قُومُـــوا وَاذهَبُـــوا»!

قـــد سَـــمِعْنَا وذكَرْنـــا عنـــدَما

صرَخَ القـــبرُ ونـــادَى: «اقتربُـــوا»!(*)

***

(*) في هذه القصيدة:

- استفهامات يطرحها الشاعر (جبران) وهي دلالة على ما يصطرع في داخله من نضالٍ بين الشك واليقين.
- البكاء على الماضي، هل هو خوف من الغد؟
- نظرة تشاؤمية عهدناها عند جبران. وكأنه في المقطع الأخير يدعو إلى انتهاب فرص الحياة قبل حلول الساعة و «وقيام العُوَّد» كما يقول طرفة بن العبد. فهل هي دعوة «طرفية» أخرى ما دامت القدرة على دَفْع «المنيَّة» معدومةً: فدعني أُبادرها بما ملكت يدي؟

بالله يا قلبي (مشطور البسيط)

بـــالله يـــا قَلبـــي أُكـــتم هـــــواك
واخــفِ الــذي تـشكوه عَمّـــن يَــراك – تَغْــنَمْ
مَـــنْ بـــاحَ بـــالأسرارْ
يُـــشابِهُ الأحَمَـــقْ
فالـــصّمتُ والكـــتمانْ
أحـــرَى بمـــنْ يَعـــشَقْ
بِـــالله يـــا قَلبـــي إذا أتَـــــــــاك
مُـــستَعلِمٌ يَـــسأل عـــمّا دهـــاك – فـــاكتُمْ
يـــا قلـــبُ إنْ قـــالوا:
أيـــنَ التـــي تهـــوَى؟
قـــل: قـــد سـبَتْ غـيري[1]
ثـــمّ ادّع الـــسّلوَى

---

(١) سَبَتْ غيري: أغوَته فأسَرَته.



«أبو العلاء المعرّي»

بريشة جبران خليل جبران

بِـــالله يــا قَلبـــي اســـتُرْ جَـــوَاك[1]
فـما الـــذي يـــضنيك إلاّ دواك - فــــاعلمْ
الحـــــبّ في الأرواح
كخمـــرَةٍ في الكـــأس
مـــا بـــانَ منهـــا مـــاء
ومـــا خَفِـــي أنفـــاس
بِـــالله يـــا قَلبـــي احـــبِسْ عنـــاك[2]
إن ضَــجّتِ الأبحـــار أو هدَّت الأفلاك - تسلم(*)

***

(١) جواك: حُبّك.
(٢) العناء: التعب والهمّ.
(*) في هذه القصيدة:
- احتمال الألم ضرورة إنسانية، إن لم نَقُلْ روحيّة، يلتزمها الإنسان للخلاص من أشراك هذا المجتمع. فما من أحدٍ يسمَعُ، وما من أحدٍ يفهم. شكوى ورومنسية، وغربة جبران في مجتمعه.

أغنية الليل (مجزوء الرمل)

سَكَنَ اللّيل، وفي ثوْبِ السكون تختبي الأحلامْ
وسَعَى البَدْرُ، وللبَدرِ عُيُون ترصُدُ الأيّامْ(1)

***

فتَعالَي، يا ابنةَ الحَقل، نَزُور كَرْمَةَ العُشّاقْ
علّنا نطفي بِذَيّاكَ العَصيرْ حَرْقةَ الأشواقْ

***

اِسمَعِي البُلبُلَ ما بَينَ الحُقولْ يَسْكُبُ الألحانْ
في فَضاءٍ نفخَتْ فيهِ التُّلولْ نَسمةَ الرّيحانْ

***

لا تخافي، يا فَتاتي؛ فالنّجومْ تَكتُمُ الأخبارْ
وضَبابُ اللّيلِ في تلك الكُرُومْ يَحجُبُ الأسرارْ

***

(1) تختبي: لغة من تختبئ؛ ترصد: ترقب.

لا تخـــافي، فعـــروسُ الجِـــنِّ في كَهفِهــا المَــسحورْ
هجَعَتْ سـكرَى وكـادَت تختَفـي عن عيون الحُـورْ[1]

***

ومليــكُ الجـنّ إن مَــرّ يَــرُوحُ والهَــوَى يَثنيــهْ
فهـوَ مـثلي عاشِـقٌ، كيـف يَبـوحْ بالـذي يُـضنيه[2]؟

***

(١) هجعت: نامت، الحُور: مفردها حوراء، وهي صاحبة العين التي اشتدَّ بياضُ بياضِها وسوادُ سوادها.

(٢) يُضنيه: يُتعبه.

(*) في هذه القصيدة:

– حُبٌّ ينبغي أن يبقى مكتومًا، لا يذيعه «لسان الصبح» كما يقول ابن زيدون. وكأن الكتمانَ هو الفضيلة الوحيدة التي يتسلّح بها الشاعر في مجتمع لا يعرف «نبيًّا في مدينته».

البحر (من الرمل)

في سُــكُونَ اللَيــلِ لمّــا تنثنــي
يقظـةُ الإنـسان مـن خَلـفِ الحِجـابْ
يَـصرخُ الغَـابُ: أنـا العَـزْمُ الـذي
أنبَتَتْـهُ الـشّمسُ مـن قَلـبِ الـتُرابْ
غَـيرَ أنّ البحـرَ يَبقـى سَـاكتًا
قـائِلاً في نَفـسِه: العَـزْمُ لي
ويقـولُ الـصّخرُ: إن الـدّهرَ قـد
شـادَني رَمـزًا إلى يَـوم الحِـسابْ
غـيرَ أنّ البَحـرَ يَبقـى صـامِتًا
قـائِلاً في نَفْـسِهِ: الرّمـزُ لي
وتَقُـولُ الـرّيحُ: مـا أَغرَبَنـي
فاصِـلاً بَـينَ سَـديم وسَـما[1]!

(١) السديم: وجه الأرض.

غَــيرَ أنّ البَحــرَ يَبقــى ســاكتًا
قــائِلاً في نفـــسِه: الــرّيحُ لي
ويَقــولُ النّهــرُ: مــا أعــذَبني
مَــشرَبًا يَــروي مِــنَ الأرضِ الظّـما!
غــيرَ أنّ البَحــرَ يبقــى صــامتًا
قــائلاً في ذاتِــهِ: النّهــرُ لي
ويَقــولُ الطّــودُ: إني قــائمٌ
مــا أقــامَ الــنّجمُ في صَــدرِ الفَلــكْ[1]
غــيرَ أنّ البحــرَ يَبقــى هادئًــا
قــائلاً في نَفــسِه: الطّــوْدُ لي
ويقــولُ الفكــرُ: إنّي مَلِــكُ
لــيسَ في العــالم غَـيري مِــن مَلِــكْ
غيرَ أنّ البَحرَ يبقى هاجعًا
قــائِلاً في نَوْمِــهِ: الكُــلّ لي(*)

---

(١) الطود: الجبل.

(*) في هذه القصيدة:

- البحرُ هو الله، والمتكلّمون هم البشر. الله هو البداية والنهاية، أصل كلّ شيءٍ وإليه مرجع كلّ شيء والبشر عارضون زائلون ذائبون في هذا «البحر الأعظم».

الشحرور (مشطور البسيط)

أيّهــا الــشُّحرُورُ غَــرِّدْ فالغِنــا سِرُّ الوُجــودْ
ليتَنــي مِثلُــكَ حُــرٌّ مِــن سُــجونٍ وقُيــودْ

***

لَيتنــي مِثلُــكَ رُوحًــا في فَـضَا الــوادي أطــيرْ
أشرَبُ النّــورَ مُــدامًا في كُــؤوسٍ مــن أثِــيرْ

***

لَيتَنــي مِثلُــكَ طُهــرًا واقتِنَاعًـــا ورِضَــا
مُعرِضًــا عــمّا سَــيأتي غــافِلاً عَــمّا مَــضَى

***

ليتَنــي مثلُــك ظَرفًــا وجَمــالاً وبَهــا
تبــسُطُ الــرّيحُ جَنــاحي كــي يوشِّــيه النّــدَى

***

لَيتَنــــي مثلُــــك فِكــــرًا سَــــابحًا فَــوْقَ الهِـــضابْ
أَســـكُبُ الأنغـــامَ عَفــوًا بَــــينَ غـــابٍ وسَـــحابْ

***

أيّهـــا الــــشّحرُورُ غَــــنّ وَاصرِف الأشــجانَ عنِّــي
إنّ في صَـــــوْتكَ صَــــوتًا نافِخًـــــــا في أُذن أُذني(*)

***

(*) في هذه القصيدة:
- مرآة تعكس قصيدة جبران الشهيرة في «المواكب»: «أعطني النايَ وغَنِّ».
- دعوة إلى البساطة: نَبْذٌ للتعقيد، رَفْضٌ للحضارة، واتّخاذُ الغناء عنوانًا. وكأنَّ في الغنـاءِ سـحرًا يرفع الشاعر إلى عالم تسقط منه أطماع البشر وآلام المستضعفين الذين ينوءون تحت نير الحضارة المرفوعة فوق الجماجم.

الجبار الرئبال[1] (من الرمل):

فِي ظَـــلام اللّيــلِ يَمــشِي مُبطِئًــا
وهــوَ مِثــلُ اللّيــلِ هَــوْلاً قــد بَــدَا
وَحــــدَه يَمـــشِي كـــأنّ الأرْضَ لم
تـــبرِ إلّاه عَظـــيمًا سَـــيّدا[2]

***

ويَـــدُوسُ الـــتُّرْبَ مَرْفوعًـــا كَـــمَا
تلمُـــسُ الأطـــلالَ أطـــرافُ الـــسّحابْ[3]
فكــــأنّ الجِـــسْمَ في أثوابِــــهِ
مِـــن شـــعاع وسَـــديم وضَــــبابْ

***

قلـــتُ: يـــا طَيْفًـــا يُعيـــقُ اللّيـــل في
سَـــيره، هـــل أنـــتَ جِـــنٌّ أمْ بَـــشَرْ؟

---

(١) الرئبال: الأسد.
(٢) لم تَبْرِ إلّاه: لم تخْلق إلاّه.
(٣) الأطلال: بقايا الخرائب بعد عمران.

قـــال مُغتاظًـــا وفي ألفاظِـــهِ
رَنَّـــةُ الهُـــزءِ: أنـــا ظِـــلَّ القَـــدَرْ

***

قلتُ: لا، يا طَيفُ قد ماتَ القضا
يـــوْمَ ضَـــمَّتْني ذراعُ القابِلَـــهْ[1]
قـــال مُحتـــارًا: أنـــا الحـــبُّ الـــذي
لا يَنـــال العَـــيشُ إلاَّ نائِلَـــهْ[2]

***

قلـــتُ: لا فالحـــبّ زهـــرٌ لا يَعـــيش
بَعـــدَ أن تـــذبلَ أزهـــارُ الرّبيـــعْ
قـــال غَـــضبانًا وفي لهجَتِـــهِ
ضَـــجّةُ البَحـــر: أنـــا المـــوْتُ المُريـــعْ[3]

***

(١) القابلة: المرأة التي تساعد الوالدة وتتلقّى الولد عند الولادة.
(٢) نائِلُه: طالِبُهُ.
(٣) المريع: المخيف، الرهيب.

قلــتُ: لا فــالمَوْتُ صُــبحٌ إن أتَــى
أيقَـــظَ النّـــائمَ مِـــن غفلَتِـــهِ
قـــال مُختـــالاً: أنـــا المَجـــدُ فمَـــنْ
لم يَنَلْنـــي مـــاتَ في عِلّتِـــهِ[1]

***

قلــتُ: لا فــالموتُ ظِــلٌّ يَنثَنــي
مُـــضمَحِلاًّ بـــينَ لَحـــدٍ وكَفَـــنْ
قـــال مرْتابًـــا: أنـــا الـــسّرُّ الـــذي
يَتَهـــادَى بَـــينَ رُوح وبـــدَنْ[2]

***

قلــتُ: لا فالــسرُّ إنْ باحَــتْ بِــهِ
يَقظَـــةُ الفكـــرِ تـــوَلّى كالمَنـــامْ
قـــال مُلتَاعًـــا: كفَـــى تَـــسألني
مَــنْ أنــا؟ قلــتُ: أفي الــسُؤلِ مــلامْ[3]؟

---

(١) علّته: مرضه.
(٢) لحدٍ: قبر؛ يتهادى: يختال؛ مرتابًا: شاكًا.
(٣) تولَّى: غاب؛ ملتاعًا: من اللوعة وهي الحزن الشديد.

قَالَ مَحجوبًا: أنا أنتَ، فلا
تَسألَنّ الأرْضَ عنِّي والسّما
فإذا ما شِئتَ أنْ تَعرفَني
فارقُبِ المِرْآةَ صُبحًا ومَسَا

***

قال هذا واختفَى عن ناظِري
مِثلَمَا الدُّخانُ تُذرِيهِ الرّياحْ[1]
تاركًا ما بي مِنَ الفِكرِ يَهيم
بينَ أشباح الدّجى حتى الصّباحْ[*]

***

(١) تُذريه: تنثره، تفرِّقُه.

(*) في هذه القصيدة:

- وحدة الوجود. في عالَم الواحِدِ صورة للعالَم الكبير. وإذا نظر جبران في نفسه نظر إلى الغير. الأنا مرآة تعكسُ الوجود بكليته.

إذا غزلتم (من السريع):

إذا غــزَلتمْ حــوْلَ يــومي الظّنــونْ
وإن حبَكــتُم حَــوْلَ لَــيلي المَــلامْ[1]
فلَــن تَــدُكّوا بُــرْجَ صَــبري الحَـصِينْ
ولَــن تُزيلــوا مِــن كُــؤوسي المُــدامْ[2]
ففــي حَيــاتي مَنــزِلٌ للــسُّكونْ
وفي فُـــؤادي مَعبِـــدٌ للـــسّلامْ
ومِــنْ تَغَــذّى مِــنْ طَعــام المَنــونْ
لا يَختَــشي[3] مــن أن يَــذُوقَ المَنــامْ(*)

***

(١) الظنون: الشكوك والأوهام.
(٢) المدام: الخمرة.
(٣) المنون: الموت؛ يختشي: يخاف.
(*) في هذه القصيدة:
- اليقظة موت الفنان لأنه لا يجد فيها ما يترجم تطلُّعاته.
- المنام ما يلائم جبران لأنه في الوَحدة والسكينة يجد نفسه ويلتقي بها.

الشهرة (من السريع):

كتبْــتُ في الجَــزْرِ سَــطرًا عــلى الرّمــلِ
أوْدَعْتُــه كُــلَّ رُوحــي مَــعَ العَقــلِ

***

وعُــدتُ في المَــدِّ أقــرا وأســتجْلي
فلَــم أجــدْ في الــشّواطي سِــوَى جَهــلي(*)

***

(*) في البيتين:
- قصور الإنسان عن المعرفة الكُلّية في مجتمع البشر.



«المعتمد بن عباد»

بريشة جبران خليل جبران

بالأمس (من الرَّمَل)

كــانَ لي بــالأمسِ قَلــبٌ فقَــضَى
وأراحَ النّـــاسَ مِنـــه واســـتَراحْ
ذاكَ عَهــدٌ مــن حَيــاتي قــد مَــضَى
بــينَ تــشَبيبٍ وشَــكوَى ونُــواحْ[1]
إنّـــما الحُـــبُّ كــنَجم في الفَــضَا
نُــورُه يُمحَــى بــأنوارِ الــصّباحْ
وسُرورُ الحُــبِّ وَهــمٌ لا يَطــولْ
وجمــالُ الحُــبِّ ظِــلٌّ لا يُقــيمْ
وعهُــودُ الحُــبِّ أحــلامٌ تَــزُولْ
عِنــدَما يَــستيَقِظُ العَقــلُ الــسّليمْ

***

كــم سَــهرْتُ اللّيــلَ والــشّوقُ مَعــي
سَــاهِرٌ أرقُبُــهُ كَــي لا أنَــامْ

(١) نشبيب: غزل. وهذا البيت ردّ على الشاعر نسيب عريضة عندما طلب منه بأن يجمع خواطر كتاب «دمعة وابتسامة».

وخَيـــالُ الوَجــدِ يَحمــي مَــضْجَعي
قـــائِلاً: «لا تَــدْنُ؛ فـــالنَومُ حَـــرامْ»!
وسَـــقامِي هَـــامِسٌ في مَـــسمَعي:
«مَـنْ يُريـدُ الوَصـلَ لا يـشكُو الـسَقَامْ»[1]
تِلـــكَ أيّـــامٌ تَقَـــضّتْ، فابـــشِري،
يـــاعُيُوني، بِلِقَـــا طَيـــفِ الكَـــرَى[2]
وَاحـــذَري، يـــا نفـــسُ، ألاَّ تـــذكُري
ذلـــكَ العَهـــدَ ومـــا فِيـــهِ جَـــرَى

***

كُنـــتُ إنْ هَبّـــتْ نُـــسَيمات الـــسَّحَرْ
أَتَلَـــوَّى راقِـــصًا مِـــنْ مَرَحـــي
وإذا مـــا سَـــكَبَ الغَـــيمُ المَطَـــرْ
خِلتُـــهُ الـــرّاحَ فـــأملا قَـــدَحي[3]
وإذا البَـــدْرُ عـــلى الأفـــقِ ظَهَـــرْ

(١) السقام: المرض.
(٢) تقضّت: زالت، مضت؛ الكرى: النوم.
(٣) الراح: الخمر، لأن شاربها يرتاح بعد أن يشربها؛ قَدَحي: كأسي.

وهـي قُـربي صِـحتُ: «هـلاَّ يَـستَحِي»؟
كـلَّ هـذا كـانَ بـالأمسِ، ومـا
كـان بـالأمسِ تـولّى كالـضّبابْ
ومَحـا الـسُلوانُ مـاضِيّ كَـمَا
تَفـرُطُ الأنفـاسُ عِقـدًا مـن حَبَـابْ[1]

***

يـا بَنـي أمّـي إذا جَـاءتْ سُـعادْ
تَـسألُ الفِتيـانَ عـن صَـبٍّ كئيـبْ[2]
فاخبِروهـا: أنّ أيّـامَ البعـادْ
أخمَـدتْ مـن مُهجَتـي ذاكَ اللّهيـبْ[3]
ومكـانَ الجَمـر قـد حَـلَّ الرّمـادْ
ومَحـا الـسُلوانُ آثـارَ النّحيـبْ
فـإذا مـا غَـضِبتْ لا تَغـضَبُوا
وإذا ناحَـتْ فكونُـوا مُـشفِقِينْ

(١) الحَباب: الفقاقيع التي تعلو الماء أو الخمر.
(٢) الصبّ الكئيب: العاشق المشتاق الحزين.
(٣) أخمدت: أطفأت؛ مهجتي: روحي.

وإذا مـــا ضَـــحِكَتْ لا تَعجَبُـــوا
إنّ هــــذا شــــأنُ كُـــلِّ العاشِـــقينْ

***

ليـتَ شِـعري! هَـل لِمَا مَـرَّ رجـوعْ
أوْ مَعـــادٌ لحَبيـــبٍ وأليـــفْ؟
هَـــل لنَفــسي يَقظَـــةٌ بَعـدَ الهُجُـوعْ
لتُرينـــي وَجـــه مـــاضِيَّ المُخيـــفْ[1]؟
هـــل يَعـــي أيلـــولُ أنغَـــامَ الرّبيـــعْ
وعَـــلى أذنَيـــهِ أوراقُ الخريـــفْ[2]
لا، فـــلا بَعـــثٌ لقَلبـــي أو نُـــشُورْ
لا، ولا يَخْـــضَرُّ عُـــودُ المَحْفَـــلِ[3]
ويَـــدُ الحَـــصّادِ لا تُحيـــي الزُهُـــور
بعـــدَ أن تُـــبرَى بِحَـــدّ المِنْجَـــلِ[4]

***

(١) الهجوع: النوم.
(٢) أيلول: سبتمبر، يقصد أول الخريف.
(٣) نشور: قيامة؛ المحفل: المجلس. المعنى: لا تطيب جلساتنا.
(٤) تبرى: تفنَى.



شـاختِ الـرّوحُ بجـسمي وغـدَتْ
لا تـرَى غَـير خيـالاتِ الـسّنينْ
فـإذا الأميـالُ في صَـدري فَـشَتْ
فَبِعُكّـازِ اصـطِباري تَـستَعينْ[1]
والتَـوَت منـي الأمـاني وانحَنَـتْ
قبـلَ أن أبلُـغَ حَـدْ الأرْبَعـينْ[2]
تلك حَالي فإذا قالتْ رَحيل:
مـا عَـسَى حَـلَّ بـه؟ قُولـوا: الجُنُـونْ
وإذا قالـتْ: أيُـشْفَى ويَـزُولْ
مـا بـه؟ قُولـوا: ستَـشفِيهِ المَنُـونْ(*)

***

(١) اصطباري: لغة من صبري: تحمُّلي للشدائد.
(٢) تذكير بقول الشاعر العربي:

ومـاذا ترتجي الشعراء منـي
وقد جـاوزت سـنّ الأربعـين؟

(*) في هذه القصيدة:
- رأي في الحب.
- أسف على الماضي، حزن على ما عَبَرَ.
- خوف من الغد والموت.

ماذا تقول الساقية (من الرَّمَل):

سِرْتُ في الـوَادي وقَـد جَـاءَ الـصّباحْ
مُعلِنًــا سِرَّ وُجـــودٍ لا يَــزُولْ
فــإذا سَــاقيَةٌ بَــينَ البِطَــاحْ
تتغَنَّــى وتُنَــادِي وتَقــولْ:

مـا الحَيـاةُ بالهَنـاء إنّمـا العَـيشُ نُـزُوعٌ ومَـرَامْ[1]
مـا المَماتُ بالعَنـاء إنّمـا المَـوْتُ قُنـوطٌ وسَـقامْ[2]
ما الحكيمُ بالكَلام بـل بسِرٍّ يَنطَـوي تحـتَ الكَـلامْ
مـا العَظيمُ بالمَقام إنّمـا المَجـدُ لمَـن يـأبى المُقـامْ
مـا النَّبيلُ بالجُدود كـم نَبيـلٍ كـان مـن قـتلى الجُـدودْ!
مـا الذّليلُ بالقُيود قـد يكـونُ القيـدُ أسنَى مِـن عُقُـودْ
مـا النّعيمُ بالثّواب إنّمَا الجَنّـةُ بالقلـبِ السّليمْ
ما الجَحيمُ بالعذاب إنّما القلبُ الخَلِي كـلُّ الجَحـيمْ

(١) نزوع ومرام: طَلَبٌ وهَدَفٌ.
(٢) قنوط: يأس؛ سقام: مَرَضٌ.

مـا العُقـارُ بالنُّضار كـم شريـدٍ كـان أغنَـى الأغنيـاءْ[1]!
مـا الفَقـيرُ بـالحقيرْ ثـروَةُ الـدّنيا رَغيـفٌ ورِداءْ[2]
مـا الجـمالُ بـالوُجوه إنّـما الحُسنُ شـعاعٌ للقُلـوبْ
مـا الكَـمالُ للنّزيـه رُبّ فـضل كـان في بعـض الـذّنوبْ
هـذا مـا قالتـهُ تلـكَ السّاقيَهْ
لـصُخورٍ عَـنْ يَمِـينٍ ويَـسارْ
رُبَّ مـا قالَتـهُ تلـك السّاقيَهْ
كـان مـن أسرار هاتيـكَ البِحـارْ(*)

***

(١) النُضار: الذهب؛ العُقار: خيار المال، والكلأ – متاع البيت.
(٢) قول هذه الساقية يحدو بنا إلى تذكُّر قول ملك البدوية:
ولُبْـسُ عَبَـاءَةٍ وتَقرَّ عَيني
أحبُّ إليَّ مِن لُبْسِ الشُفُوفِ
(*) يقول د. إ. كبا في تعليقه على هذه القصيدة: ما تقوله الساقية، رمز الزمن الأرضي الصغير، هو كلام ينقل حكمةَ عالَم المُثُل، ورمزُه هنا «البحار» المترامية كأنها شكلٌ في المدى لزمن الله الوسيع.

أسـئلة

١) هل ترى رأي جبران بصدد الفنون الجميلة كما ورد في «القشور واللباب»؟

٢) ما هو قصد جبران في «نفسي مُثقَلَة بأثمارها»؟

٣) ماذا أراد جبران من سَرد حكاية «القرينة» في «سفينة في ضباب»؟

٤) قارن بين «وعظتني نفسي» و«حفّار القبور» في «العواصف».

٥) إلى مَنْ يتوجه جبران في «لكم لُبنانكم ولي لُبناني»؟ وما رأيه في السياسيين والتجار؟

٦) فسّر ما قالَ جبران في «الكمال»: إذا استطاع الإنسان أن يختبر ويعلم جميع هذه الأمور يصل إلى الكمال ويصير ظِلاً من ظلال الله.

٧) أعطِ أمثلة عن تأثير الإنجيل في هذا الكتاب.

٨) ما هو مفهوم الاستقلال الحقيقي من خلال «الاستقلال والطرابيش»؟

٩) ماذا تعرف عن جحيم دانتي الذي ورد ذكره في «الاستقلال والطرابيش»؟

١٠) كيف وصف جبران الحبّ في «سنة لم تكن قط في التاريخ»؟
وما معنى قوله: «أنت رفيق نفسي الذي فقدته ونصفي الجميل الذي انفصلت عنه عندما حُكِمَ علي بالمجيء إلى هذا العالم؟

١١) ما رأيك في ما ذكره جبران عن تطوير اللغة؟ وهل توافقه في نظرته إلى اللهجات العامية في «مستقبل اللغة العربية»؟

١٢) كيف نظر جبران إلى علاقة اللغة العربية بلغات الغرب؟

١٣) اشرح نظرة جبران إلى العهد الجديد.

١٤) هل تُقرّ المؤلف على موقفه من التقليد (العهد الجديد)؟

١٥) ما هي سمات آمنة العلوية في «إرم ذات العماد».
أعطِ عنها صورة مُختَصَرة في سطور.

١٦) جبران كاتب ذاتي، أي يعبّر عن حالاته النفسيّة وانطباعاته من خلال أشخاصه، فأين تظهر هذه الذاتيّة في «البدائع والطرائف»؟

١٧) ما هي مآخذك على الأسلوب الكتابيّ في «الاستقلال والطرابيش»؟

١٨) هل ترى شبهًا بين قصائد هذا الكتاب وقصيدة «المواكب». اذكر أمثلة على سبيل المقارنة؟

١٩) هل في هذا الكتاب أفكار جديدة لم ترد في الكتب السابقة؟

٢٠) ما هو وجه الشبه بين «البدائع والطرائف» و«دمعة وابتسامة»؟

***

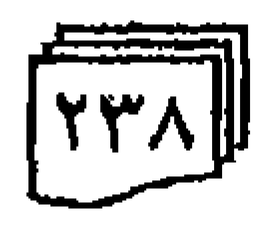
فهرس

أعلام الأشخاص والأماكن والجماعات

المترجَم لها في هوامش الكتاب

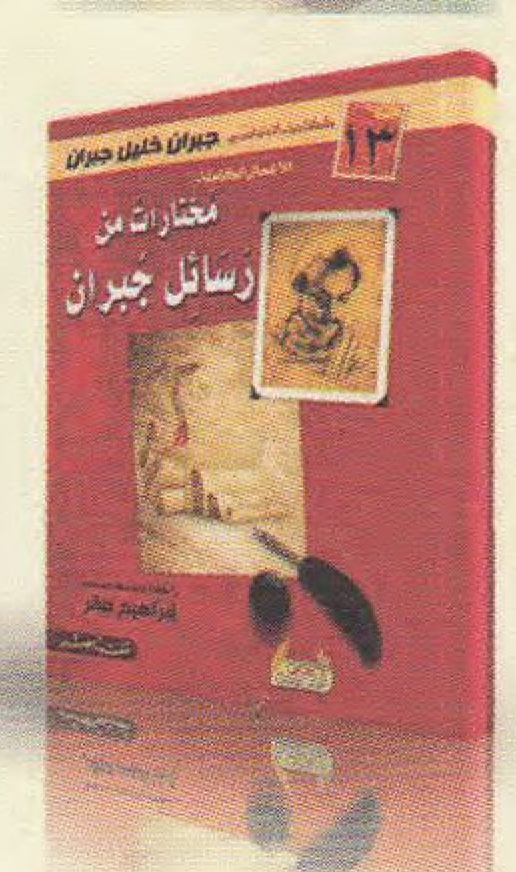
***

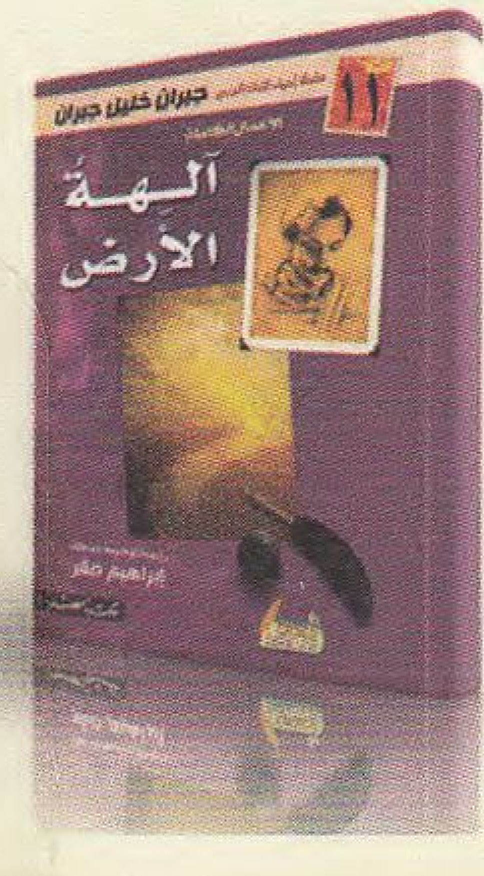
الفهرس

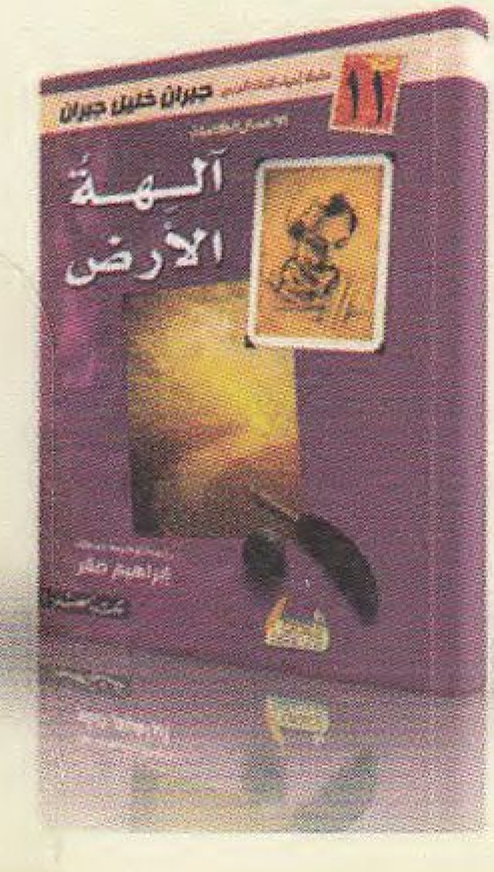


WWW.ALMMARFA.COM












785
ba
1
Bibliotheca Alexandrina
1032531



٢٠ ش عبد المنعم رياض - من ش حسن
زهراء مدينة نصر - القاهرة
ت: ٠١٢٢٣٨٨٨٩٣٠ - ٠١٣٣٣١٢٢٣٨
mail : almmarfa@yahoo.com
almmarfa@gmail.com

عبلين - الجليل - فلسطين
جوال: ٠٥٢٣٠٧٧٣٣٤ (٠٠٩٧٢)
٠٥٢٨٥٠٢٨٢٦ (٠٠٩٧٢)
فاكس: ٠٤٩٥٠٢٤٧٢ (٠٠٩٧٢)

